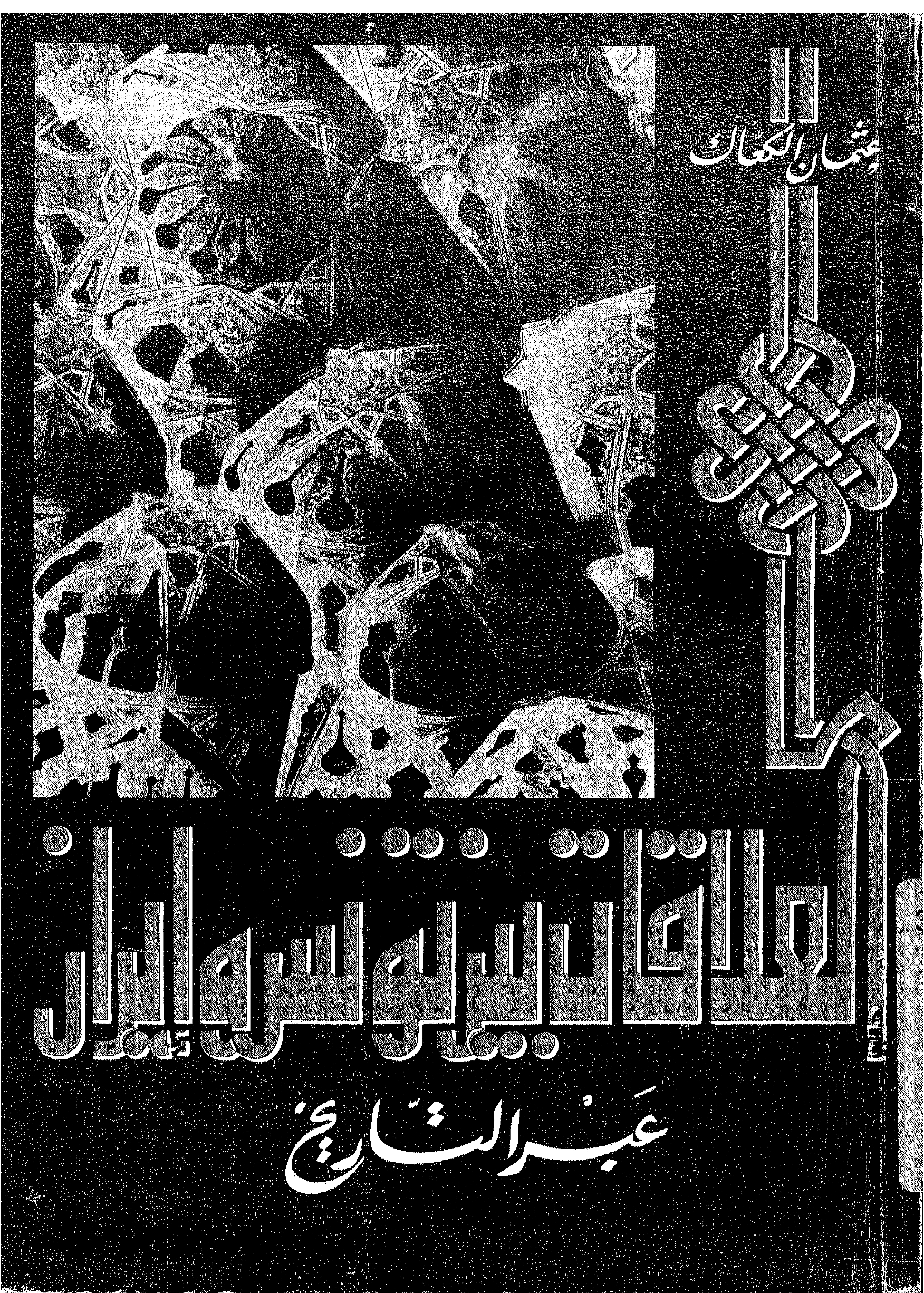

عثمان الكعاك
العلاقات بين تونس وإيران
عبر التاريخ

التعريف بالمؤلف

● ولد عثمان الكعاك بضاحية قمرت (احواز تونس الشمالية) سنة 1903

● متزوج وله اربعة بنات

. زاول تعلمه الثانوي بالمدرسة الصادقية وانتقل سنة 1926 الى باريس حيث تابع دراسته العليا بجامعة السربون (La Sorbonne) وبمعهد اللغات الشرقية (Institut des Langues Orientales) ثم بالمعهد التطبيقي للدراسات العليا (Ecole Pratique des Hautes Etudes) وبكوليج دي فرانس (Collége de France)

● تحصل على ديبلومات في اللغات التالية :

— الاداب العربية

— العربية الدارجة بشمال افريقيا

— العربية الدارجة بالمشرق

— اللغة الفارسية

— اللغة الحميرية

— يحسن كتابة ولهجة اللغات البربرية، الاسبانية، التركية، الانقليزية والالمانية

● درس على عدة مستشرقين من ذوي الشهرة العالمية مثل هنري مارسي (Henri Marçais) جورج كولان (Georges Colin) ويليام مارسي (William Marçais) و محمد قزويلي خان.

شغل الوظائف التالية

— استاذا بمعهد الدراسات العليا وبالمدرسة العليا للغة والآداب. العربية

اهداءات ٢٠٠٣
أسرة أ.د/على عبد الواحد وافى
القاهرة

عثمان الكعّاك

العلاقات بين تونس وإيران

عبر التاريخ

الشركة التونسية للتوزيع

المقدمة

ليس هذا الكتيب دراسة كاملة ولا عميقة ولا نهائية ولا تحديدية لموضوع العلاقات الإيرانية التونسية عبر التاريخ وبكامل وجوهها وجوانبها الحضرية. فذلك يفتقر إلى مزيد وقت وإلى تفرغ مستديم وإلى مجموعة دراسات منفردة monographies لا يوجد منها الان إلا القليل وإلى تعمق مقارن تدقيقي مدقق في مظاهر الحضارة بين الشعبين من الحضارة الشعبية التي هي الفولكلور إلى الحضارة اليومية التي هي المسكن والملبس والمطعم والمشرب والتحلي والتختم والمشموم والتعطر والتبخر وأنواع الزينة والاداب العامة الشعبية والاداب المقارنة إلى غير ذلك مما يؤلف جملة بحوث متصلة ببعضها متحدة في مجموعها ، وإن كان كل واحد منها عالماً بذاته ومحل بحث يحتاج إلى وثائق عدة كتابية وشفاهية وكتبية وسمعية وبصرية تلتقطها من فم العجوز تطبخ الرشتة (والرشتة طعام عجيني من أصل فارسي) إلى وثيقة فريدة تنام في مجاهل الأرشيف على فراش من الغبار ودثار من النسيان كعبارة « سبي قاضي » أي سباهي القاضي أي الجندرمة الراكبة التابعة للقاضي والتي لم تعد معروفة الان إلا في كتب النوازل القديمة التي لا يعرفها إلا من قل من الناس.

إنما هذا الكتيب هو وضع للخطوط الأولى العامة بحروف كبرى عريضة لهذه العلاقات السحيقة عمقاً في التاريخ والممتدة إلى الان والمستمرة إلى ما بعد يوم الناس هذا والتي هي سلسلة من الحلقات المتماسكة المتتابعة بدون حلقة مفقودة من ألفها إلى يائها.

وبالحقيقة ـ وأحببنا أم كرهنا ـ فإن تاريخنا مشترك في أعظم أجزائه وجانب طيب من تاريخ إيران لا يفسره إلا تاريخ تونس. وأنا أعتقد

أن الكثيرين من إخواننا الإيرانيين لا يتصورون أن لحضارتهم امتدادا بتونس منذ أقدم العصور فهم لا يعلمون أن نسابي البربر القدامى جعلوا أصولهم في الفرس وأن الطربوش المغربي الذي عم ثلاث قارات أصله من شاش وازدهر بتونس وأن إدارة أو وزارة عامة في كامل الأقطار العربية تحمل اسماً فارسيا على وجه الدهر وهي «البريد» وأن نظام هذا البريد يحمل ألفاظاً فارسية أخرى مثل الفرانق.

وأن أكبر حزب تونسي يعتمد على لفظ إيراني وهو الدستور وأن عناوين كل الحكومات التي لها نظام قانوني هي حكومات دستورية وأن نظم الدول هي الدساتير وأن نظام الثغور البحرية يعتمد على ديوان البحر الذي عم العالم في القرون الوسطى والان فانتشرت الكلمة في اللغات العربية والكثير من الأوروبية. وأن الكثير من الأزهار والأشجار هي من إيران وأن السكر والزليج هما من إيران إلى غير ذلك.

وكذلك قد يعلم التونسيون وقد لا يعلمون أن كثيرا من مؤسساتهم هي ذات أصل إيراني سواء في الإدارة أو العسكرية أو المعمار أو التجارة أو الفلاحة أو الصناعات التقليدية فهي أيضا من أصل إيراني. وأن كثيرا من العلماء التونسيين قد أقروا بإيران وأن ابن خلدون هو من أكبر المؤرخين الذين درسوا في شيء من الاستعجاب تاريخ إيران وحضارة إيران وفلسفة التاريخ الإيراني.

فهذه هي الأصول العامة والخطوط الكبرى التي أردنا أن نسطر جدولها وأن نحرر أصولها وأن نبين ملامح معالمها لا على وجه الاستيعاب والشمول ولكن على وجه رسم بياني وفهرست قابل للشرح والتحليل، فجمعنا ما تفرق ورتبنا ما تشوش وصنفنا ما تلاشى إطاره والتقطنا الدرر المتناثر عقدها والجواهر التي غاصت في أصدافها في بحار النسيان ثم قارنا فتوفرت لدينا مادة عجيبة واندهشنا من الحصيلة الطيبة. ولكن هذا فاتح لباب لا مغلق لقوس، ومناط بحث لا مسك ختام.

واعتمدنا فيما جمعنا على مطولات الكتب ومختصراتها وعلى لغات

عرفنا بعضها واعتمدنا على ترجمة بعضها على البعض الآخر. ورجعنا إلى دراساتنا الإيرانية بمدرسة اللغات الشرقية منذ ما يزيد عن الأربعين سنة يوم سفرت لنا إيران عن محياها الجميل الرائع وتبدت لنا بقدها الرقيق الفاتن. فطربنا لنبرات لغتها كما طربنا لموسيقاها. ودرسنا بعض آدابها فأميط لنا اللثام عن عالم جديد وأقبلنا على دراسات مقارنة في اللغات الآرية من السنسكريتية إلى الفهلوية إلى اللغات الصقلبية واليونانية واللاطينية والجرمانية واللغات اللاطينية المعاصرة من إيطالية وفرنسية وإسبانية وبرتغالية. فتحصلت لدينا معلومات طريفة عن إيران إذ كان يستضيفنا أستاذنا الكبير العلامة المرحوم محمود قزويني خان كاتب السفارة الإيرانية بباريس في منزله بروضة مونسوري من أحياء العاصمة الفرنسية فنقضي أوقات مطولة في الدراسات الإيرانية والعربية ثم نجتمع بأستاذ نا الاخر المرحوم محمد محلاتي خان معيد الفارسية بمدرسة اللغات الشرقية فنتجاذب أطراف الحديث في كل ما لذ وطاب من بحوث لغوية وأدبية وفولكلورية مقارنة ثم كان أستاذنا H. MASSÉ يعلمنا بأسلوب آخر وهو أسلوب اللغات الارية المقارنة والاداب الفارسية والعربية الأوروبية المقارنة فنقضي العجب ثم كنا طالما نجتمع بالأستاذ مينورسكي فندرس الإيرانيات من زاوية أخرى. حتى إذا عدنا إلى بلدنا تونس كنا ننظر إلى ألفاظ الحضارة وتاريخ الحضارة بعين أخرى ، فعلى حين كنا ندرس الشاشية (الطربوش المغربي) من ناحية أندلسية إذ صرنا ننظر إليها من أصولها الإيرانية ودرسنا تاريخ الصناعات والزراعات والعلوم والاداب من هذه الزوايا أيضا فارتفعت الحجب المستورة وانفتحت الآفاق وأدركنا أن هناك محورا تونسيا إيرانيا تدور على قطبيه منذ عشرات القرون السياسيات والعسكريات والحضريات والعلوم والاداب والفنون.

وقسمنا هذه الرسالة إلى الأقسام الاتية :

أولا : المقدمة التي هي هذه والتي هي تخطيط للكتاب نفسه.

ثانيا : الباب الأول : الأطوار التاريخية. بدأناها من أقدم العصور

واستمررنا فيها إلى يوم الناس هذا فبسطناها دولة بعد دولة وقارناها دولة إيرانية بدولة تونسية معاصرة واستخرجنا ما هنالك من وجوه التأثير المتبادل ومن أسباب الشبه ، فصرنا كأننا في متحف تاريخي مقارن ، كأننا نستعرض شريطا سينمائيا قد وضحنا معالمه ومراحله وأساريره بقدر الإمكان. فبدأ بالعصر البربري الإيراني الأول واستمررنا إلى عصر العاهلين الجليلين العظيمين اللذين شعارهما :

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل فوق ما فعلوا

ثالثا : الباب الثاني : ابن خلدون والدراسات الإيرانية

وذلك لأن ابن خلدون هو التونسي الأول الذي تعاطى بعلم ومنهاجية ومقارنة الدراسات الإيرانية IRANOLOGIE وقد تعاطى ذلك في مكانين:

المكان الأول : المقدمة ، فبين فلسفة التاريخ الإيراني ومعالم القوة والضعف فيه وأصول حضرياته وما كان له من تأثير في الحضارات الأخرى. فعقد مثلا بابا كاملا في أن علماء الإسلام معظمهم من العجم ومع أننا لا نفرق بين أحد من رسله ففي هذا توضيح وشجاعة؛

المكان الثاني : « كتاب العبر » الذي هو تاريخ عالمي فقد تحدث عن تاريخ الإيرانيين :

أولا : قبل الإسلام فاستعرض أصول الإيرانيين وبين دولهم وتحدث بأطناب عن كورش وعامة الدول إلى أن بسط القول عن الساسانيين واعتمد في ذلك على مؤرخين إيرانيين ومؤرخين رومان وعبرانيين ومؤرخين عرب.

ثانيا : بعد الإسلام فتحدث عن الدول: الطاهرية والسامانية والغورية والغزنوية وأفاض القول في ذلك مع إيراد اعتبارات أشبه بفلسفة التاريخ منها بالتاريخ.

ثم هو بدأ الدراستين المذكورتين ببسطة عن جغرافية إيران

اعتمد فيها على جغرافيين إيرانيين (كابن خرداذبه) وعرب (كالمسعودي) ولا سيما التونسي المغربي الا خر الشريف الإدريسي الصقلي.

فنحن عندنا صورة واضحة عن إيران إقليما وشعبا وتاريخا وحضارة وعلوما وآدابا وفنونا بفضل ابن خلدون ما زالت الأجيال تطالعها جيلا بعد جيل منذ سنة 790 إلى سنة 1390 أي منذ ستة قرون كاملة. هذا علاوة عن أن أحمد المقري التلمساني أكمل تاريخ ابن خلدون فزاد قرنين آخرين ونصف القرن.

رابعا : الباب الثالث : المؤسسات العسكرية ورجالات تونسيون في كل الفنون من أصل إيراني.

يظهر هذا الباب عجيباً ، وكأنه سبق قلم أو رواية افتعالية أو كأنه باب مصطنع ملفق. لا وحقك يا سيدي القارىء الكريم ، ففي البلاد التونسية في عهد الدولة المهلبية وفي عهد الدولة الأغلبية جيش خراساني إما من الخراسانيين الأصليين أو من العرب الذين أقاموا بخراسان وأحيانا ولدوا بها و « تخرسنوا » أي « تفرسوا » ولتعلم أن عدد الجيش الخراساني 30،000 مقابل 10،000 للجيش العربي. وأن قواد هذا الجيش في هذين القرنين الثاني والثالث الهجريين كانوا من الخراسانيين كما ستراه مع إثبات المصادر التي نقلنا عنها بالحرف الواحد أحيانا. فقد كان هناك حتى وال خراساني.

ونستعرض بنفس المناسبة أسماء وتراجم رجالات إيرانيين لعبوا دورا بتونس في فنون عدة من الفقه والإدارة والعسكرية وغيرها.

ومن نظر في هذا قضى العجب العجاب ناهيك أن أسد بن الفرات من نيسابور وهو صاحب الأسدية أي مدخل المالكية والحنفية إلى تونس وقاضي القيروان الحنفي إلى جانب سحنون المالكي وفاتح صقلية ومدرس الفقه بجامع القيروان على حين كانت ابنته تعلم النساء في نفس الجامع.

خامسا : الباب الرابع : العلوم

من علـوم دينيـة كالتفسيـر (الزمخشري) والحـديث (البخـاري والنسائي والتـرمذي) والفقـه والفـرائض. أو كالعلـوم الرياضيـة أو الطبيعية أو الفلسفيـة أو الـكيمياويـة والطبيعيـة والفلـكيـة فتـأثير الإيـرانيين في هـذه العلـوم عنـد التونسيين ظاهـر قائـم .

سادسا : البـاب الخـامس : الاداب

وفيهـا يبـدو تأثيـر كليلـة ودمنـة وألف ليلـة وليلة والإنشـاء الإ داري والمقـامـات وصنـوف الشعـر والملحمـة.

سابعا : البـاب السادس : الفنـون

من معمـار ونقش ونحت وموسيقـى. فالبيت التـونسي منـذ العصـر الفينيقي هو بيت من مدينـة «الحيـرة» مستـوهب من الطـراز الإيـراني. والبيت الريفي هو إيـراني اسمـا ومسمـى وهـو «الـكربـي Gourbi» والفسيفسـاء والزليـج إيـرانيـان أو من تأثيـر إيـراني والـكشـك (المقعـد) والإيـوان (البرطال) إيـرانيـان. وكـذلك العناصر الزخـرفيـة من ياجـور مطلـي أو طـوب مطلي والجـريديات سواء في البناء بالاجـر أو في الطـراز والزركشـة أو في نقش الـرخـام والمعـدن والخشب (محـراب القيـروان) والمعينـات (البقـلاوة Losange) التـي تجدهـا في منبر القيـروان أو التي تجـدها في صناعـة الزربيـة والغطـاء والصوفيـات البربـريـة أو المستطيـلات المقسمـة إلى مثلثـات (الصوفيـات البربريـة) ومنبـر القيـروان وجامـع ابن خيـرون المسمـى بجامع الأبـواب الثـلاثـة. وكذلك الأهليلجيات التي تجـدها في الخط الـكـوفي أو تجـدها في زخـرف الـرخام والخشب وكذلك التعريش والتوريق والتغصين والتزهيـر التي تجـدها في زخـرف الـرخام أو الخشب أو الخط الـكـوفي ولا سيمـا مقصورة المعـز بن باديس القيـروانيـة وهي من الخط الـكـوفي العجيب المنقـوش في صميـم الخشب وهي تشبه أطار آمـدة المشهـور. وكذلك الخاتـم الإمضائي المسمى خنفساء الذي تجـده عنـد العـدول Notaire التـونسيين والذي تجـده حتـى في العهـد الفينيقـي Vercoutter

ثامنا : البـاب السـابع : الصناعات التقليـديـة

وعلى الخصوص الزربية التي جاءت مع الجند الخراساني وبني المهلب الذين كانوا أمراء إيران فتأثرت بالزربية البربرية والزربية البيزنطية وأخذت طريقها بعد ذلك فاتخذت لنفسها شخصية فتحت لها منذ العهد الأغلبي الأسواق العالمية.

ومنها الطربوش المغربي: الشاشية: التي أصلها من مدينة شاش ويبدو أنها جاءت مع الجند الخراساني أيضا ثم ترقت وذهبت إلى الأندلس ورجعت فعمت أقطار البحر المتوسط في عهد المراديين والحسينيين أعني العهد التركي بتونس بداية ونهاية. ومنها الحرير الذي أسست معالمه بقابس في الجنوب الشرقي التونسي فغرس التوت الصالح بدود القز وربي دود القز وكان هناك عشرات عشرات المعامل وما كانت أقطار البحر المتوسط لتتزود بالحرير المنسوج والمزخرف والمزركش إلا من تونس فلها وحدها الإختصاص في البحر المتوسط في حوضه الغربي على الأقل، وكذلك صناعة السلاح المرصع والمنقوش من سيوف ورماح ودرق معدنية مرصعة بالذهب ومزينة بالصور الحربية الرائعة.

والغضار وهو المطلي من صحون وفناجين وزليج وأواني وزهريات

تاسعا : الباب الثامن : التصوف

وهذا باب طويل عريض فمن أهم الشخصيات الصوفية الإيرانية الأصل المنتشر أثرها العظيم بتونس الغوث عبد القادر الجيلاني الذي دخلت طريقته وزواياه تونس من أوائل العهد الحفصي فانتشرت بها إلى يوم الناس.

عاشرا : الباب التاسع : الفلاحة

دخلت المزروعات الإيرانية تونس في عصرين:

أولا : على عهد الفينيقيين فجاء الرمان والتفاح والخضر بينما لم يكن على عهد البربر من الأشجار التونسية إلا التين والزيتون، وجاءت الأشجار الغابية أيضا.

ثانيا : في العهدين المهلبي والأغلبي جاءت المحامض لأول مرة في

تاريخ البحر المتوسط والعالم الغربي وهي النارنج والليمون والليم كما جاءت القراصيا والأشجار الغابية المثمرة من جوز وفستق وبندق (صنيبرة) وأبي فروة.

أحد عشر : الباب العاشر : باب جامع

نتحدث فيه عما لا يدخل في الأبواب كأسباب الحضارة المختلفة من مشروب ومأكول ومشموم وحلي وغيرها.

هذا ما كتبناه ولسنا نأمن فيه الغلط ولا ندعي الإحاطة. ولكننا كتبناه بمعرفتنا وإيماننا وخلوص نيتنا. وفوق كل ذي علم عليم — والله ولي التوفيق.

عثمان الكعاك

نظرات عامة

يجب أن نعلم أن الحضارة الفارسية حضارة انتشارية. أي قد تجاوزت حدود إيران إلى ما حولها ثم إلى ما حول ما حولها وهلم جرا حلقة بعد حلقة « كلجة الماء ترمي فيه بالحجر » إلى أن وصلت موجاتها الكبرى إلى هذا الساحل التونسي المضياف المتطلع إلى الحضارات المحتضن لها العامل على تنميتها وتزكيتها الناشر لها بدوره في أصقاع مجاورة « كلجة الماء ترمي فيه بالحجر ».

ولو أننا أخذنا خريطة البحر المتوسط بما في ذلك الشرق الأوسط ونظرنا إلى إيران وتونس لرأينا خطا يمتد من هذا القطر إلى ذلك. ثم لو أخذنا مسطرة وقلماً ورسمنا خطا بين الطرفين لوجدنا محورا تاريخيا عظيما يمتد ثلاثة أمداد في القديم والحاضر والمستقبل حتى ولو نظرنا إلى انتشارية الحضارة الفارسية لرأينا إيران قورش منذ خمسة وعشرين قرنا قد وحدت إيران ثم فتحت بلاد آشور وعيلام ثم بلاد الأناضول والشام التي كانت تابعة لليونان القدامى. فجمعت حضارات كبرى في بوتقة واحدة الحضارة الهندية الأوروبية والحضارة العربية الاشورية والحضارة الحثية اليونانية علاوة عن حضارة الفينيقيين والعرب من الشمال إلى الجنوب.

فهذه دنيا حضرية مترامية الأطراف متعددة الجوانب عميقة الأثر شاملة لأصول التمدن السياسي والإداري والعلمي والفني والأدبي والتقني؟

فعلى حين أن حمورابي الأشوري يضع أول قانون للعالم وعلى حين

أن قـرطاجنـة تضع أول دستور للعالم وأول بلديات منتخبة نرى قورش الأمبـراطـور العظيـم يضع أول إعـلان لحقـوق الإنسـان. فمن مجمـوعـة هـذه المظاهـر الحضرية الأساسيـة لإقـامـة الدول والمجتمعـات البشرية المنظمـة السليمـة يتبين إليك ما خطاه المجتمـع البشري في ذلك العهـد من خطـوات شاسعـة إلى الأمـام أصيلـة وطريفـة وعميقـة وكأنهـا نهـائيـة.

وإذا نظـرنا إلى عالم أصغـر بعد هذا العـالم الأكبـر إلى هذا « الكلاه ــ الكـلاح ».. الطـربوش الذي كان يلبسـه الإيـرانيـون القـدامى ولا يـزال وإلى ما نتـج عنـه من « شاشيـة » (الطربوش المغربي الشهيـر) وما كتب لها من انتشار على كامـل ضفاف البحـر المتـوسط والقارة الإفـريقيـة والإمبراطوية العثمـانيـة ــ بعـد أن مـر الكـلاه بـ « القلنسـوة الإفـريجيـة Le bonnet Phrygien » الـذي هــو سيمـاء اليـونـان ــ وحتى الجمهـوريـة الفرنسية نعلـم ما كان بعـد ذلك من انتشار لهـذه الحضارة الفارسيـة الأصيلـة التي ضمت إليهـا عناصر حضارات أصيلـة أخـرى وكـونت منهـا حضارة عالميـة شاملـة جامعـة منذ عصر قورش فما بعـد.

ثم إن نظـرنا إلى « إنسانيـة الحـرب » ومعاملـة المغلـوب معاملـة تكـاد تكـون معاملـة الغالب ومعالجـة الأسـرى بأسلـوب إنساني سام ليس فيـه حقـد ولا تشف بل فيـه رحمـة وشفقـة وقابلت ذلك بما كان يعـامـل به القـوي الضعيف يومئـذ وحتى الان تعجبنا من هذه الحضارة التي تضع الإنسانيـة فـوق نخـوة الإنتصار ولا تنسيهـا خمـرة الفـوز أن الغالب والمغلـوب إنسانان قبل كـل شيء.

انظر إلى قورش العظيم ومعاملته للأشوريين بعد استيلائـه على بابل. ثـم انظـر إلى تسـامحـه الدينـي الذي جـعلـه شبـه مغـرم مولـع بالمـجموعـات فهـو يضم الأوثان إلى الأوثان والأديان إلى الأديان ورأيـه في كل ذلك أن لا إكـراه في الدين فاقتـربت منـه الشعـوب وانضمت إليـه حتى ظنت أن إلاه أشـور الأعظـم هو الذي قيظـه لخيـر شعب اشـور.

وإذا نظـرنا بعد ذلك إلى علاقات إيـران والعـرب في العصر الساساني وجدنا دولـة المناذرة تمثـل صـورة أوليـة نمـوذجيـة مسبقـة لما سيكـون

عليه التعاون الحضاري الإيراني العربي في عهد العباسيين ورأينا هذه الحضارة الإيرانية العربية المشتركة تمتد إلى تونس أيضا فإن طراز دار « الحيرة » هو الطراز السائد على الدار التونسية منذ العهد الفينيقي إلى يوم الناس هذا. ورأينا الفسيفساء تأتي من هناك إلى مصر ومن مصر إلى المغرب ومن المغرب إلى إيطاليا كما سنرى بعد حين في عهد هارون الرشيد أن الزليج القاشاني يأتي من هنالك أيضا ويزدهر في تونس ثم المغرب ثم البلاد الأوروبية قاطبة .

ثم يأتي الإسلام الأول فيدخل فيه الإيرانيون زرافات ووحدانا ويتولون العمل بجد لبناء معالمه الكبرى الدينية والفلسفية والتصوفية والرياضية والفنية والأدبية والتقنية.

فالتقني العسكري في إسلام الرسالة هو سلمان باك الذي وضع حرب الخنادق والاستحكامات على وجه الدهر إلى جانب سياسة الكر والفر البربرية فتمكن العرب من أسلوبين استراتجيين متقابلين استراتجية الفرار والحصار واستراتجية التحرك ولا شك أن الذي يمعن النظر في تاريخ الغزوات الإسلامية قديمها وحديثها يجدها تدور حول هذين القطبين حسبما يراه قادة يومهم الأنفع والأصلح والأنجع.

ولما جاء العهد الأموي جاء كاتبه الأكبر عبد الله بن المقفع فوضع الأسلوب الإنشائي الرسائلي في الإدارة التي كانت يونانية اللغة وإيرانية اللغة. ووضع الأسلوب القصصي السامي والإنشاء الطويل النفس بترجمة كليلة ودمنة من الفهلوية ، فوضع معلما للنشر القصصي المطول ووضع للعالم ابتداء من العربية وعن الفهلوية « دائرة معارف » للحكاية على السنة الحيوانات ، فانتشرت عند العرب والبربر والإفرنج مشرقا ومغربا وترجم آيينامه أي كتاب النظم الإدارية والمؤسسات الحكومية فاقتبس منه الأمويون ما شاؤوا واعتمد عليه العباسيون في المشرق والأغالبة في المغرب. فكانت الإنطلاقة الدولية والإدارية والأدبية والترسلية كبيرة وعميقة وطريفة وشاملة ونهائية.

ثم جاءت الدولة العباسية فكانت تنميا طبيعيا عملاقيا لما كان عليه الإشتراك في العمل بين الإيرانيين والعرب على عهد الساسانيين والمناذرة مع العلم بأن الحماية الساسانية القديمة تحولت إلى تساوبين الإيرانيين والعرب في الإمبراطورية الإسلامية التي لم تستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا والتي لا فضل فيها لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، وتقوى الإيرانيين عامة وعلمائهم خاصة فإن الكثيرين من كبار علماء الإسلام في التفسير وعلوم الحديث والفقه والأدب والفنون والرياضيات والفلسفة والتصوف من الإيرانيين فمزيتهم في الحضارة الإسلامية قاهرة وآثار الإشتراك الحضري بينهم وبين العرب بينة قائمة ظاهرة قد كانت الدعامة التي قامت عليها الحضارة الإسلامية أي حضارة الأمم كلها في أعالي القرون الوسطى ويبدو أن اتحاد الإيرانيين والعرب والبربر والأتراك ضرورة تاريخية لا محيد عنها لبناء الهيكل الحضري. فكل عنصر من هذه العناصر كانت له حضارته الخاصة قبل التحامه بالعناصر الأخرى لكنها تضاعفت بالإلتحام فلما جمع قورش بين حضارة إيران وعيلام وأشور أي بين العناصر الآرية والعناصر السامية كانت الحضارة الساسانية العديمة النظير.

ولما اتحد العمل الحضاري العباسي في اتحاد بين الإيرانيين والأتراك والعرب والبربر المغاربة كانت الحضارة الإسلامية الكبرى في عصرها الذهبي. فيبدو أن التحتم التاريخي يفرض التعاون بين هذه العناصر الحضرية الطيبة للفوز بالنسبة الحضرية الأفضل على وجه الدهر.

ثم لما ظهرت الدولة السلجوقية بقونية في الأناضول وما إليها وهي دولة تركية إيرانية عربية شاركت فيها حتى عناصر أندلسية مثل محي الدين عربي الطائي الذي كان شيخ صدر الدين ألتبريزي وجلال الدين الرومي والتي أثر فيها حتى الفن الخشبي القيرواني فإن منبر جامع قونيه الان (والمؤرخ بالقرن الثالث أو الرابع — الشك مني — وقد رأيته ودرسته) هو نسخة طبق الأصل من منبر القيروان (249 هـ) وما تأتي نسخة أخرى إلا في منبر جامع الزيتونة الذي هو من نفس الفيئة.

فلما كانت الدولة السلجوقية كانت نهضة حضرية كبرى مهدت السبيل إلى حضارتين اثنتين، الحضارة الغزونية بالهند والحضارة العثمانية بالأناضول (بروسه) أولا وبأدرنه ثانيا وبإسطمبول على عهد محمد الفاتح فيما بعد ثالثا.

والإنسان يندهش ويقضي العجب العجاب لما وصلت إليه هذه الحضارات الفسيحة العميقة المادية والأدبية والعملية والروحية التقنية والتصوفية الرياضية والأدبية الفقهية والموسيقية التي تجمع بين فقه الدين وفقه النفس وفقه البدن.

فقد جمعت في بوتقة واحدة بواسطة الترجمة الشاملة علوم الصين والهند وإيران وأشور واليونان والفينيقيين والبربر والرومان واليهود.

وقد ولد الإسلام لنفسه علوما كثيرة احتاج إليها :
أولا : علوم اللسان التي احتاج إليها لفهم القرآن والحديث. فوضع النحو والبلاغة ومتن اللغة وعلم المعاجم. ثم وضع لغيره من الأمم كالترك والبربر واليهود كتب النحو والمعاجم. ثم وضع علم النحو المقارن منذ القرن الثالث الهجري ووضع معاجم اللغات من فارسية وتركية ويونانية وبربرية وعبرانية وأندلسية.
ثانيا : علوم الدين من تفسير ومصطلح حديث وفقه وفرائض.
ثالثا : العلوم والمخترعات التي لا بد منها للاسلام مثل المسالك والممالك لمعرفة طرق الحج وإلى جانبها كتب المناسك والرحلات الناتجة عن الحج والجغرافية الضرورية لكل ذلك.

ثم وضع علوم الميقات ومنها المزولة ثم المرملة ثم الساعة لضبط أوقات الصلاة.

ثم وضع الالات الفلكية الكبرى لضبط علم النجوم لتحرير مداخل الشهور من أجل رمضان المعظم.

ثم وضع البوصلة ودفة السفينة والإسترلاب لتسهيل الملاحة من أجل الحج.

ثم وضع علم الجبر من أجل الفرائض؛

ثم وضع الأرقام والصفر ومنازل الأرقام والمثلثات والمقابلة لأجل الحسابيات العليا الضرورية لعلم الفلك.

ثم وضع فن الجوامع التي هي بيوت الله. فعرف القبة واستنبطها وجعلها فوق المحراب لينكب نورها على الإمام الذي هو الشخصية المقتدى بها من طرف المصلين. وجعل الشمسيات الزجاجية الملونة المزخرفة بالزخارف النباتية والزهرية لإنارة الجامع إنارة تصوفية في النهار. فأخذت الكنائس هذه الشمسيات عن الجوامع كما أخذت القبة والقائم والنائم أي جرات بيضاء سوداء في الأقواس (ويشاهد ذلك في كنيسة Vezelay بفرنسا مثلا).

جعل الإسلام الجامع مركبا إسلاميا فهو بيت صلاة وفوروم Forum إسلامي للخطبة السياسية الإجتماعية والاقتصادية ورباط لحراسة الثغور ومحل للعقود الاجتماعية والاقتصادية ومكتبة ومدرسة ومرصد فلكي فهو جامع بأتم معنى الكلمة والكلمة ليست ترجمة ا Ekklesia اليونانية التي هي بمعنى محل الاجتماع ولا بـ Synagoghy اليونانية أيضا التي هي بمعنى المكان الذي تؤول إليه جميع الخُطا. ولكن هي بمعنى جامع للمصالح الإسلامية التعبدية والسياسية والعسكرية والعلمية والأدبية والفنية.

وقد أثر الجامع في الكنيسة ولم تؤثر الكنيسة في الجامع خلافا لما يذهب إليه بعض علماء الفن المعماري المقارن.

(انظر في إثبات نظرية تأثير الجامع في الكنيسة)

Gonzalès Palencia : El - Islam y Occidente.
Emile Male : œuvre.
Dr Ahmed Fikry : La cathédrale du Puy.

فقد أخذت الكنيسة عن الجامع القبة والشمسيات والمنبر المزخرف (انظر مجموعة منابر Ravello قرب نابلي بإيطاليا فهي أعجوبة الفن العربي).

والسبب في ذلك هو أن الجامع النموذجي الأول هو جامع عقبة بالقيروان ففيه نماذج جميع الا نطلاقات المعمارية التي حدثت فيما بعد من قبة ومحراب وشمسيات ومنبر وزليج ونقش عربي في الحجر وزخرف زيتي في الحواجز وزخرف خشبي في السقوف والأبواب ونماذج كاملة من الخطوط الكوفية من أبسطها حفرا إلى أجلها بروزا من الكوفي المجرد البسيط إلى الكوفي المزهر على الحجر والكاغد والخشب (فمقصورة الجامع مثال فريد في الكوفي المزهر الذي على الخشب بحجم الطومار (33 صم) .

ومن جامع القيروان تولد جامع قرطبة وزاد الكثير على جامع القيروان ثم أن نصارى إسبانيا لهم حواريهم الذي هو القديس يعقوب وهو مدفون بقمبشتالة Compostella في الشمال الغربي من إسبانيا فبنوا له بواسطة مهندسين معماريين وتقنيين أندلسيين كنيسة فيها أصول جامع قرطبة، فصار كأنه نسخة منها، وصار طريق الحج للإسبانيين والألمانيين وغيرهم فمن ذهب إلى الحج قضى حاجة ووعد ان تم ماربه ببناء كنيسة على غرار القديس يعقوب St Jacques فتكاثرت بأرروبا وتناقلت الكنائس التي على غرار القديس يعقوب وبالتالي الجامع الأموي وفي الأصل جامع عقبة بالقيروان. ثم أن الإسبانيين بدؤوا حركة الاسترجاع أي استرجاع المدن التي بأيدي المسلمين. وكلما استرجعوا مدينة أجلوا المسلمين عنها واستبقوا منها حتما المهندسين والمعماريين والبنائين والمزوقين والنجارين والحدادين والمصورين والموسيقيين وعامة التقنيين وبنوا لهم حارة خاصة قرب المدينة سموها معربة Moreria وأمروهم ببناء كنائسهم ومدارسهم وأديرتهم وقصورهم على النمط الإسلامي مع بعض تعديلات تقتضيها العقيدة النصرانية. وسموهم مدجنين أي الذين دجنوا وسموا فنهم هذا فنا مدجنا Mudedjar art-Arte mudejar فعم أوروبا الغربية وأميركا نقله إليها المدجنون المسلمون الذين ذهبوا مع خريستوف كولومب وبعده بقليل ومن ذلك كنيسة مكسيكو القديمة ومعمار عاصمة الغوتيمالا القديمة والكنائس والقصور والأديرة القديمة الموجودة باميركا الوسطى انظر : manuel Toussaint : Arte mudejar en America

والجنوبية . وبقيت هناك جالية إسلامية تزوجت من الهنود الحمر سكان أميركا الأولين وتكونت منهم جالية مزدوجة لا تزال موجودة.

وهذا الفن المدجن الذي عم أوروبا وأميركا جاء أيضا إلى المغرب والبلاد العربية الشرقية التي أمّتها مهاجرة الأندلس. فنجد تأثيره في تمصير المدن والقرى التي أنشؤوها هناك فالمدن تتقاطع على زوايا قائمة مثل رقعة الشطرنج (تستور بتونس) والسقوف من القراميد البيض بشكل مسنم والزليج الأندلسي والقوس المشرفة الأندلسية والبساتين الأندلسية العجيبة التي تسمى برقيل من الإسبانية Vergel (فرنسية Verger) أي بستان الأشجار المثمرة والصوامع التي تشبه صومعة الجيرالدا بإشبيلية وفيها ساعة ذات أرقام عربية تمشي من اليمين إلى اليسار ف 12 في الوسط الأعلى وعلى يمينها 11 وعلى يسارها 1 لأن المسلمين يكتبون من اليمين إلى اليسار وساعة صومعة تستور أعجوبة الدهر من هذه الناحية وحجة أخرى على أن الساعة اختراع إسلامي من أجل أوقات الصلاة في الإسلام.

ولا شك أن الفن الإسلامي يشتمل على المدارس الآتية:

1) المدرسة المدجّنة
2) المدرسة الأندلسية
3) المدرسة الإفريقية المغربية
4) المدرسة العربية
5) المدرسة الإيرانية
6) المدرسة التركية
7) المدرسة الهندية
8) المدرسة الزنجية

فالمدرسة الإيرانية قد شاركت بقبتها البصلية الإصيله وبمناثرها المغشاة بالزليج البارع وبأقواسها المهموزة التي تسمى في الأندلس قوس الجيب (ومنه ogive الأوروبية) وقد غزا هذا المعمار عن طريق

الغـزنويين الهنـد وعن طريق السلجوقيين روسية آسيا ثم الروسية فنجده في كرملين موسكـو وفي بولونيا كما نجـده قد غزا مصر و وقف عند التقائـه بالفـن التركي أو الفـن الأندلسي المهـاجـر فجامـع درنة بطرف ليبيـا القـريب من مصر هو جامع أندلسي وهو الوحيـد الذي فيـه 44 قبـة وهو أعجـوبـة من هذه الناحية .

فمشاركـة إيـران تبلـغ منطقـة كبـرى من حـدود الصين إلى الهنـد إلى بولونيـا إلى بعض البـلاد السـلافيـة الأخـرى تبلغ آلاف الـكيلومترات.

أمـا القـوس المهمـوزة أو قـوس الجيب فإنها ممتـدة من إيـران إلى الأنـدلس، كذلك المنائـر الملبسـة بالقاشاني المزخـرفـة وأهمهـا الجرالدا بإشبيليـة وصومعـة تستـور بتـونس.

أما فن المنابـر الرخاميـة المزخـرفـة المحـلاة بالـكـوفي فإننـا نجـده بـدون انقطـاع من إيـران إلى تـونس إلى إيطاليـا وبقيـة أوروبـا الغـربية ولا سيمـا Ravello قـرب نابلي كمـا ذكـرنـا.

على أن الحضارة الإيـرانيـة التي شاركت أعظـم مشاركـة في الحضارة الغـزنـويـة أو الحضارة السلجوقية قد ضربت أيضا بسهم مصيب في الحضارة التـركيـة بل هي قد انتشـرت بواسطتهـا وبقيت حية في البـلاد غيـر الإيـرانيـة إلى يوم الناس هذا. وذلك بفعـل الحضارة العثمانيـة المشتـركة الثـلاثيـة التي هي ذات سيادة عثمانيـة لا شك لـكـن مع مشاركـة عظمى إيـرانيـة عـربيـة في العلـوم الإسـلاميـة والتصوف والفلسفـة والموسيقى والعمـارة والفنـون الصغـرى من الأثاث والرياش والأقمشـة والثياب وصناعـة السـلاح المزخـرف والخشب المطعـم إلى غيـر ذلك. عـلاوة عن الألفـاظ الفارسيـة الدخيلـة في الموسيقـى والعسكـريـة والطب التي دخلت واللغـة التـركيـة من كل جانب منذ العصر السلجوقي بل منذ العصر العباسي.

فانظـر إلى المثنـوي فإن معظمـه فارسي وانظـر إلى كتـاب كشف الظنـون لمصطفى جلبي فإنـه يذكـر الـكتب الفارسيـة والتركيـة والعـربيـة على السواء.

فمشـاركـة الإيـرانيين في الحضارة الإسـلاميـة كانت في جميـع

العصور قبل الإسلام وبعده وبمشاركة العرب وغيرهم من الأمم الأخرى وفي جميع مبادي العلوم والآداب والفنون والتقنيات والفلسفيات والتصوف والصناعات التقليدية والاجتماعيات والسياسيات والإداريات والعسكريات والمعماريات والاقتصاديات ، وفي مستوى رفيع جدا تجد فيه أساطين الإسلام في الفقه والحديث والتفسير والأدب والاداب والموسيقى والفلسفة والفنون والصناعات والتقنيات.

وهذا من غير شك له انعكاساته على تونس من حيث أنه بلد إسلامي له ما لغيره من البلدان الإسلامية وعليه ما عليهم .

فلاشك أن الحضارة العباسية المتأثرة بالإيرانية والتي انبثقت عنها الحضارة الأغلبية بالقيروان تجعل الحضارة الأغلبية متأثرة أيضا بالحضارة الإيرانية. ولا شك أيضا أن الحضارة الفاطمية التي هي أول حضارة فاطمية وقد نشأت بمدينة المهدية على الساحل التونسي تجعل لنا صلات مع الحضارة الشيعية الإيرانية في مظاهر الحضارة العلمية والأدبية والفنية والصناعية فعاشوراء التونسية فيها كثير من أصول عاشوراء الشيعية ومسرحية التعزية كانت موجودة بتونس في العهد الفاطمي واعتبار علي نور الله وجهه والسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها لا يزال ولن يزال قائما بتونس.

فالمرأة التونسية إذا نادت الأخرى : يا للا — أي يا سيدتي ف « للا » بالتونسية وهي لفظ بربري معناه السيدة — تقول لها: للاك فاطمة بنت الرسول!

وإذا ذهبت النساء مع العروس إلى بيت زوجها غنين:

هذا اليوم اللي (الذي) نبيه (نبغيه) محمد وعلي يحضر فيه. ففي تونس يقلن (نبغيه) وفي ليبيا (نبيه) .

وإذا تأزم أمر لدى شخص نادى يا محمد يا علي! وصورة علي نضر الله وجهه مع سيفه المعقف موجودة في كل البيوت وقصص الجهاد والبطولة المروية عن علي رضي الله عنه على فم كل قصاص.

والأسد الإيراني وأسد علي يوجد إلى الان منقوشافي الجدار الخارجي لقصر عبد الله المهدي بمدينة المهدية وهو مؤسس الدولة العبيدية الفاطمية بتونس. وغالب الأولياء التونسيين لهم أسد اقتداء بعلي.

واسم علي وتصغيره علية وعلولو وكنيته أبو الحسن (بلحسن) كثير بتونس وكذلك الحسن والحسين لا سيما إذا كانا توأمين ويصغر على حسونة وتسمى المرأة حسينة وحسنية وعلية وعلية.

وفاطمة كثير جدا والغالب أن يقال السيدة فاطمة، وتصغيره فطومة فطوم وفطيمة وفونة وفافاني. وتذكر بصفتها فتقال الزهراء والزهرة وزهيرة وزهور. وتسمى قوس قزح حزام السيدة فاطمة واسم السيدة فاطمة يرغب فيه التونسيون لأنهم يتباركون به في المحل.

وتذكر النسوة التونسيات عندما يحزن في عاشوراء أن السيدة فاطمة قالت: «الذي يفرح وأنا حزينة ما يكمل عامه إلا حزين» ولذلك فلا تستعمل الحناء في عاشوراء ولا خضاب الشعر ولا زغردة ولا زفاف ولا ختان. وتزار المقابر في عاشوراء وتخرج قرابين الأموات وتصنع طبول خاصة فيها صورة علي كرم الله وجهه إلى غير ذلك.

ويستشهد التونسيون كثيرا بأشعار علي وأقواله ويطالعون نهج البلاغة ويعتبرونه المثل الذي يحتذى لحذق الإنشاء.

على أن هذه الصلات التي أكدها الإسلام لم تحدث منذ العصر الإسلامي ليس إلا بل هي حادثة قبل الإسلام ومستمرة ومتأكدة معه وبه.

أما قبل الإسلام فهي سابقة لعهد قورش حيث أن بعض المؤرخين الرومان الذين اعتمدوا على كتب البربر القديمة يذكرون أن البربر — أو البربر الزعر — من أصل إيراني فالصلات إذن ترتفع إلى عشرات القرون السابقة.

ثم إن الفينيقيين الذين كانوا منتصبين بجزيرة فيلكة بالكويت والذين كانت لهم السيادة البحرية على خليج العجم — أو الخليج

العربي كما يسمى الان ـ وعلى البحر المتوسط وعلى خليج غانة في إفريقيا الغربية على المحيط الأطلسي أو الذين كانت لهم أساطيل بحرية وقوافل برية فيجمعون في جزيرة فيلكة بضائع الهند وإيران وأشور والهند واليمن وينقلونها بالسفن إلى فيلكة ثم إلى بر الكويت فتجد هناك قافلة الإبل التي تنقله إلى ثغور بيروت وصور وصيدا الفينيقية ثم تنقله سفن أخرى إلى قرطاجنة عاصمة تونس يومئذ ثم تنقله قوافل الإبل إلى خليج غانة عبر الصحراء.

ومع البضائع تأتي ألوان الحضارات من آداب شعبية وعلوم وفنون وصناعات ومزروعات. وهكذا انتشرت الحضارة الفارسية بتونس عن طريق الفنيقيين ثم القرطاجنيين . فانتقلت إلى تونس معظم المزروعات من رمان وإجاص وتفاح وخوخ وبرقوق وخضر وبقول وأزهار وانتشرت بتونس. كما انتقلت صناعات تقليدية كثيرة من زربية وأنسجة وصياغة ودباغة ونجارة وحدادة ودهانة وفسيفساء إلى غير ذلك .

كما انتقل الكثير من القصص الشعبية والمأثورات الفولكلورية.

ففي القصص والأمثال والأحاجي التونسية كثير من الأصول الإيرانية القديمة والمتوسطة وفي العادات المتولدة من الإسلام في رمضان والمواسم الإسلامية كعاشوراء وغيرها تأثيرات فارسية لا خلاف فيها .

إلا أن دراسة هذه الأصول مفتقرة إلى دراسة الفولكلور الايراني نفسه القديم والحديث ومقارنته بالفولكلور التونسي القديم والحديث وتتبع النقلة من الفينيقيين ثم الجنود والولاة والقواد الرومانيين ثم الديانات التي كانت مشتركة مثل النصرانية أو تأثير الزرادشتية أو المزدكية وتأثير العادات والبدع المرتضاة الإسلامية وما جاء عن طريق الحج أو عن طريق الرهادنة وهم تجار متنقلون يأتون من الصين بلدا إلى بلد حتى نورمبيوغ في ألمانيا ينقلون السلع والعلوم والكتب والعادات الفولكلورية ولهم أسواق في كل مدينة تسمى أسواق الرهادرة ولا سيما بالقيروان فقد كانت سوق الرهادرة مشهورة.

ثم إننا الان بصدد ضبط علاقاتنا وأصولها التاريخية أو العقائدية أو الدينية والبحث عن مصادرها حتى نعلم بأكثر دقة ممكنة ما هي هذه الصلة العميقة المستوعبة القارة الخالدة فنزداد إيمانا بأخوتنا في الإسلام التي هي أخوة في الحضارة السامية التي أوجدناها أو ورثناها جميعا ثم وزعناها على العالم ليتضح منهاجنا في مستقبل الأيام على نور هذه الحقائق القارة التي لا مراء فيها.

فلا شك أننا نشترك في دول وحدت بيننا كقدماء البربر وقدماء الإيرانيين الذين هم على قول نسابي البربر من أرومة واحدة.

أو كالفينيقيين الذين كانوا ينقلون حضارة إيران إلينا والحضارة الإفريقية إلى إيران. وكالرومان الذين حاولوا فتح إيران عندما فتحوا تونس. وكالإسلام الذي هو أعظم المثل العقائدية والحضرية والتصوفية. وكالدولة العباسية التي هي متفرسة بقدر ماهي متعربة. وكالدولة الفاطمية التي نشأت هنا وانتشرت في المشرق.

وكالقرآن العظيم والحديث الشريف والأدب المقارن الفصيح أو الفولكلوري فإنها كلها عوامل توحيد ثقافي كبرى قد قامت بأجل دور في التحام الشعبين وتسطير خطط الحضارتين وتقرير مناهج عمل الشعبين في الداخل والخارج.

ولنفكر جيدا ومرة أخرى في هذا المحور المستمر القائم منذ عشرات القرون، المحور إيران تونس الذي ولد سياسات رشيدة وأمبراطوريات عتيدة وحضارات قديمة وجديدة.

وها هو هذا المحور ينبعث الآن من جديد في عهد عاهلين عظيمين قد صرعا الاستعمار وبعثا الشعور في الشعوب ونشرا العلم واحيا الآداب والفنون وجعلا دولتيهما تقعدان أجل مقعدين من الشمس مقعدا كورش وحنبعل ومقعدا إبراهيم بن الأغلب وذي اليمينين طاهر بن الحسين ومقعدا محمود الغزنوي والمعز لدين الله العبيدي والمقارنات كثيرة وجليلة.

فمن واجب هذا الشباب الصاعد في القطرين وعلماء التاريخ والاداب والفنون في الأختين الشقيقتين أن يشمروا عن ساعد الجد وأن يتناولوا بالبحث والتنقيب هاتين الحضارتين الجليلتين النفيستين العظيمتين اللتين نشأتا مع التاريخ ولن تضمحلا من مسرح التاريخ إلا بانتهاء التاريخ.

هذه مادة خام لشبابنا المتطلع الممتلىء بالتشوف العلمي المتحمس للمواضيع الحية الحيوية الحركية الطريفة والمقبل على الاكتشافات العجيبة والارتيادات الغريبة.

الباب الأول

الأطوار التاريخية

الفصل الأول

ما قبل الإسلام

البربر :

(باليونانية Barbaroi ، باللاطينية Barbari ، بالفرنسية Berbères)
هم أقدم سكان المغرب من ليبيا إلى موريطانيا إلى جانب من السينغال ومالي وجزائر الكاناري . هم أقدم سكان المغرب بعد العصر الحجري الذي هو زنجي الطراز.

ولا يزال البربر يعمرون جهات بعينها من المغرب لا سيما المناطق الجبلية والصحراوية والجزر ، مثل جزيرة جربة أو أرخبيل قرقنة بتونس ، أو حتى مالطة وقوصرة (بانطلاريا على مقربة من الشمال الشرقي التونسي) وفي رواية حتى صقلية وسردانيا فهم العنصر الغالب في الزمان والمكان والعدد باعتبار أن أهم العناصر التي تعمر المغرب أربعة :

أ) البربر؛

ب) العرب الذين جاؤوا مع قبائل الفتح (سنة 27 هـ. وما بعدها) والذين اتوا من صعيد مصر سنة 398 هـ. على عهد صنهاجة. وهم يعمرون في الغالب السهول الزراعية والمدن والواحات.

ج) الاندلسيون الذين هاجروا منذ ابتداء الاسترجاع Reconquista اي منذ القرن الخامس الهجري على عهد صنهاجة ، اي بعيد سقوط الدولة الاموية الاندلسية وظهور ملوك الطوائف. ثم في القرن السابع الهجري بعد سقوط المدن الكبرى مثل اشبيلية وبلنسية وبطرنة ومالقة، ثم سقوط غرناطة في القرن التاسع الهجري ، ثم سنة 1017 هـ. 1613 ميلادي عندما اجلى

ملك اسبانيا فيليب الثالث «الموريسكوس Moriscos» وهم بقية المسلمين الذين لاذوا بالجبال واعتصموا بدينهم فهاجروا مئات الالاف الى المغرب الاقصى (طنجة ــ تطوان ــ العرائش ــ شفشاون ــ سلا) والجزائر (البليدة ــ تلمسان ــ تنس ــ وهران ــ الميلة ــ قسنطينة ــ عنابة) وتونس حيث قبلهم عثمان داي وكان حكيما، إذ كانت البلاد قد فرغت من الدم بسبب الاحتلال الاسباني فجاء هذا العنصر الاندلسي الناشط عقلا واجتماعا وثقافة واقتصادا.

فقسم القادمين الى سكان الهضاب وسكان النهر وسكان السهول. فكان معظمهم على نهر مجردة اكبر نهر بتونس وبه اكثر المدن والقرى التي اسسوها كغار الملح ورفراف وصونين وراس الجبل وعوسجة وقنطرة بنزرت وقلعة الاندلس والجديدة وطبربة وقريش الوادي ومجاز الباب والسلوقية وتستور وهي اعظم المدن الاندلسية. فتستور بها 14 جامعا كل جامع من طراز معماري خاص بناحية من نواحي الاندلس. وشوارعها تتقاطع على زوايا قائمة وبها القاشاني البديع وسقوفها من القراميد البيض لا سطوحا مكلسة. وبها البرقيل من الاسبانية Vergel بالفرنسية Verger اي بستان الاشجار المثمرة.

وهنالك فلاحو سهول بالراس الصالح Cap bon شرقي تونس واهم المدن الاندلسية به سليمان وقرنبالية ونيانو وبلي وتركي وباطرو وبئر مروة ومنزل بوزلفى وبني خلاد ونابل ودار شعبان وقربة.

وجلبوا اليه مزروعات اميركا اذ كثير منهم ذهب اليها مع خريستوف كولومب ورجع وهي البطاطس والفلفل والذرة Maïs والطماطم Tomate والهندي (منسوب الى الهندان الحمر Cactus) وسردوك الهند (الديك الرومي Dindon-Turquey).

وهناك سكان الجبال فاسسوا زغوان والعالية والماتلين.

د) الاتراك وهم غالبا في مدن السواحل ببنزرت وحلق الوادي وتونس والحمامات والمهدية وقابس او في قلاع الداخل مثل قفصة.

وقد اختلف العلماء في نسبة البربر. اما هم انفسهم فان نسابيهم جعلوهم في حمير وذهب الفرنسيون الى انهم من السلت او الكلت Celtes اي من جنس الغاليين Gaulois سكان فرنسا القدماء، اما نسابوهم الاولون الذين كانوا في عهد القرطاجنيين فانهم جعلوهم من الايرانيين، حدثنا عن ذلك المؤرخ الروماني التونسي ساللوستيوس Salluste في كتابه De bello Jugurthino حروب الملك يوغورطة البربري. وساللوستيوس روماني ولي حكم تونس بعد استيلاء الرومان عليها واتصل بالكتب البربرية التي كانت في مكتبة قرطاجنة البونيقية او التي كانت عند ملوك البربر ولا سيما العلامة المؤرخ الملك يوبا الثاني.

والقضية لا تزال شائكة. ونحن نعلم ان من البربر من اتى من اليمن جنوبا عندما انزاحت عن اليمن الطبقات الثالجة فتحول من العربية السعيدة (اليمن) الى بلاد قاحلة على السنة وهاجر بعض سكانه الى افريقيا وهم البربر السمر الدعج.

ونعلم ان هنالك من البربر من جاؤوا من اسيا عن طريق اوروبا الشمالية (السويد والنرويج) ونزلوا على بريطانيا الصغرى بفرنسا واسبانيا ثم دخلوا المغرب الشمالي (بنوغمارة) وهم زعر صهب شقر، وبنوا المعالم الحجرية الكبرى Monuments Mégalithiques وهي المصطبة Dolmen والمسلات Menhirs والمسلات المرشوقة في شكل مستدير Cromleks

ونحن نجد هذه المعالم متتابعة من شرق اوروبا وشمالها وغربها وجنوبها والمغرب ثم تونس وتنتهي في الوسط التونسي عند بلدة المفيضة Enfidaville وهذه المصاطب هي في الغالب مدافن معلمية ترجع الى العهد البرنزي .

Chantre et Bertholon : Recherches Anthropologiques dans la Berberie Orientale

ومهما يكن فان السحنة البربرية والمقاييس الانثروبولوجية تساعد على قبول هذا الراي ولا بد من تعميق هذا الافتراض بالدراسات اللغوية المقارنة والدراسات الانثروبولوجية والاثار المقارنة وغيرها.

وهذا باب مفتوح لشبابنا الايرانيين والتونسيين الذين نريد ان يقبلوا على هذه الدراسات وامثالها اذ التاريخ تاريخنا المشترك

واذا صحت هذه النظرية التي رواها سالوسطيوس عن قدماء نسابي البربر فان الايرانيين الاولين (الماديين Medes) واللوبيين (البربر الاولين الزعر والشقر) من اصل واحد. اي ان جانبا لا باس به من سكان تونس خاصة والمغرب عامة يتحد في الاصل مع الايرانيين.

الفينيقيون. (1200 ق . م 146 ق. م)

الفينيقيون شعب سامي من بني كنعان. كان في الاصل يسكن اليمن لما كانت العربية السعيدة فلما انزاحت الثلوج اشتدت الحرارة فانتقل الى بلاد الشام وبخاصة لبنان حيث اسس صور وصيدا وبيروت وجبيل Byblos وغيرها. ولبنان جبل واقع بين البحر وصحارى الشرق الاوسط، وهو ذو غابات ولا سيما غابات الارز Cedres فسبيله ان يتحول الى امة ذات اساطيل بحرية وقوافل برية. فاتخذ القوافل البرية من الابل، واتخذ من اخشاب غابات الارز اسطولا وجعل سيادته البحرية الاولى في التاريخ تشمل جزيرة فيلكة امام الكويت في خليج فارس (خليج العرب) والبحر المتوسط والمحيط الاطلسي في شماله (بحر الشمال وبعض بحر البلطيق) ثم جنوبا الى خليج غانة ومدينة عكرة التي اسسها القرطاجنيون.

واسس الفينيقيون مراكز تجارية في خلجان البحر المتوسط وجزره لاسيما صقلية ومالطة وقوصرة وسردانيا وجزر الباليار امام اسبانيا Baleares شرقا (ميورقة، مينورقة، يابسة Iviça وفرمنتورة).

واسسوا مراكز بالمغرب اقدمها اوتيقة اي قرت عتيقت (القرية أو المدينة العتيقة) تفريقا لها وتمييزا عن قرت حدشت (المدينة الحديثة التي هي قرطاجنة) وتقع اوتيكة التي اسست في القرن العاشر في منتصف الطريق بين تونس وبنزرت اي على بعد 30 كلم في الشمال الشرقي من تونس. وكانت جزيرة في خليج عند مصب نهر مجردة ولا تزال اثارها العجيبة قائمة سواء في العصر الفينيقي او العصر الروماني او العصر الاسلامي.

فكانت جزيرة فيلكة مجمعا للمحاصيل الهندية والايرانية والاشورية

والعربية، والاثار الحضرية من صناعات وفلاحات واثاث وانسجة واطعمة واداب وعلوم وفنون وفولكلور ينقلها الفينيقيون بسفنهم من فيلكة الى الكويت، ثم بالابل من الكويت الى صور وصيدا وبيروت ثم بالسفن ثانيا الى بنزرت (السوق الخضراء، هبوزاريتوس) او الى اوتيكة (ويسميها ابن خلدون وطاقة) او الى قرطاجنة. ثم تاخذها القوافل الى افريقيا اواسطها وسواحلها الاطلسية العربيـة اعني خليج غانة. وهناك تنقل محصولات الزنوج وحضاراتهم في القوافل راجعة الى ان تاتي فيلكة من جديد فتنقل الى هنالك الرقيق ومحصولات البلاد السوداء وحضارة الزنوج :

فنحن في ذلك العصر الفينيقي الاول ثم البونيقي اي القرطاجني متصلون بالحضارة الايرانية وقد وصلنـا الكثير من مزروعـات ايـران وصناعاتها التقليديـة وطرزها المعمارية كما سنبينه في بابه. على ان فتوحات قورش التي استولت على الشرق الاوسط وجمعت شعوب الشرق الاوسط في بوتقة واحدة ومزجت بين حضاراتهم قد كان لها تاثير في فينيقيا نفسهـا فانتقل هذا التاثير الى قرطاجنة وما وراءها وانفعلت به الحضارة البونيقية فكان عنصرا من العناصر التي تالفت منها.

ومن قديم تاثرت الحضارة البونيقية بالحضارة المصرية التي تشمل عنصرا ايرانيا بينا لا سيما بعد ان فتح قمبوسيوس (قمبيز Cambyse) ابن قورش الاكبر مصر سنة 525 ق. م. واسس بها الاسرة الفرعونيـة السابعة والعشرين ثم هو حاول عبثا ان يلحق به قرطاجنة ومهما يكن فقد سربت الحضارة الايرانية او جوانب منها عن طريق الحضارة المصرية المؤثرة في الحضارة القرطاجنيـة.

انظر : Vercoutter : Amulettes Egyptiennes.

الرومان. (46 ق. م. / 438 ب. م.)

استولى الرومان على تونس اثر الحرب البونيقيـة الثالثة التي انتصر فيها القائد الروماني شيبيون الافريقي على القرطاجنيين. ثم دخل الرومان في حروب مع ملوك البربر ، وقامت الدويلات البربرية هنا وهناك وبالاخارة استولى الرومان نهائيا مع انتفاضات بين الآونة والآونة من هناك وهناك.

وفي هذا العهد اعتنق التونسيون الحضارة الرومانية فكان من اكابر المشرعين سالفيوس يوليانوس الذي هو تونسي. ومن اكابر المؤلفين المسرحيين تيرانسيوس الذي هو تونسي قرطاجني ومن كبار المؤرخين فلوروس ومن كبار رجال الكنيسة قبل الاسلام القديس اوغوستينوس وترتوليانوس والقديس قبريانوس وارنوبيوس.

وبنى التونسيون مدنا كبرى تضاهي اجمل مدن الرومان منها دقة وتوبربوميوس والمدينة وغيرها واجمل اثر تونسي على عهد الرومان هو قصر الجم (تيسدروس) بين سوسة وصفاقس في الوسط التونسي وهو مسرح ذو وجهتين (انفيطياطر) بناه غورديانوس التونسي المحامي والجالس على عرش رومة .

واذا كان استيلاء الرومان على تونس سنة 46 ق م. لقرب المسافة بين قرطاجنة وروما فان ذهاب الرومان الى ايران كان سنة 60 ق. م ودامت الحرب طويلا وفي سنة 199 ب. م استولى الرومان على طيسفون عاصمة الساسانيين (20 كلم عن بغداد) وتسمى الان طاق كسرى. و بعد ذلك انتصر الساسانيون على الرومان في وقعة نصيبين. واسر سابور الاول الساساني الامبراطور الروماني وليويانوس بمدينة الرها Edesse (وتسمى الآن اورفا بشرق الاناضول).

اخذ الرومان عن الايرانيين بالامبراطورية عامة وبتونس خاصة الدمس جعبة (ساباط) Voute en berceau الذي نجده في اسواق قرطاجنة وحمامات دقة والكنائس ونجده في اسواق تونس الاسلامية.

وفي سبابيط تونس وبنزرت وسوسة والقيروان وصفاقس وكذلك من العناصر التي اخذها الايرانيون عن العراق القبة التي كانت معروفة من قديم ببلاد ما بين النهرين والتي انتقلت في عهد الرومان الى تبسة بالجنوب الشرقي الجزائري ثم ظهرت في اسمى مظاهرها في قباب جامع القيروان والزيتونة وفي القباب الاغلبية بسيدي بوخريسان وبمسجد القبة الكتاب الذي تعلم فيه ابن خلدون وكذلك بصقلية الاسلامية (لامرتورانا . القبة . القبيبة) ؛

فهذا الصنف المعماري يذكر بقصر فيروزاباد الذي بناه اردشير اول ملوك الساسانية والذي فيه سقيفة مطولة سقفها دمس جعبة اي بشكل ساباط مفتوح من الامام تليه قاعة كلها قباب ثم قاعة كلها اواوين اي ان جدار واجهتها غير موجود وهذا الايوان هو «البرطال» التونسي الذي تجده في الايوان الفاطمي بجامع الزيتونة وبمجنبات جامع عقبة وجامع الزيتونة والذي صار عنصرا من عناصر البناء التونسي في المؤسسات العامة والبيوت الخاصة. وهذا هو عين طاق كسرى الذي اسسه سابور الاول في عاصمته طيسفون.

واخذ فن الفسيفساء الروماني بتونس من الفن الساساني مشاهد الصيد (طردياتّ) والخمريات.

واخذ الرومان عن الساسانيين كعناصر زخرفية الجريدات Palmettes والمعينات Losanges اوالمستطيلات المقسمة الى مثلثات والهليلجيات والاغصان الملتوية والوريقات مما تراه في حمامات الانطونيين بقرطاجنة وغيرها .

واكبر ملوك الساسانيين هو خسرو الاول (كسرى) الذي عقد صلحا مع الرومان على خمسين سنة ومد حدود امبراطوريته الى نهرجيحون شرقا واما في الجنوب الغربي فقد ناصر العرب الذين هجم عليهم نجاشي الجبشة .

واعتنى الرومان باقتناء الاقمشة الايرانية الرفيعة المطرزة ذات الصور الخلابة فاعتمدوا تلك الصور في منقوشاتهم.

وتفشت الزرادشية والمانوية والمزدكية في اوروبا الرومانية والبلاد التابعة للرومان فكان لها اثرها في الهرطقة النصرانية نفسها .

وفي هذا العهد الروماني كانت عائلة تونسية اصلها من بلدة الجم El - Jem أو Thys drus التي اشتهرت بمسرحها الكبير الذي يضاهي مسرح رومة الكبرى. وهذه العائلة هي عائلة غورديانوس Gordianus - Gordiens وهي التي تولت بناء هذا المسرح العظيم. وتولى غورديانوس الاول ثم ابنه بعده ثم حفيده بعدهما الجلوس على عرش رومة كامبراطرة على عامة الامبراطورية الرومانية. كان غورديانوس الاول محبا للاداب والفلسفة وصفه مؤرخه كابيتولينوس فقال : (كان يسير سيرة مثلى ويعيش

دائما في صحبة تآليف افلاطون وارسطو وشيشرون وفرجيل) وكان يكتب الشعر منذ صغره . والف ملحمة في سيرة الامبراطور انطونينوس التقي والامبراطور الفيلسوف ماركوس اوريليوس سماها «الانطونينياذا ».

أما ابنه غورديانوس الثاني فكان مشرعا ممتازا وأديبا وكان متصلا بالشاعر سامونيكوس الذي أهداه مكتبته قبيل وفاته. قال مؤرخه : « فأدخل عليه ذلك سرورا ما عليه من مزيد لان هذه المكتبة التي كانت تحوي كتبا ثمينة أذاعت صيته في عالم الاداب.»

وأما ابنه غورديانوس الثالث فقد كان تلميذا للخطيب البلاغي ميستيوس فكان لذلك هو نفسه خطيبا مصقعا ومطلعا وتزوج بنت أستاذه واتخذه وزيرا عندما صعد عرش الإمبراطورية.

هذا الإمبراطور التونسي الروماني نظم حملة عسكرية وعلمية إلى إيران. فكانت تشمل الفيلسوف أفلوطينس Plotin المصري اليوناني الذي أراد أن يشترك في الحملة ليقضي مدة تربص بإيران لتعلم الفلسفة الإيرانية والفلسفة الهندية. فألحقه غورديانوس بالجيش وانطلق الجيش واستطاع غورديانوس أن يسترجع أنطاكية وعلى حين كان الإمبراطور يستعد لاستعراض الانتصار مات غورديانوس أو قتل ضحية حاسديه ولا سيما فيليبس الذي جرده قوة واقتدارا من مكاسبه. ولعله هو الذي فتك به فمات سنة 244 وكانت ولادته سنة 223.

لكن الذي يهمنا على الأكثر هو هذا التلاقح والتمازج بين فلسفات أربع اليونانية واللاطينية والإيرانية والهندية وهذا الاتصال بين أقطار كانت يومئذ ولا تزال إلى اليوم أقطار حضارة الهند وإيران ومصر وتونس.

الوندال (438 / 538 ب . م)

هم أمة جرمانية آرية تدين بالارية كما تدين بها إيران القديمة ولغتها الجرمانية تشبه اللغة الإيرانية في عامة مراحلها.

خرجت من آسيا ومرت بالشرق الأوسط فروسيا فبولونيا فجرمانية ففرنسا ثم انحدرت على إسبانيا. فبقي بها عنصر جرماني شقيق للوندال يسمى القوط وهو الذي كان يتحكم في إسبانيا عند الفتح الإسلامي على يد طارق بن زياد. وبذا ترك الوندال بإسبانيا اسمهم وهو « الأندلس — Vandalos » أما كلمة وندال فهي لفظ جرماني معناه الرحل.

ولا يبدو لنا أن الوندال أتوا بأي أثر إيراني إلى تونس ما عدا وحدة الجنس في الأصل أو الشبه اللغوي أو الآرية. وعلى كل فليراجع أهم كتاب في الموضوع : Shmidt: Les Vandales

البيزنطيون أو الروم (538 / 632)

افتك البيزنطيون تونس من يد الوندال بعد أن أخلد أواخر ملوكهم إلى اللذات وإلى الهرطقات النصرانية التي أوقدت أعظم فتنة في البلاد.

واستيلاء البيزنطيين كان فترة حاول فيها المغتصبون الجدد اعداد العدة لمقاومة الفتح الإسلامي المتكهن به في الجو.

فهدموا المدن الرومانية وبنوا بها حصونا (عين طنقة، دقة، طبربة الكبرى الخ..) وبنوا أسوار بعض المدن. وانبرى الفتى سلمون يبني القلاع والأسوار في جد وحماس وما كان يدري أن ذلك لن يغني عنه فتيلا.

وإلى جانب هذه الاستعدادات الحربية النشيطة كانت مدة البيزنطيين استئنافا لتأثير الحضارة اليونانية التي انتصبت بقرطاجنة منذ القرن الرابع قبل الميلاد، أي منذ استيلاء الاسكندر على جهات من إيران ونقله الحضارة الإيرانية إلى بلاده كما قال ابن خلدون فالحضارة اليونانية في أهم عناصرها هي نقل للحضارة الإيرانية وبالتالي وبانعكاسات واضحة كانت قرطاجنة البونيقية منذ القرن الرابع متأثرة أيضا بهذه الحضارة علاوة عن الاتصال المباشر عن طريق جزيرة فيلكة.

وبانعكاسات أخرى كانت الدولة البيزنطية بتونس استئنافا

للحضارة اليونانية التي استمرت أيضا في أيام الرومان والتي ستأتي من جديد عن طريق صقلية التي كانت متحفا للحضارة البيزنطية والتي كانت ملتقى للعرب والبيزنطيين ملتقى حربيا وحضريا في آن واحد.

وبالبيزنطيين تنتهي حقبة ما قبل الإسلام بتونس وتأتي حقبة الإسلام والإسلام يجب ما قبله. إلا أن الحضارات السابقة مدت تونس في عصرها الإسلامي الماجد بأفضل ما عندها من عناصر حضرية في السياسة والدولة ونظام الحكم والتراتيب الدستورية والعلوم والاداب والفنون والاقتصاد والصناعات التقليدية وحتى الفلسفة والتصوف والفولكلور.

والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الفصل الثاني

ظهور الإسلام

دخل الإسلام فارس وبعد مدة قليلة جدا دخل تونس، وما جاء آخر القرن إلا وقد أسلم الإيرانيون والتونسيون، وليس ذلك فقط بل قد صاروا يلعبون دورا أساسيا في الحياة الإسلامية الدينية والإدارية والسياسية والاجتماعية والأدبية والفنية.

وابتداء من حج سنة 34 هـ. صار التونسيون والإيرانيون يتلاقون في الحج في شبه مؤتمر فيتعارفون ويأخذون أصول الحضارة بعضهم عن بعض. وأعتقد أن الحج «السنوي» هو سوق سنوية ومؤتمر سنوي للمعلومات الإسلامية والقيم الإسلامية والأخوة الإسلامية والمثل العليا الإسلامية. وقد تكررت هذه المؤتمرات والأسواق التي تبودلت فيها القيم الحضرية بين فارس وتونس 1356 مرة.

على أن الإسلام كون وحده إسلامية وقضى على العقائد الوثنية المختلفة فلم تعد هناك وثنية إيرانية ووثنية تونسية بعيدتان عن بعضهما ولم تعد هناك نصرانية إيرانية من هرطقة خاصة ونصرانية تونسية تعددت فيها الهرطقات. بل صار دين واحد موحد ذو حضارة موحدة وقيم روحية سامية ليس لها نظير.

الدولة المهلبية

إن المهالبة وإن كانوا عربا إلا أنهم كانوا دائما أمراء بإيران قبل أن يصيروا أمراء تونس في دويلة سبقت الأغالبة وكانت مسترسلة متماسكة الحلقات

فإذن هم قد تفرسوا أبا عن جد إذ تعاقبوا على التوالي على مناطق من إيران قضوا بها سن طفولتهم وشبابهم وشطرا صالحا من حياتهم الإدارية والسياسية والعسكرية قبل أن يلتحقوا بمصر ثم بتونس. فتعودوا على أساليب معاش إيرانية من مسكن وملبس ومأكل ومشرب ومجالس ومحاورات وحذقوا طبعا اللغة الفارسية حتى في لهجاتها المحلية. وقادوا العساكر من الإيرانيين أو من العرب المقيمين هناك والمنخرطين في الجيش الخراساني على الخصوص.

فلما جاء هؤلاء المهلبيون إلى القيروان جاؤوا على راس جيش خراساني يبلغ 30،000 مقابل 10،000 عربي كما سنرى ذلك ، فمن البلاط إلى الشكنة إلى انتصاب ثلاثين ألف عائلة خراسانية في الوسط التونسي كل شيء متأثر بإيران.

لذلك رأينا أساسا انتصاب الأرز إلى جانب القمح وانتصاب الحرير إلى جانب الصوف والقطن والكتان وانتصاب السكر إلى جانب العسل وانتصاب المفردات الإيرانية في صميم العربية والدارجة التونسية. على أن الألفاظ الفارسية الموجودة في الإدارة تدل على تأثر الإدارة المهلبية ثم الأغلبية بالإدارة الإيرانية إما مباشرة وإما عن طريق العباسيين وإما بوجود هذا الجيش العرمرم الخراساني.

فكلمات دستور وديوان جند وديوان بحر وخراج وقبالة Gabelle وسباهي وسبي قاضي وبريد وفرانق وسفتجة واسم العاصمة نفسها « القيروان » كل هذا يدل على مبلغ التأثر في جميع معارف الحياة من أعلى إلى أدنى.

على أن الحركات السياسية العسكرية التي ظهرت يومئذ قد لعب فيها الجيش الخراساني أعظم نصيب كما سنراه في غير هذا المكان.

ونحن نجد التأثر :

أولا : في هيأة الولاة والأمراء فإنهم أتوا من خراسان ومنهم من هو خراساني أصالة.

ثانيا : في هيآت القضاة. فمن أقدم قضاة القيروان عبد الله بن فروخ الفارسي القيرواني (ومعنى فروخ بالفارسية السعيد) درس بالمشرق ودرس عليه الإمام البخاري وولى قضاء القيروان. ثم ذهب إلى الحج وتوفي بمصر سنة 176 هـ. ودفن بالمقطم.

ومن جملة المؤسسات التابعة للقضاء بالقيروان والتي هي فارسية محضة وجود هيآت من سباهي قاضي (سبي قاضي) أي من أعوان القضاء الراكبين على الخيل أي الشرطة أو الحرس الراكب.

ثالثا : في الجيش وهو أربعة أقسام :

أ ـ معظم الجيش من الخراسانيين (30،000)

ب ـ الجند العربي (10،000).

ج ـ الجيش البلدي

هـ ـ الجيش البربري من أفراد القبائل الذي يسمى « قوما » منذ قديم.

رابعا : في المسكن الفدن والسراي وآخره القربي، والبناء على نمط دار الحيرة وهو نظام البيت الإيراني القديم الذي نقله الفينيقيون سقيفتان وصحن فيه شدروان وحوله أواوين (براطيل) وغرف مستطيلة في وسطها قبو وفوق بابها شمسية.

خامسا : في التجارة في نظام الأسواق والبازرات والسماسرة (واللفظ فارسي وقد انتقل إلى الإيطالية عن طريق العربية Semsale) وألف العلامة الأبياني التونسي في العصر الأغلبي كتاب « ترتيب السماسرة » وقد نشرناه مع التعاليق اللازمة (مجلة العرب تونس) والرهادرة والصارمية (السرماية) والشاهبندر إلى غير ذلك.

سادسا : في الفلاحة جلب التوت والخاص بدود القز والأرز وقصب السكر والنارنج والليمون والأرضي شوكي والأسبارج (السكوم Asperge) وبعض البقول الأخرى والنباتات الطبية.

سابعا : في صناعة الحرير بقابس والأرز في الكلبية وغيرها وقصب السكر في سكرة والسكرين وغيرها والعطور والغوالي والزربية وغيرها مما إذا لم نقله هنا قلناه في مكان آخر مثل الشاشية.

ثامنا : الآداب من كليلة ودمنة وشبهه. كألف ليلة وليلة والنوادر المختلفة .

الدولة الأغلبية

اسسها ابراهيم بن الاغلب بن سالم التميمي سنة 184 هـ . وانتهت على يد زيادة الله الثالث بن الأغلب سنة 296 هـ حينما انتصر عبد الله الشيعي على الأغالبة في وقعة الأربس في الشمال الغربي التونسي. والأربس مدينة رومانية قديمة(Laribus — Lares)اتخذ منها العقبيون ثم المهلبيون ثم الأغالبة عاصمة الشمال الغربي وقاعدة الأعمال العسكرية ، مثلما اتخذوا من بلزمة في الجنوب الغربي قاعدة الأعمال العسكرية ومقر الفرسان القيسيين.

وهكذا انتصب الفاطميون كدولة بالمغرب وبنوا مدينة المهدية على البحر (303 — 308) وتحولت تونس من إمارة إلى مركز خلافة وتمت السيادة الإسلامية على ربوع البحر المتوسط وجوانب من الأطلسي فلم تكن الشمس تغرب على العلم الفاطمي.

والدولة الأغلبية هي استمرار وتأكيد ومتابعة للعمل الحضري الذي قام به المهالبة. نشأت هذه الدولة من الشعوبية، والشعوبية هي انتعاش الحركة الوطنية في البلدان التي نيست عربية أصالة والتي كانت لها حضارة مزدهرة قبل الإسلام أو التي هي عربية أصالة لكنها معتزة بوطنيتها السالفة كإيران والموصل وحلب ومصر وتونس والجزائر والمغرب والأندلس والبلاد السوداء التي قامت فيها إمبراطوريات إسلامية عظمى.

وكان هارون الرشيد خليفة مفكرا وكان له جهاز إداري رشيد فمال إلى إسعاف الشعوبية بما لا يضر بالخلافة أساسا فجعل دولا تابعة للخلافة ومستقلة داخليا وحتى أكثر من ذلك. فهو قد ابتدع (كومنولثا إسلاميا) وهكذا نشأت الدولة الطولونية بمصر والأغلبية بتونس والرستمية بالجزائر والإدريسية بالمغرب الأقصى والأموية الجديدة بالأندلس. مع العلم بأن الرستميين والأدارسة والأمويين لم

ينبعثوا عن الخلافة العباسية بل بالرغم عنها. وهكذا نشأت الدولة الطاهرية ثم السامانية بإيران.

والدولة الأغلبية مكلفة بمهمات بعينها :

أولها : قمع الدولة الإدريسية

ثانيها : قمع الخوارج من البربر

ثالثها : توحيد الخلافة بالقضاء على الدولة الأموية بالأندلس.

وليست هذه هي التي تهمنا. بل يعنينا في الأول ما زادته الدولة الأغلبية من النواحي الحضرية على الدولة المهلبية فقد فتحت سردانيا وصقلية ومالطة وقوصرة وجنوب إيطاليا وقد أسست جامعة بيت الحكمة بالقيروان لتعليم الطب والصيدلة والهندسة والفلك والرياضيات وترجمة الكتب. وقد جددت الجوامع وبنتها على طراز تدخله الكثير من التأثيرات الإيرانية كالزليج وخشب الساج والجريدات والهليلجيات والمعينات والمستطيلات المزخرفة بمثلثات في وسطها Les Rinceaux الى غير ذلك.

والأغالبة أمراء يتوارثون الملك وليسوا ولاة يسمون من طرف العباسيين. بحيث أن الدولة المهلبية حالة انتقال بين الولاة المختلفين الذين يسمون من طرف العباسيين وبين الأغالبة الذين هم أمراء متوارثون في عائلة واحدة مرتبطون بالولاء للخلافة العباسية بينما المهلبون هم ولاة يسميهم العباسيون في أسرة واحدة من بني المهلب.

وزاد التأثير العباسي أكثر في الدولة الأغلبية لأن التونسيين قادرون على الاقتباس ثم الهضم ثم انصهار الحضارات المختلفة ثم إخراج حضارة تونسية مستقلة ففي الدولة الأغلبية ظهر بعد يحيى بن سلام وهو أول مفسر او من أوائل المفسرين توفي سنة 200 هـ . وظهر فقهاء كبار أمثال أسد بن الفرات النيسابوري وسحنون بن سعيد ويحيى بن عمر وعيسى بن مسكين.

وظهر استقلال فن الطب التونسي ومدرسة الترجمة التونسية ومدرسة النحو واللغة التونسية. واستقلت الفلاحة والصناعة والتجارة

التونسية المتألفة من عناصر بربرية وفنيقيسة ورومانية وبيزنطية وعربية وإيرانية ولكنها آلت بالنهاية إلى اقتصاد تونسي محض عرفته أوروبة عن تونس مباشرة بجميع مؤسساته.

لكن تونس بلاد متفتحة متأثرة ومؤثرة وخالقة للحضارات التي تدمغها بميسمها. هي متفتحة لأنها ذات شرفات أربع :

شرفة شرقية : متفتحة على فينيقيا واليونان وبيزنطة والشام والأناضول وآشور والعراق وإيران وما وراء إيران من هند وصين وهند صيني. فلا بد أن تتنسم هذه النسمة العليلة المتعطرة بعبيق ياسمين إيران وفله وسوسنه وليلكه وبنفسجه وخيريه وعطرشاهه. ولا بد أن تتنسم عرار نجد. وأن تقتبس من هذه الحضارات الكبرى وأن تتفاعل وإياها فتخرج جامع القيروان جامعا مطبوعا بالنبوغ المعماري التونسي وإن كانت عناصره فينيقية ورومانية وبيزنطية وعربية وإيرانية. ولكن الكل هو شيء آخر.

وولد جامع القيروان جامع قرطبة. وولد جامع قرطبة كنيسة شنتياقب الكمبوستالي St Jacques de Composteles التي ولدت بدورها جميع الكنائس المدجنة Mudejar التي تجدها بإيطاليا وفرنسا Le Puy. Vezelay وإسبانيا وحتى أميركا التي انتقل إليها الفن المدجن بتقنيين أندلسيين مدجنين.

شرفة شمالية : تتفتح على إسبانيا والأندلس وفرنسا وإيطاليا والسويد والنورويج جاء منها الوندال والرومان والأندلسيون والأسبان والفرنسيون. فظهرت حضارة هذه الأمم بتونس واقتبسها التونسيون وهضموها ثم أخرجوا منها حضارتهم ذات الصبغة المستقلة.

شرفة جنوبية : جاءت منها الحضارات اليمنية والسودانية والعربية واندمجت مع الحضارة التونسية.

شرفة غربية : جاءت منها الحضارة الجزائرية والمغربية والامريكية والاندلسية.

فتونس متحف لعامة الحضارات ومركز ابتداع وتوزيع حضري.

وسر نبوغها في انها تعلم ان الحضارة كائن حي فلا بد ان يقتات ويقتبس من الحضارات الاخرى وان يهضم ما يقتبس لكي تعيش حضارته في حياة مستمرة وازدهار ابدي.

فالدولة الاغلبية هي ايضـا اقتبست كثيرا من الايرانيين وغيرهم. فاهتمت بالعلوم الايرانية فارسلت وفودا من الطلبة اليها كما ارسلت الى مصر والعراق والشام والحجاز. واقتبست عناصر حضرية جديدة منها القاشاني والكاغذ والبارود والطباعة الخشبية وطبع الانسجة الحريرية بالبكرة التي تدور. ورقت صناعة الخط الكوفي الى اعلى درجاته وابتدعت صناعة التجليد ورقت صناعة الطب وفصلت الصيدلية عن الطب وسمت بصناعة النجوم وبصناعة الزراعة. ومعظم هذه الصناعات مجلوبة من الصين عن طريق ايران وبغداد بواسطة الرهادنة او بواسطة الحجاج او طلبة العلم. فاسماعيل الطلاء ذهب الى بغداد لتعلم النحو فجلب صناعة الزليج (ابن القفطي: أنباه الرواة).

واهتم الاغالبة على الخصوص بصناعة الري فابتدعوا البرك والشاذروانات والحنايا والكشكات المائية الرائعة التي فيها طابق للموسيقى وطابق للادب وطابق للعلوم والتي يسبح فيها التم او الاوز العراقي Swan — Cygne ذو البهجة والجمال.

وانتشرت في عهد الاغالبة زراعة النارنج برقادة وغيرها وبالرم في صقلية وبالجزائر والمغرب والاندلس (بلنسية) كما انتشرت زراعة القراصيا والمصع (البوصاع) Nefle وجاء و رد اصفهان فغرس بجلولاء وكانت تنتقل منه قوافل كبرى الى القيروان في اليوم الواحد فالثلث يستقطر والثلث تصنع منه المشاميم والثلث تصنع منه الغوالي والمركبات وجاء زرياب وجلب الموسيقى العراقية المتاثرة بالفارسية ونشر لدى الناس اساليب الظرف العباسي الايراني في الماكول والمشروب والملبوس والمشموم. وفي قول انه اقام بالقيروان مدة وجاء بعده مؤنس البغدادي فانتشرت وتاكدت الموسيقى البغدادية الايرانية، وجاء كتاب الاغاني فكانت الموسيقى التونسية تعتمد في مصطلحاتها على مصطلحات فارسية (يكاه، دوكاه، سكاه، جهاركاه) وفي الاتها على بعض الات فارسية (ناي ، جنك) وفي مسميات المقامات على مسميات ايرانية .

الدولة الفاطمية (296 ه /370م)

انبعثت الدولة الفاطمية إثر انتصارها على الأغالبة بواقعة الأربس (296 ه/908 م) لا في تونس فقط بل أيضا في كامل المغرب إلى السينغال وحدود مصر وفتحت مناطق جديدة من البحر المتوسط كجزيرة اقريطش (كريد — كريت — Crête) وسهول الرون بفرنسا إلى جهات من سويسرا. وكان في عزمها القضاء على الخلافة الأموية بالأندلس غربا والقضاء على الخلافة العباسية شرقا حتى تتوحد الخلافة في قبضة الفاطميين؛

لا شك أن الفاطميين شيعيون فعلى عهدهم كانت المذاهب بتونس والمغرب : هي المالكية ، والحنفية ، والمذهب الشيعي ، والمذهب الأباضي لدى بربر الصحاري والجزر والجبال .

وتشيع كثير من الناس يومئذ وتشرقوا كما كان يقال ووقعت اجتماعات المناقشات بين المالكية والشيعة. ونحن نعلم أن المذهب الشيعي كثير الانتشار باليمن والعراق وإيران. فبوحدة المذهب زادت الصلات توثقا بين تونس وإيران.

لا تنس أن الدعاية الفاطمية قبيل انتصاب الفاطميين بالقيروان قامت في أواسط القرن الثالث الهجري على كاهل عبد الله بن ميمون القداح وهو إيراني الأصل.

ولا ينبغي أن ننسى أيضا أن كثيرا من الإيرانيين من الشيعة وأن دولا إيرانية شيعية قامت بجهات من إيران قبيل قيام دولة الفاطميين بالقيروان ثم بالمهدية. ذلك أن العلويين الذين اضطهدهم العباسيون التجؤوا إلى الديلم (175 ه791 م) فحسن اقتبالهم هناك. واستطاعوا أن يبثوا دعايتهم فمال معظم الشعب الديلمي إلى الإسلام في صورة المذهب الشيعي الزيدي. انظر : « la Domination des Dailamites » : Minorsky

وفي سنة (250 هـ/864 م) أسس الديالمة دولة شيعية مستقلة إلا أن الزمان لم يطل بها فقضى عليها الزياريون سنة (318 هـ/980 م).
فالدولة الديلمية سبقت العبيدية بالقيروان بـ 46 سنة وعاشت وإياها 22 سنة.

انظر : المسعودي : مروج الذهب. ط. أوروبا ص 4.

وفي سنة (320 هـ 932) أنشأ أبناء بويه الدولة البويهية بجهات من إيران وهي دولة شيعية ارتكزت بجهات قد اعتملتها الدعاية الشيعية. وقام حتى بعض الملوك البويهيين بهذه الدعاية خذ لك مثلا أن البويهي مجد الدولة كان صديقا للباطنية.

آنظر : ابن الأثير : ط. بولاق. ج 9 ص 128

(عن د. يحيى الخشاب Nasir E. Hosrow ص 30)

وعقد سلطان شيراز مجالس للمناقشات بين السنيين والشيعيين مثل المجالس التي كان يعقدها عبيد الله المهدي بين الشيعة والسنيين المالكية بالقيروان.

آنظر : ابن ناجي : معالم الإيمان

على أن الدعاية العلوية الفاطمية لم تفتأ موجودة بخراسان لا سيما عندما آلت الإمارة إلى نصر بن نوح الساماني ، فكان يشجع هذه الدعاية. مثال ذلك أن سكان نيسابور لما بايعوا بالخلافة علويا اسمه أبو الحسن محمد بن يحيى استدعى نصر بن نوح هذا الخليفة إلى بخارى ولم ينزع عنه أي خلعة من خلع الشرف بل أنه أجرى له من الخزينة راتبا مع أنه أنزله عن عرش الخلافة.

وقد دفع نصر بن نوح بن سامان دية معتبرة إلى الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله بالمهدية كثمن لسفك دم الحسين بن علي المروزي.

آنظر : د. يحيى الخشاب. الكتاب المذكور وقد أورد مصدريه : Enc. Isl. Art. Nasr Ibn Nûh وابن ميسر: أخبار مصر ص 27 نشر هنري ماسيه H. Massé القاهرة 1919.

واستمرت هذه الحركات بنشاط إلى أن جاء محمود الغزنوي فانتزع الغور وخراسان من السامانيين (390 هـ/ 999 م) وانتزع العراق الأعجمي من البويهيين (420هـ/ 1029 م) بعد أن قتل مجد الدولة البويهي وصاب الإسماعيلية الموجودين في المملكة.
Dieh et Marçais: Hist. du moyen-Age T. III p. 585.
عن د. يحي الخشاب. الكتاب المذكور ص 33.

ولكن هذه الأحداث جرت بعد أن انتقل الفاطميون إلى مصر. فهي تتعلق بالفاطميين المصريين ولو أنها جرت قبل أن ينزع الأمير الصنهاجي المعز بن باديس صلاته من الفاطميين.

ثم أن المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين بالمهدية وأولهم بالقاهرة وحد المغرب بدخول جهات من البلاد السوداء وركز نفوذه بجنوب فرنسا وجنوب إيطاليا وجزائر قرسقة (كورسيكا) وسردانيا وصقلية وقريطش، وفتح مصر والشام وجاءته بيعة جزيرة العرب إلى الخليج الفارسي فبقيت الدولة العباسية محصورة بين الفاطميين المغاربة الذين بلغوا الخليج الفارسي والشام وجزيرة العرب فحاصروا العراق من نواح ثلاث وبين السامانيين والبويهيين والشيعيين الذين كانوا على الحدود الشرقية.

ناصر خسرو

رحالة وسياسي ومتصوف وداعية فاطمي وشاعر إيراني زار مصر في أول عهدها الفاطمي وتحدث عن الفاطميين بالمغرب ومصر بإطناب وقد زارها في أيامهم الأولى.

كان ناصر خسرو علامة الدهر يعطينا صورة من المثقف الفاطمي العالي. فكان يحفظ القرآن الكريم من طرف ثمامة ودرس التنجيم والفيزياء والرياضيات والهندسة والعلوم الطبيعية والطب والموسيقى والمنطق وفلسفة أرسطو. واعتنى بدراسة تاريخ إيران القديم وقابل بين النظم الدينية المختلفة المنتشرة بالمشرق فدرس الزنداقشتاب وديانة زرادشت. وكان يعرف عددا هائلا من اللغات: العربية واليونانية والفارسية والتركية والهندية والعبرية. وكان يعرف من

جهة أخرى وبدقة ديانة ماني والصابئة والماديين. ثم هو زار في شبابه عددا من الأقطار مثل جزيرة العرب وإيران وتركستان والهند. ثم زار في رحلة ثانية الشام وفلسطين ومصر وجزيرة العرب وإيران. وكان من جهة أخرى داعية فاطميا متحمسا.

والذي يهمنا هو رحلة ناصر إلى مصر المسماة بالسفر نامة (كتاب السفر) التي درسها وترجم لصاحبها وترجمها بالعربية وعلق عليها الأستاذ الكبير علامة الإيرانيات الدكتور يحيى الخشاب.

وصل ناصر خسرو القاهرة يوم 4 أغشت 1047 م (439 ه) أي نحو 70 سنة بعد انتقال المعز لدين الله إلى القاهرة. وصلها على عهد الخليفة الفاطمي المستنصر. وقد استدعاه المستنصر نفسه وبقي بمصر 7 سنوات يحج في كل عام وكلفه بتربية ولده نزار.

والمستنصر هو المستنصر ابن الظاهر ابن الحاكم ابن العزيز ابن المعز ابن المنصور ابن القائم ابن عبيد الله المهدي فهو الخليفة الفاطمي الثامن باعتبار تأسيس الدولة بالقيروان والخامس باعتبار انتصابها بمصر.

يحدثنا ناصر خسرو عن الخلفاء الفاطميين الأولين وعن القضاة وعن المؤسسات الفاطمية وعن الدعاية وعن الحياة العقلية والسياسية.

ولا باس أن نكون على علم من أن مصر يومئذ كانت امتدادا للفاطمية المغربية. فعناوين الحارات من حارة (بالمعنى المغربي) وأسماء الأسواق وأسماء الأبواب وأسماء القبائل البربرية وحتى استعمال «الدنانير المغربية» في عهد المستنصر وحتى القضاة إلى عهد المستنصر كانت كلها مغربية. فقال لنا مثلا أن قاضي القضاة بمصر يتقاضى شهريا مرتبا مبلغه ألفا دينار مغربية.

يحدثنا ناصر خسرو عن القضاة المغاربة من عائلة النعمان بن حيون القيرواني الذين تعاقبوا من عهد المعز لدين الله إلى عهد المستنصر وهم :

1) أبـو. حنيفة النعمان بن محمـد بن منصور القيرواني ابن حيون المشهـور بالقاضي النعمـان كان قاضي المعـز قبل فتح مصر (341 هـ/952 م ـ 356 هـ/975 م).

وترجم له ابن خلكان في وفياته نقلا عن ابن زولاق مؤرخ المستنصر. فذكـر أنـه ألف بتبحـر علمـي عجيب آلاف الأوراق عن العلـوم والمعلومات الفاطميـة منهـا كتـاب المدح والذم ومنهـا كتـاب نقـد أبي حنيفـة النعمان مؤسس المذهب الحنفي والرد على الشافعي وعلى القاضي شريـح. وألف كتـابا آخـر عن اختـلاف الفقهـاء عنـوانـه اختـلاف أصـول المذاهب ذكـره ابن خلكـان نقـلا عن المسبحـي.

كمـا ألف النعمـان كتب الدعايـة الفاطميـة على أصـول علميـة فهو ليس قاضي الدولـة فقط بل الراد على مناقضيهـا ووزيـر الإعـلام فيهـا ومنظـم دعايتهـا فقـد ألف كتـاب الدعـوة والأخبـار في الفقـه وانتصار الفقـه (يعنـي الفقـه الفاطمي) وكتاب الهمـة.

ألف القاضي النعمـان علاوة عما ذكرناه الكتب الآتيـة :

أ) افتتـاح الدعوة : وهو تاريخ نشـأة الدولـة الفاطميـة أخبـارهـا الأولى على عهـد الخلفـاء الأوليـن بالمغـرب وهو كتـاب عظيـم الفائـدة.

ب) المجـالس والمسايرات : وهو كتـاب كاد أن يكـون مياومة في مجالس المعـز ومسايـرتـه إذا ركـب يسجل الأحـوال والقضايا والأحداث. وهو عظيـم الفائـدة أيضا.

فهذان كتابان في أوائل الدولة الفاطمية لم يصلنا من كتب النعمان غيرهما مثـل كتب تاريخ الفاطميين التي ألفهـا أحمـد بن الجـزار القيـرواني الذي عاصر الدولـة الفاطميـة بالمغـرب وسجـل أحداثهـا بمـا يكـاد أن يكـون مياومـة. ولكنـه ـ على ما يظهـر ـ رنة جرس أخـرى.

أما الكتب الفقهيـة التي فيهـا بيان المذهب الفاطمي فهـي :

دعائم الإسـلام: هو أعظـم كتاب في الفقـه الفاطمي « المصرح به » موضوع لعمـوم النـاس لا لخصوص المريدين. طبع في جزئيـن وهو واضح جلـي كـامـل:

أساس التأويل: أو أساس تأويل الباطن. وهو يشمل العقيدة الفاطمية الباطنية الخاصة بالمريدين والدعاة وداعي الدعاة وقد طبع أيضا.

أما كتب التربية الفقهية الفاطمية والدعاية المذهبية فهي :

الأخبار في الفقه، الانتصار في الفقه، وهي دعائية طبعا . فإذا أضفنا إليها: اختلاف أصول المذاهب والرد على أبي حنيفة والشافعي والقاضي شريح تبين أن عمل القاضي النعمان الدعائي والفقهي والتاريخي كامل.

فكل تآليف القاضي النعمان يقصد بها تأييد الدعوة الفاطمية وتركيز دعائم المذهب وأقامة أساس الدولة. ونشر الدعوة في العالم الإسلامي. وبالفعل فإن هذه الكتب منتشرة إلى الآن في المناطق الفاطمية والشيعية في اليمن والهند وجنوب إفريقيا ولدى البهرة حيثما وجدوا.

وقد روى ناصر خسرو المذهب الفاطمي من التصانيف النعمانية وتبحر فيه منها. ومن راجع أفكاره الدينية تبين له إلى أي حد بعيد قد تأثر بها وتمذهب منها وتحمس لما فيها وألف وفق أصولها.

على أن القاضي النعمان ألف كتبه بتوجيهات من المعز الذي كان صديقه وصفيه. وقد لعب دورا كبيرا في تأليف كتبه. وقد روى منها أنه نقل ما سمعه من رئيس الدولة. فإن النعمان لما ألف المجالس والمسايرات قدمه للمعز فطالعه باهتمام وكتب هذه الجملة :

« لقد طالعت كتابك يا نعمان فوجدته صالحا ومعلما لمن طالعه ».

على أن الفاطميين كشيعة يعتقدون أن الأئمة يعلمون كل شيء وأن العلم منبثق عنهم. ولذلك فإن تآليف النعمان ذات أهمية كبرى لأنها حررت وفق كلمات الإمام المعز الذي روى ما قال عن الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه.

أنظر : (د. يحيى الخشاب. الكتاب المذكور ص 87 وما بعدها)

وللقاضي النعمان أبناء تولوا هم أيضا القضاء على عهد الخلفاء الفاطميين بمصر إلى عهد المستنصر وهم :

2) أبو الحسن علي النعمان (توفي سنة 374 هـ/984 م)

أول قاضي بمصر لقب بقاضي القضاة (ويسمى في تونس قاضي الجماعة) وأول من دشن الدروس العمومية بالجامع الأزهر (365 هـ/ 975 م) فيشرح بها أحد كتب أبيه في المذهب الفاطمي

(السيوطي : حسن المحاضرة ج 2 ص 120)

ترجم له ابن خلكان في وفيات الأعيان (84/2) فقال إنه كان أديبا كبيرا وفقيها معتبرا يحكم بروية وكان متحمسا للفاطمية كل التحمس. وقد اورد له ابو منصور الثعالبي في كتابه « يتيمة الدهر في تراجم ادباء العصر » جملة اشعار (اليتيمة : ط. دمشق 306/1 — 307)

3) ابو عبد الله محمد (توفي سنة 390 هـ/999م)

كان شديد الفاطمية ايضا . ذكره ابن زولاق في تاريخه لمصر وقال انه كان عظيم القدر بما لم يمكن أن يضاهيه به عظماء القضاة حتى قضاة العراق . كان عالما متبحرا عادلا منصفا عميق التفكير.

رفعه الخليفة العزيز اليه واجلسه على منصته في يوم عيد . وبقي قاضيا الى وفاته على عهد الخليفة الحاكم سنة 386هـ/ 996م—411هـ/1004م

4) ابو الحسن علي : عزل عن منصبه سنة 394هـ/1004م وقتل سنة 395هـ/1004م

5) ابو القاسم عبد العزيز : عزل سنة 395هـ/1007م

6) ابو محمد القاسم بن عبد العزيز

وانقطع القضاء من آل النعمان من سنة 1020 الى سنة 1027 فعندئذ سمى الخليفة المستنصر القاسم بن عبد العزيز (418هـ 1017م) وعزله سنة 419هـ ثم اعاده سنة 429هـ/1037 بعناوين كثيرة من قاضي القضاة وداعي الدعاة وثقة الدولة وامير الامراء وشرف الحكام. وبقي الى سنة 1 049م وهكذا بقي القضاء بايدي ابناء النعمان طالما بقي ناصر خسرو بمصر.

وحدثنا هذا الرحالة عن مؤسسات باعيانها تهم النظام الفاطمي في تونس ومصر منها النظام العسكري.

فعندما تكلم ناصر خسرو عن عيد فتح الخليج بمصر ــ وهو عيد يقع فيه استعراض عسكري فاطمي كبير ــ تحدث عن انواع الجيوش المصرية الفاطمية ذات الاصل المغربي او الايراني او غيرهما وهي :

1) الجيش الكتامي : الذي جاء مع المعز لدين الله من المنصورية قرب القيروان وكتامة هم بربر الحضرة اي بربر حضرة السلطان الفاطمي مقامهم بجبال الحضرة بالجزائر الشرقية من سطيف الى قلعة بني حماد الى ايقجان عاصمة الفاطميين الاولى وتسمى الان بني عزيز وكانت تسمى في زمان الفرنسيين Chevreuil وعلى بضعة كيلوميترات منها توجد تازروت وهي محل قصور الفاطميين الاولى مثل رقادة بالاضافة الى القيروان او باردو وبالاضافة الى تونس او سلقطة بالاضافة الى الفاطميين في المهدية.

ولكتامة بالقاهرة الى اليوم حي يسمى حارة كتامة نزلوا بها عند قدومهم مع جوهر الصقلي وهي المنطقة التي تتوسط حارة الازهري الكائنة في الجنوب الشرقي من الجامع الازهر. وجند كتامة هذا يعد 20،000 جندي على عهد المستنصر.

2) الجيش الباطني : وهو متركب من مغاربة متحمسين للقضية الفاطمية مؤمنين بها يفدونها بالنفس والنفيس كانت لهم حارة خاصة بهم في القاهرة تسمى الباطلية وهو تحريف من السنيين لهؤلاء الشيعية كانهم ينسبون الى الباطل وهو يقع اليوم بشارع الباطنية في الجنوب الشرقي من الجامع الازهر بقسم الدرب الاحمر وهي تشمل نحو 140،000

(د. عبد الرحمان زكي. موسوعة مدينة القاهرة ص 26)

والباطنية دعاة وجنود اصطدام استقروا بمصر قبل قدوم المعز فكانهم ما يسمى اليوم بالمناضلين او قدماء المحاربين وهم فرسان يبلغ عددهم 15،000 فارس.

3) الجيش المصمودي : والمصامدة قبيلة بربرية من المغرب الاقصى ناصرت الفاطميين ومنها جيش كبير يعد 20،000 يشارك بهذا العدد في الاستعراض ايام المستنصر الفاطمي.

هذا القسم المغربي من الجنود وقد اخبرنا عنه ناصر خسرو في السفرنامه.

وهناك قسم مشرقي يشمل :

4) المشارقـة : وهم جنود من الايرانيين او من الاتراك وعددهم عشرة الاف . فهم جنود منتخبة يبلغ عددهم 10،000 جندي

5) عبيد الشراء : وعددهم 30،000 جندي

6) بدو الحجـاز : وهم 50،000 فارس مسلحين بالرماح

7) الاساتـذة : جيش من العبيد السود والبيض ماهرين في الصناعات يباشرون خدمات مختلفة وعددهم 30،000 نفر .

8) السـراي : وهم المكلفون بحراسة القصر الفاطمي العناية به وعددهم عشرة الاف اتوا من بلدان عدة.

9) الزنـوج : وعددهم ثلاثون الفاً

ويحدثـنا ناصر الدين عن المؤسسات العلميـة التي اسسها الفاطميون بمصر وهي :

الجامع الازهر : وهو ثالث جامعة اسلاميـة كبرى من تاسيس التونسيين

فالاولى هي جامع الزيتونة بتونس اسسه الوالي عبد الله بن الحبحاب (114 هـ/732 م) وهو جامع ورباط وجامعة ومكتبة كلها يشار اليها بالبيان قد تخرج منه ابن خلدون وابن عرفة واضرابهما.

الثـانية هي جامعة القرويين بمدينة فاس بالمغرب الاقصى اسستها فاطمة ام البنين القيروانيسة سنة 255 هـ وهي جامع وجامعة ومكتبة ومعهد دراسات الى اليوم قد تخرج منها كبار علماء المغرب وموريطانيا والبلاد السوداء وغرب الجزائر ودرس بها الاندلسيون والمغاربـة.

الثالثـة الجامع الازهر اسسه القائد جوهر الصقلي من جمادى الاولى 359 هـ/969م الى رمضان 361 هـ /971 م فقد مضى على تاسيسه الف سنـة.

واعتنى به الخلفاء الفاطميون فوسعوا نطاقه واوقفوا عليه الاوقاف الكثيرة . وجعله الخليفة الفاطمي العزيـز — عـلاوة عن كونه جامعا — معهدا للتعليم (365 هـ / 976 م 386 هـ/996م) واول قاض القى دروسا بالازهر هو

ابو الحسن علي ابن القاضي النعمـان، ودور الازهر في اخراج نبغـاء الاسلام واحياء الفكر الاسلامي غني عن البيان .

دار الحكمة : هي امتداد لبيت الحكمة الذي اسسه زيادة الله الثالث ابن الاغلب وجعله جامعة ومعهدا للترجمة ومعهدا للمؤلفين وجعل على راسه ابراهيم الشيباني (اصله من خراسان ، على ما يظهر فالكثيرون من الشيبانيين من خراسان) ويسمى الرياضي وينسب الى بغداد وعاش في عصر الفاطميين واعتنى بشؤونهم العلميـة والتعليميـة.

فلما انتقل الفاطميون الى مصر نقلوا مكتبة بيت الحكمة النفيسـة ونقلوا الاساتذة واسس الخليفة الحاكم سنة 393 هـ/1005 دار الحكمـة بالقـاهـرة. فهي استئناف لبيت الحكمة. وهي جامعة لاخراج الدعاة وبث الدعاية مديرها داعي الدعاة ضمت اليها حلقات الدعاية التي كانت تقع بالجوامع ودار الخلافة الفاطميـة. وكانت تدرس بها علاوة عن الفقه الشيعي والسني علوم الفلك والطب والنحو والادب الا ان النظام بالقيروان كان ان دروس الدين والادب واللغة كانت بجامع عقبة والعلوم الدخيلة كانت ببيت الحكمة القريب منها. وبها مكتبة غنيـة جدا الاصل فيها من الكتب التي جلبت من المغرب مع قافلة المعز.

قصر الخليفـة : ولقصر الخليفة الفاطمي دور كبير في الدعاية الفاطمية فكان به معهد معد للدعاية وكان الناس يتزاحمون على محاضراته في المذهـب الشيعي. فقدذكر المقريزي عن المسبحي انه في غرة ربيع 385 هـ/968 م بينما كان القاضي محمد بن النعمان يلقي حسب عادته درسا في القصر اذ مات 17 رجلا من جراء الازدحام.

وفي القصر نفسه محل خاص بقي خصيصا لرئيس الدعاية الذي هو داعي الدعاة. وفي هذا القسم المسمى المحول قسم خاص تحضر بـه النساء للاستماع الى دروس خاصة بهن.

هذه لمحات قليلة من كثير مما اورده ناصر خسرو عن احوال الفاطميين بـالمـغرب ومصر وهـي معلومات مفـيدة جدا قـلما توجد في كتب التـاريـخ الاخرى بسطها وصنفها وعلق عليها العلامة الدكتور يحيى الخشاب في كتابه

الذي الفه عن ناصر خسرو ونشره بالفرنسية كاطروحة للدكتوراه وفي ترجمة السفر نامة عن الفارسية الى العربية فمن شاء الزيادة والتبحر فليراجع ذلك الكتاب النفيس.

ابو منصور الثعالبي

نختم باب الفاطميين برجل كان له دوره العظيم في العلاقات الثقافية بين ايران وتونس الفاطمية. نعنى به ابا منصور الثعالبي النيسابوري الخراساني فهذا خراساني آخر ومن العاصمة نيسابور ايضا. قد الف كتاب يتيمة الدهر في تراجم ادباء العصر نوع Anthologie des poètes contemporains فكان لها من التاثير:

اولا : انها درست الشعراء الافارقة الفاطميين المعاصرين له وبخاصة تميم ابن المعز لدين الله فقد اطنب فيه وعرف به اهل المشرق والآن رجال المغرب وكذلك ترجم للنعمانيين القضاة المهدويين الفاطميين. فقد عرف بالادب الفاطمي في عصره احسن تعريف.

ثانيا : أنه فتح بابا جديدا من تاريخ الادب فجاء جماعة في العصر الموالي اعتنوا بالأدب المغربي المعاصر لهم منهم ابن رشيق في كتابه العظيم أنموذج الزمان في تراجم أدباء القيروان. وأدباء المهدية ومنهم أمية بن أبي الصلت المهدوي الذي ألف كتاب الحديقة في تراجم أدباء تونس في عصره وعبد الرحمان بن بشرون الذي ألف كتاب شعراء صقلية في عصره.

ثالثا : وتعاقب بعد الثعالبي مؤرخون لادباء عصرهم منهم الباخرزي وحمزة الأصفهاني وغيرهم ترجموا هم أيضا لأدباء تونس في كل عصر بحسبه.

وإلى جانب ذلك فإن الثعالبي ألف كتبا دراسية كثيرة استفاد منها التونسيون ولا يزالون منها فقه اللغة ومنها خاص الخاص وغيرهما.

ولو كانت دراسة الثعالبي أنسب في باب الأدب إلا أننا ذيلنا بها هذا الباب لما لها من صلة بالعصر الفاطمي بالمهدية وفوق كل ذي علم عليم.

الدولـة الصنهـاجيـة (370 — 600)

لما انتقل الفاطميون الى مصر تركوا بتونس دولة بربريـة تدين لهم بالولاء — في الاول على الاقل — وهي الدولة الصنهاجيـة. وبلغت تونس يومئذ اقصى حدودها الجغرافية ومنتهى القمة في العلوم والآداب والفنون والصناعات التقليديـة . ومع ان النورمانديـين Normands قد استولوا على صقلية الاسلاميـة الا ان ملوكهم ولا سيما رجار الثاني Roger II قد احتضن العلماء والادباء والفنانين والتقنيين والمعماريين فشيدت القصور ببالرم على الطراز الـعربي (القصر الملوكي Palezzo reale) والـقبة والقبيبة والفوارة وشيدت المدارس والاسوار والجسور والابـواب التي لا تزال قائمة تشهد بعظمة الفن المعماري المغربي الذي ضاعت اكثر معالمه بالمغرب وبقي محفوظا بصقلية وآية ذلك في سقف خلوة القصر الملوكي Capella palatina الـذي زوق بصور الصناعـات المغـربيـة فهـو اجمل سقف يحـوي اروع لوحـات التصوير الـزيتي التونسي في العصر الذهبـي. هذا علاوة عن القباب الرائعة والجوامع العجيبـة والزليج الفتان والرخام المرصع والفسيفساء التي فيها مشاهد الحيوان والانسان وعلاوة عن الفوارات والشادرواتات والبرك. وكل هذا فيه تاثير ايراني واضح المعالم .

وكذلك الامر بتونس الصنهاجيـة والجزائر الحماديـة وقد ظهرت بقصور المنصوريـة قرب القيروان وبقصور بجايـة عاصمة بني حماد الصنهاجيـة الفسيفساء المصنوعة من الزجاج المكبسـة بالفضة وهذا فن ايراني خالص وكثرت صناعة اواني الزجاج من قنينات العطر الى جامات الشراب الى الزهريات الى فوانيس الثريات بالجوامع والبيوت منقوش في الغائر والبارز ومذهبة ومختمة ومعينة ومحنشة، وهي متاثرة بفن الزجاج الايراني وهذه الصناعة انتقلت الى البندقية فيمـا بعد في جزيرة تسمى مورينو اي جزيرة المورو الذين هم العرب . والتحف الزجاجيـة من نقود وصنوج واوان هي بهجة القسم العربي بالمتحف الوطني بباردو بتونس او بمتحف دار حسين بصميم العاصمة. وفي هذا العصر الصنهاجي ظهر الشريف الادريسي الذي الف نزهة المشتاق والموسوعـة الجغرافيـة الكبرى التي فسحت المجال لجغرافيـة ايران بما ارسل نورا جديدا باهرا على معالمها وملامحها.

الدولة الحفصية (605 هـ/981م)

في عهد الحفصيين استولى البرتغاليون على الهند والخليج الايراني (العربي) فقضي على الاسطول التونسي وتحولت التجارة التونسية من تجارة تصدير وتوزيع الى تجارة توريد واستهلاك. فقلت المواصلات مع الايرانيين التي كانت مزدهرة في عهد الفينيقيين والرومان والبزنطيين والعباسيين والفاطميين وحتى الصنهاجيين. وما بقي الا الاتصال عن طريق الحج.

ولكن كان عصر الحفصيين عصرا موسوعيا فابن خلدون تكلم باطناب عن جغرافية ايران وتاريخه قبل الاسلام وبعده الى عصره. والاطباء التونسيون اعتمدوا قانون ابن سينا والطبيب الصقلي شرح الفية بن سينا في الطب والادريسي عقد ابوابا مطولة لجغرافية ايران وشرف الدين التيفاشي تكلم عن الفلك والاحجار والمعادن والحيوانات والنباتات والكيميا والطبيعة والموسيقى لكل علم كتاب فاورد نصبب الايرانيين في ذلك.

ففي عهد الحفصيين سجل التونسيون تاريخ الحضارة الايرانية وبينوا اصولها واودعوها امهات الكتب الموسوعية.

الدولة التركية

الدولة التركية حلت محل الاسبانيين الذين كانوا استولوا على تونس في صليبية شرلكان وأندريه دوريا لتنصيرها. ولولا الاتراك لكانت تونس والجزائر وليبيا اندلسا ثانية وثالثة ورابعة. وقد نشأت بتونس دولتان تركيتان : الد ولة المرادية القرن السابع عشر. الدولة الحسينية 1705 ـ 1957.

وهذه الدولة التركية جلبت معها اساليب عيش ونظما وتاسيسات في العسكرية والادارة والقضاء والحياة والاقتصاد والاجتماع والفنون تركية طبعا ولكنها متاثرة الى ابعد حد بالاساليب العباسية التي اخذها الاتراك في الدولة العباسية وفي الدول الغورية والسلجوقية والغزنوية وغيرها. فالمرسوم الذي كان يسمى ظهيرا في الدول السابقة صار يسمى فرمانا وفرمان فارسية ودخلت الكلمات المختومة بـ "دار" و "خانة" : خزنه دار بيرقدار كتبدار سلاحدار ، تختخانة ، سلاحخانة ، طوبخانة.

وظهرت الموسيقى التركيـة في الحين الذي ظهرت فيه الموسيقى الاندلسيـة القادمـة مع مهاجرة الاندلس في نفس العهد التركي الاول (عثمان داي 1017 ــ 1613) فصارت بتونس موسيقاآت اربع :

العربيـة الفصحى ذات الاصل العباسي التي فيها انشاد البيت الواحد من طرف منشد واحد وهي متاثرة بالموسيقى الفارسيـة واليونانيـة.

العربية الدارجـة هي فولدوات قديمـة في المدن واناشيد بدويـة في القرى والمداشر:

الاندلسيـة هي ازجال وموشحات تعتمد على المقابلات في الاصوات(الشائب والشباب) وفي الالات : العود والكمنجـه وفي القوافي (تعدد القوافي في الموشح) وفي الانشاد (الفرد والمجموعـة الصوتيـة).

التركيـة التي جلبت لنا البشراف الايراني (بشرو) والمقامات الايرانيـة ولا سيما الالات الايرانيـة من سرناي وكمنجة وأشباهها.

وفي نفس هذا العهد اسس يوسف داي مدرسة البشامقيـة التي كانت تدرس لغات الثقافة الاسلاميـة الثلاث وهي العربيـة والفارسيـة والتركيـة وكان علماء تونس الاكابر يعرفون اللغات الثلاث وينظمون الشعر بالثلاث ويعلقون على كتبهم بالثلاث وفي هذا العهد ظهرت أحداث اخرى.

اولها ان الوزير المصلح خير الدين باشا الف كتاب اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك فتحدث عن ايران جغرافيا وتاريخيا وسياسيا. واسس المدرسة الصادقيـة العصريـة (1875) فكانت تعلم الى جانب العربية الفارسية والتركيـة علاوة عن الفرنسيـة فتخرجت نخبـة من التونسيين تعرف الايرانيـة منهم الصحفي الوطني علي بوشوشة (1860 ــ 1917) والشاعر الـوطني علي الورداني (1855 ــ 1914) وغيرهما.

ثانيها ظهور الطباعة والصحافة بتونس (1860 الطباعـة وصحيفة الرائد الرسمي) فكانت اخبار ايران واحوالها تبلغ الناس ثلاث مرات في الاسبوع وظهر تقويم "النزهـة الخيريـة" فكان يتحدث عن ايران واحوالها مرة في العـام.

ثالثها ظهور الكتب الايرانية المطبوعة والخطية في خزائن الخاصة والعامة لا سيما في الخزائن البيرمية وخزانة جامع الزيتونة وخزائن الزوايا كما ظهرت مطبوعات ايران من الكتب العربية الممتازة.

عهد الحماية (1881 – 1956)

المفروض هو ان يكون عهد الحماية الفرنسية على تونس خلوا من كل صلة مهما كان شكلها بين ايران وتونس ومع ذلك فالعكس هو الذي وقع.

اولا – في المدارس الثانوية يشمل برنامج تعليم التاريخ في السنة الاولى الثانوية تاريخ ايران القديمة وعلاقاتها مع اشور. فنحن عندما فتحنا عيوننا على اوائل التعلم الثانوي درسنا تاريخ ايران القديم.

ثانيا – في دراسات التاريخ الاسلامي بالخلدونية او بالجامعة الزيتونية دراسة مقررة لتاريخ الدول الاسلامية.

ثالثا – كثرت المطبوعات وكثرت ديار الكتب العامة والخاصة وكثرت الكتب العربية التي مؤلفوها من الايرانيين كالخوارزمي والهمذاني والبلخي والفيروزابادي والزمخشري والبخاري والنسائي والترمذي الى غير ذلك.

رابعا – كثرت كتب تاريخ الادب العربي من جرجي زيدان وغيره وهي مليئة بالمؤلفين الايرانيين الذين كتبوا بالعربية كما كثر الكتاب المستشرقون الذين كتبوا عن الآداب العربية بالفرنسية مثل Clément Huard الذي الف كتاب الادب العربي ومثل Carade Vaux الذي الف "مفكرو الاسلام" وقد ترجم الى العربية زيادة عن نصه الفرنسي وكثرت دراسات تاريخ الفلسفة الاسلامية وما كتب عنها بالعربية او الفرنسية (ماسينون درمنغام) كما كثرت دراسات التصوف من السهروردي والحلاج والغزالي فكان هذا داعية الى التعرف اكثر فاكثر على اساطين الفكر الاسلامي بايران.

ثم ترجمت في مستويات مختلفة من ادب الاطفال الى الادب العالي القصص الفارسية كما ترجمت رباعيات الخيام بالفرنسية وبالعربية وجاءت مطبوعة فقرأها الناس.

خامسا – دخل تعليم اللغة الفارسية الى الجامعة الزيتونية كلغة ثقافة اسلامية لا مندوحة عنها.

سادسا ـ دخل في التدريس تاريخ الفنون المعمارية الاسلامية والفنون الصغرى فعرف الناس المدرسة الايرانية وفنون ايران وجاءت كتب عربية وفرنسية في الموضوع فاشتراها الناس وظهرت حتى بعض القصور من المعمار الايراني بضاحية تونس مثل Villa Persane بباردو .

سابعا ـ وذهب بعض التونسيين الى مدرسة اللغات الشرقية بباريس فدرسوا اللغة الفارسية ومنهم هذا العبد كما ذهب كثير من الطلبة الى جامعات مصر والعراق فاختاروا الفارسية وتخرجوا فيها احسن تخرج.

ثامنا ـ ثم ان الصحافة التونسية الكثيرة والصحافة العربية الشرقية التي تصل تونس والصحافة الفرنسية ولا سيما صحافة الاستشراق تعطي اخبارا يومية واسبوعية عن ايران وتنشر دراسات عميقة عن الاحداث الحضرية والثقافية الايرانية لا سيما مجلة .R.E.I (مجلة الدراسات الاسلامية) فكان التونسيون على بينة من تاريخ ايران والادب الايراني والفنون الايرانية.

والاسطوانات الموسيقية سهلت سماع الموسيقى الايرانية. وعندما كنا مشرفين على الاذاعة التونسية من 1938 الى 1943 جعلنا حصة للموسيقى الايرانية دراسة وفنا.

ومن جمع مقالات الصحافة التونسية من 1886 الى 1936 المتحدثة عن ايران وجد كنزا ثمينا لاسيما في طور 1886 ـ 1912 الذي كان طور "اتحاد اسلامي" تعتني فيه الصحافة بالدراسات الاسلامية بما في ذلك ايران.

وكانما هذا الطور الذي هو أشع اطوار حياتنا السياسية كان يعد لحياة اتصال وثيق باخواننا المسلمين فلما ارتفع الكابوس كانت الانطلاقة اقوى حركية واعظم اتساعا واعمق اثرا.

العلاقات قبيل الاستقلال وبعده

لا شك ان الخاتمة الحتمية لهذه الصلات المتينة المتماسكة الحلقات من فجر التاريخ الى هذا العصر جعلت ايران تشعر شعورا اسلاميا صادقا وديموقراطيا مشرفا مخلصا نحو تونس ايام محنتها ودفاعها عن حقها السليب وبذل المساعي الاليمة للتخلص من براثن الاستعمار.

فوقفت ايران دائما الى جانبها وساندت قضيتها ودافعت عنها في المحافل السياسية العامة ولا غرابة فالدر من معدنه لا يستغرب.

وجاء الاستقلال يوم 20 مارس 1956 فكانت ايران من اوائل الدول المبادرة الى الاعتراف بتونس كدولة مستقلة وذات سيادة. ولم تمض الا سنتان على هذا الاستقلال حتى تبادل الطرفان الوثائق الديبلوماسية اللازمة لجعل علاقات سفيرية. واسست السفارة الايرانية بتونس سنة 1958 فتعاقب عليها حضرات السفراء :

1) حضرة السفير يكتنا
2) حضرة السفير مفتاح
3) حضرة السفير رشيدي حاثرى
4) حضرة السفير الحالي مرتضى قديمي

اما تونس فانها جعلت من سفيرها في انقرة سفيرا لها في نفس الوقت بطهران. وطبعا ان هذه السفارات فتحت الباب على مصراعيه للتعارف والتزاور وتبادل الكتب والصحف. وصارت سفارة ايران بتونس في الحقيقة سفارة تونس في ايران لانها عرفت بالبلاد والعباد كما انها عرفت بايران حكومة وشعبا وعلما وادبا وتاريخا لا سيما خلال هذه الايام القورشية.

وكذلك بذلت سفارة تونس منتهى الجهد لتكون سفارة ايران بتونس في التعريف بهذا البلد الكريم ولتاكيد العلاقات الاخوية التاريخية التي ما ما انفصمت عراها ابد الدهر والتي ما زادتها الايام الا تاصلا وتاكدا.

الزيارتان العظيمتان

لا شك ان تزاور العاهلين العظيمين هو اعظم مظهر واكبر دستور لتقعيد العلاقات على الاخوة والصفاء وتبادل المصالح بسيوسية نظيفة.

فلذلك بدأ فخامة الرئيس المجاهد الاكبر الحبيب بورقيبة فزار ايران مع فخامة الماجدة وسيلة بورقيبة في مارس 1965 وتبودلت الخطب الرنانة

وعرف فخامة الرئيس عن كثب ايران وحضارة ايران وما هناك من مطابقات حضرية له مع تونس في مختلف مظاهر الحضارة ومما هناك من اتفاق في وجهات النظر في عامة المسائل.

وفي سنة 1969 شرف فخامة الشاهنشاه عاهل ايران رضا بهلوي بمعية جلالة الامبراطورة فرح بهلوي شاهبانو الجمهورية التونسية وتقابل مع اخيه فخامة رئيس الجمهورية التونسية ومنقذ الامة من الاستعمار المجاهد الاكبر الحبيب بورقيبة. ودامت الزيارة من 13 الى 21 افريل 1969 والقيت الخطب الرنانة التي رددت صداها الصحف والاذاعات والتلفزة. وعقدت جلسات العمل في مستويات مختلفة. وتبودلت وجهات النظر ووضعت اصول سياسة سليمة واضحة. وتعرف العاهل الايراني على تونس دولة وحكومة وشعباو تاريخا وحضارة. وراى نقط الشبه بين الحضارة الايرانية والحضارة التونسية.

وقبيل الزيارة الكريمة وعلى آثرها تمت الاتفاقات الآتية :

أ) الاتفاق الثقافي عقد بالإيرانية والعربية والفرنسية في 15 فصلا وذلك أنه اعتبارا للعلاقات القديمة والعميقة الثقافية والدينية ، ورغبة في تدعيمها وتنميتها أكثر فأكثر وسعيا وراء توثيق هذه الروابط فالدولتان المتعاقدتان تلتزمان برعاية التعاون الثقافي وتنميته. من ذلك تبادل المساعدين والمحاضرين والأساتذة الجامعيين والباحثين والاختصاصيين والتقنيين وأضرابهم من الشخصيات التي تمارس نشاطا في الميادين التربوية والعلمية والثقافية.

ب) الاتفاق الاقتصادي (1968/8/20) ففي ذلك التاريخ أبرمت اتفاقية تجارية بين تونس وإيران في سبعة فصول ...جاء في الفصل الثاني منها :

« أن الطرفين المتعاقدين يسهلان في دائرة القوانين والتراتيب القائمة أوسع تنمية لتبادل البضائع بين إيران وتونس إلخ .....»

ج) اتفاق حذف التأشيرة وقع خلال الزيارة البهلوية الكريمة إلى تونس (أفريل 1969) وتم في فصلين.

وهكذا آلت العلاقات التاريخية بعد ثلاثين أو أربعين قرنا من روابط متينة وصلات حضرية مكينة إلى ما يجب أن تؤول إليه من أخوة إسلامية صادقة ودولية سليمة وسياسية واقتصادية واجتماعية عظيمة تليق بأمتين تعاونتا عبر العصور على تسجيل صحف ذهبية في التاريخ العام. ومازالتا تسجلان.

الباب الثاني

ابن خلدون والدراسات الإيرانية

الفصل الأول

الإيرانولوجيا

لا شك أن مؤرخنا وفيلسوفنا التونسي الكبير عبد الرحمان بن خلدون هو أول وأكبر دارس تونسي للإيرانيات بكل ما في مفهوم هذه الكلمة من المعاني. وإذا قلنا الأول فليس معناه أنه لم يوجد غيره من التونسيين قد درس تاريخ إيران أو جوانب من إيران. ولكن معناه أن ابن خلدون قد درس « كلا إيرانيا » فتبسط في التاريخ الإيراني كما تبسط في الحضارة المقارنة بين الفرس والعرب وبين الحضارة الحضرية والحضارة البدوية وبين حضارة الترف وحضارة البساطة والتقشف ودرس العلوم وتاريخها دراسة قارة Statique وحركية Dynamique ودراسة مقارنة فأجاد وكان الأول في طرق هذا الباب.

ولد عبد الرحمان بن خلدون بمدينة تونس العاصمة ولا تزال دار مولده تقع بنهج تربة الباي ولا يزال الكتاب الذي تعلم فيه على ابن البدال واقعا قرب داره ويسمى سيدي القبة. وصوابه مسيد القبة والمسيد لفظ بربري (تامسكيده) منحرف عن مسجد العربية ويقصد به مسجد صغير يحفظ به القرآن الكريم وعلومه والدارسات الإسلامية الأولية. وهذه الكلمة أكثر شيوعا بالجزائر والمغرب الأقصى ولكنها موجودة بتونس أيضا وإن كان بقلة. فهناك بتونس « سيدي المشرف » أي المسيد المشرف. ويغلب أن تحول كلمة مسيد إلى سيدي التونسية التي تطلق على الأولياء (سيدي عبد القادر ، سيدي محرز ... إلخ) لأن التونسي لا يفهم معنى مسيد فذهب إلى سيد التي يعرفها. ويسمى مسيد القبة هكذا لأن قبة أغلبية (القرن الثالث الهجري — التاسع الميلادي) تعلوه وهي من أجمل القباب الأغلبية تشبه قبة سيدي

بوخريسان القـريبـة منهـا طرازا وموقعـا وقباب بالرم عاصمـة صقليـة الإسـلاميـة.

وليست هذه كل الآثار الخلدونيـة بتـونس فهناك في مقبرة الزلاج التاريخيـة الواقعـة جنـوب العاصمـة عنـد أحد أبوابهـا أضرحة أخت ابن خلـدون (أمـة الرحمـان) وأبيـه وأعمـامـه وأفـراد عائلتـه.

وهنـالك في مدينـة بنـزرت الشهيـدة التي تقـع في الشمـال الشرقي التونسي على بعـد ستين كلـم من تونس وفي مكتبة السيد عبد الرحمـان اللـزام بالذات مصحف شريف كتبـه جد ابن خلدون بمدينـة إشبيليـة Seville عنـد ما استـولى عليهـا الاسبـان. وهو مصحف مربـع مكتـوب بالخط الكوفي المربع الذي ذكـره المقـدسي في كتـابه أحسن التقاسيـم أنه خط مشهـور بالأندلس وكانت كتابتـه سنـة 597 وبآخره شهادة تثبت إمـلاك آل خلدون بإشبيليـة بالحجـة العادلـة مع التوصيف فإذا رجعت أشبيليـة دار إسلام رجعت لهـم أملاكهـم ثم دعاء مطـول وابتهـال وتضرع إلى الله سبحانه وتعالى أن يرجعهـا دار إسلام. وإذ كتب في رمضان من السنة فالدعاء أقرب إلى الاستجابة إذ المحتمـل أن يكـون ليلـة القـدر التي هي خيـر من ألف شهـر في رمضان وعلى الأغلب في العشـر الأواخـر منـه.

وهذه عادة عند مهاجرة الأندلس أنهـم إذا اضطروا إلى مغادرة بلادهـم بسبب الاستـرجاع الإسباني la réconquista كتبـوا مصحفـا بنفس الأسلـوب واصطحبوه معهـم مع مفاتيـح المنازل والعقارات. وعندنا بتـونس مصحف حازم القرطاجني ومصحف ابـن الابـار. وكـل مهاجـر أندلسي تونسي يكـون عنده مفتاح بيتـه بالأندلس مبدئيا.

وتعلـم ابن خلـدون بالزيتـونـة — أي بجامع الزيتـونـة وهو قريب جدا من بيتـه إذ لا يعـدو أن يزيد عن 100 م على شيـوخ تونسيين وشيـوخ أندلسيين في مقـدمتهـم الواديـاشي الرياضي الحكيـم وشيـوخ من أساطين علمـاء المغـرب الأقصى في مقـدمتهـم السطي وناهيك به.

وطالع ابن خلـدون وتقلب في وظائف عدة وسافر من الأندلس إلى الشرق الأوسط ومارس سياسة دول عصره واطلع على خزائن الدول (أرشيف)

فكان مؤرخا وواضع فلسفة التاريخ والنقد التاريخي وعلوم الاقتصاد الإجتماعي والاقتصاد السياسي والفولكلور والحضارات المقارنة وتاريخ الآداب والعلوم المقارنة. وبهذا الاعتبار وهذه البضاعة الثقافية تناول الدراسات الإيرانية في مكانين : المقدمة وكتاب التاريخ وهو كتاب العبر.

إننا إذا رجعنا إلى مقدمة ابن خلدون نراه تناول إيران بالبحث في معظم الأبواب نخص منها بالذكر الفصول الآتية.

الفصل الثاني

ابن خلدون دارس جغرافية إيران

ولما كان ابن خلدون منطقيا مع نفسه مفكرا رياضيا وتأمليا في الآن نفسه فقد بدأ بما يجب أن يبدأ به وهو الجغرافيا فأطنب بحسب المقام في جغرافية إيران في الباب الأول من الكتاب الأول في المقدمة الثانية وفي تكملة المقدمة الثانية وهو يعتمد في كل ذلك على كتابي ياقوت الحموي المشترك ومعجم البلدان كما يعتمد على « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » للشريف الإدريسي المسمى بكتاب لجار Roger II de Sicile ملك النرمان بصقلية الذي نشط العلوم العربية وكان أعظم مساعد للشريف في وضع كتابه فنسبه إليه. ونقل أيضا عن ابن خرداذبه في جغرافيته. واعتمد على الأكثر في وصف إيران و « بحر فارس » ونهر جيحون والبحيرة الجرجانية وأقسام إيران من خراسان وخوارزم وفرغانة إلى غير ذلك، اعتمد في كل ذلك على الأخص على كتاب (الجغرافيا لبطليموس اليوناني) وهو كتاب المجسطي Almageste وعلى كتاب لجار أي نزهة المشتاق للشريف الإدريسي التونسي المغربي. وقد غلط ناشر المقدمة فسماه كتاب الزخار بينما هو كتاب لجار Roger II de Sicile كما اعتمد أيضا على خرائط المجسطي ونزهة المشتاق فقال : « وصوروا في الجغرافيا جميع ما في المعمور من الجبال والبحار والأودية واستوفوا من ذلك... إلخ ».

ورسم ابن خلدون خرائط الجغرافيا كما رسمها الشريف الإدريسي ونشرها في أصل مقدمته ولكن الطابعين لم ينشروها قال : « ولنرسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب لجار (الشريف الإدريسي) ثم نأخذ في تفصيل الكلام عليها.»

فيبدو أن أول من رسم خرائط مضبوطة لبلاد إيران وغيرها هو الشريف الإدريسي الصقلي التونسي وأن الذي شرحها هو التونسي الآخر عبد الرحمان بن خلدون. فما شاء الله.

واعتمد ابن خلدون في وصف الأقاليم على كتاب لجار فقال : «...ونحن الآن نوجز القول في ذلك ونذكر مشاهير البلدان والأنهار والبحار في كل جزء منها ونحاذي بذلك ما وقع في كتاب «نزهة المشتاق (في اختراق الآفاق)» الذي ألفه (الشريف) العلوي الحمودي لملك صقلية من الإفرنج (والصواب من النرمان Normands) وهو لجار (الثاني) ابن لجار (الأول) عندما كان نازلا عليه بصقلية... وكان تأليفه للكتاب في منتصف المائة السادسة وجمع له كتبا جمة للمسعودي وابن خرداذبه وابن حوقل وابن إسحاق المنجم وبطليموس Ptalemée وغيرهم.» ومن هنا نعلم بالتدقيق ما هي مصادر ابن خلدون عن جغرافية إيران المباشرة وغير المباشرة.

وأكثر ما كتبه ابن خلدون في هذا القسم الجغرافي من مقدمته يتعلق بإيران لأنها تشارك في كثير من الأقاليم السبعة التي كان علماء الجغرافيا من المسلمين يقسمون إليها الأرض و يتحدث عن مواقعها وجبالها وأنهارها وبحارها وبحيراتها ومدنها ومن سكنها من البشر.

ونفتح قوسا صغيرة هنا. ونترك ابن خلدون يرتاح قليلا لنقول كلمة عن الشريف الإدريسي الصقلي التونسي الذي هو مغربي أيضا وتفصيل ذلك يطول : هو أبو عبد الله محمد الإدريسي نسبة إلى الأدارسة المغاربة ولد بمدينة سبتة نحو سنة 1099 وأقام بصقلية وطاف العالم في البحث عن الجغرافيا وجمع مكتبة جغرافية عديمة النظير وفهم الجغرافية بأوسع مفهوم فهي لديه جغرافية فلكية وطبيعية وجبلية ونهرية وبحرية واقتصادية وعمرانية وبشرية واقتصادية وحيوانية ونباتية.

وعاش في بلاط لجار الثاني الملك النرماني بمدينة بالرم عاصمة جزيرة صقلية القريبة جدا من تونس والتي فتحها أسد بن الفرات من مدينة سوسة سنة 212 هـ. وببالرم معالم إسلامية كثيرة منها قصور القبة

والقبيبة والفوارة والعزيزية ومنها جسر الفاطميين وجوامع ومدارس وأسوار وأبواب وحارات وأسواق. وألف الإدريسي للملك لجار نزهة المشتاق التي هي أكبر دائرة معارف جغرافية في القرون الوسطى وزار معظم البلدان التي تحدث عنها ناهيك أن القسم المتعلق بفرنسا يؤلف كتابا بوحده ، وقد نشرت معظم الأقطار الأوروبية القسم الذي يتعلق بها حتى فينلاندا. وأما قسم إيران فلم ينشر بعد على ما نعلم وقد تألفت جمعية بإيطاليا لنشر الكتاب كله مع التعاليق. أتم كتابه سنة 1150 م وتوفي بصقلية سنة 1164. وكأنما ابن خلدون والإدريسي أرادا أن يكافئا بالمثل علماء الجغرافيا من الإيرانيين الذين سبقوا بالحسنى فأطنبوا القول عن جغرافية إفريقية والمغرب أمثال ابن رسته وابن خرداذبه وأمثال الرحالين الذين تكلموا عن أقطارنا ومنهم ناصر الدين خسرو.

فهذا من باب التبادل الثقافي المسمى قبل الاسم وإن كان عن بعد في الزمان وفي المكان ولكن ماذا يهم ؟

الفصل الثالث

ابن خلدون مؤرخ إيران

نجد ابن خلدون في كتاب تاريخه مؤرخا عالميا اهتم بالتاريخ العام بعد أن جعل مقدمة في العلوم التاريخية من فلسفة تاريخ ونقد تاريخي وأصول العلوم البشرية من علم اجتماع واقتصاد وطبقات أمم وفولكلور وعلم آداب شعبية مقارنة وغير مقارنة تكون كالتمهيد وكأصول لعلم التاريخ . ويسمى كتابه « ديوان العبر » أي الخزانة الجامعة لعبر البشر المستمدة من تاريخهم. وكتاب « المبتدأ والخبر (أي الكتاب الشامل في الزمان لتاريخ الإنسان من البداية إلى عصر المؤلف) في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من الملوك من ذوي السلطان الأكبر.»

فقد قصد ابن خلدون إلى أن يكتب أولا مقدمة جامعة لعلوم البشر التي لها صلة وثيقة بالتاريخ وإلى استنباط العلوم التاريخية وتأصيلها وتقعيدها وضبط معالمها ثم إلى سرد تاريخ الشعوب على اختلافها شعبا بعد شعب معتمدا في الغالب على التواريخ الوطنية لكل شعب من الشعوب.

ونقول عرضا أن عصر ابن خلدون هو عصر التجميع الموسوعي. فابن منظور قد وضع موسوعة لغوية والقلقشندي موسوعة ديبلوماسية والنويري موسوعة عامة وابن فضل العمري موسوعة جغرافية وابن راشد القفصي موسوعة فقهية مالكية وشرف الدين التيفاشي القفصي موسوعة علمية (فلك – جيولوجيا – حيوان – نبات – معادن إلخ...) فجاء ابن خلدون فوضع العلوم التاريخية وتاريخ البشر عامة فكان الكل موسوعة تاريخية.

ومما سهل على ابن خلدون وضع كتابه هذا أنه اشتغل في خزائن

حكـومات الأندلس والمغـرب والجـزائر وتونس وطالع كتب تاريخ الأمم من أصولهـا الوطنيـة والمتـرجمـة وأحيانا حتى بلغتها الأصليـة وعاش الأحداث عند أمم الحضارة المعاصرة له كافـة ، من ملوك الاسبان إلى ملوك المغـرب إلى ملـوك المشـرق إلى ملـوك الأتراك وغيـرهم ، وعرفهـم عن كثب . وزار أشهر البلدان المعـروفة يومئذ فعـرف مسالكهـا ومواقعهـا ومعالمهـا وحياتهـا اليـوميـة وأطوار تاريخهـا ورجالات علـومها وآدابها وفنونها، فصار هو نفسه أعظم وثيقة تاريخية لجميع الأمم قديمها وحديثها.

ثم هو اعتنى أولا وبالذات بالأمم التي عرفها أكثـر من غيرها وكان اهتمـام المؤرخيـن بتاريخهـا أقـل : أعنـي الأمم الأوروبيـة من روم وإفرنجـة وإسبان وقوط ورومان وصقالبـة ومن بربر وزنوج. وعول كما قلنا في تاريخ كل أمـة على أصول ثـلاثـة :

1) الـكتب الوطنيـة المعـربة أو الأصلية.
2) خزائن الدولـة وما فيهـا من وثائق.
3) مشاهداتـه الخاصـة واستنتاجاتـه ومقارناتـه.

ففي تاريخ البربر عول على مؤرخي البربر ونسابيهـم وما ترجم من كتب أنساب من البربريـة التي لم يكـن يحذقهـا تماما كـكل تونسي وكمـوظف سام في دولـة بربريـة من هنتاتة وهي الدولـة الحفصيـة بتونس أو بربريـة من بنـي زيان وهي دولـة بنـي عبد الوادي بتلمسان في الجزائر الغـربيـة أو حتى في الأندلس . فقد كان ملـوك البربر وبخاصة الحفصيون يتـكلمـون البربريـة في قصورهم ومع خاصتهـم وكأنها لغـة السر لموظفي الدولـة فيمـا يحتاجون إليـه من حديث سـر.

وعول ابن خلـدون في تاريخ اليونان والرومان على هوروشيوش ويسميه هرشيش وهو Paul Orose المؤرخ اللاطيني الذي وضع كتاب Adversus paganos وقد نقـل إلى العـربيـة بالأندلس (انظـر فؤاد السيد : طبقات الأطباء لابن جلجل، ودراستنـا : ابن خلدون ومصادر تاريخ الرومان) .

وابن خلـدون من المؤرخين القليلين الذين أرخوا الملك العظيم قورش أو كـورش ويسميه « كيرش.» (ص 328 — 329).

قال : « ومازال أمرهم ينمو إلى دولة كيرش ــ الذي يقال فيه أنه كسرى الأول ، فقد عرفه ابن خلدون وعرف تأسيس الإمبراطورية الإيرانية ــ فغلب على القضاعيين ثم زحف إلى مدينة بابل وعرض له دونها النهر الثاني بعد الفرات وهو نهر دجلة فاحتفر له الجداول وقسمه فيها ثم زحف إلى المدينة وتغلب عليها وهدمها.»

وعطف بعد ذلك (ص 332) فاعتمد على ابن العميد هذه المرة وسمي كورش بنطقه الحقيقي لا كيرش الذي هو نطق إقليمي فقال :« قال ابن العميد في ترتيب هؤلاء الملوك الفرس من بعد كيرش إلى دارا آخرهم : يقال إنه ملك من بعد كورش ابنه قمبوسيوس.»

أما داريوس Darius فيسميه ابن خلدون «دارا» وهو الأشهر أو«داريوش» Darius إذ اعتمد على ابن العميد الذي يجعل الأسماء الأعجمية بنطقها اليوناني أو اللاطيني .

وتحدث ابن خلدون عن كورش في أماكن عدة : فقال في ص 137 عند الكلام عن ملوك بابل :

« وملك بعد ابنه أوبل مرود 23 سنة وبعده ابنه بليتصر ثلاث سنين. ثم زحف إليه دارا من ملوك الفرس وصهره كورش فحاصروه بمدينة بابل» (لا ندري هل يعني كورش الأول أو كورش الثاني لأن كورش العظيم هو كورش الثاني) .

وقال ص 224 : « وكان شعيب بن امصيا من أنبيائهم أخبرهم بأنهم يرجعون إلى بيت المقدس على يد كورش من ملوك الفرس »

وفي ص 266 : « وكان ما قدمناه من استقلال كورش وقومه فارس بالملك ، ورد الجالية إلى بيت المقدس وأطلق لهم المال لعمارتها شكرا على الظفر بالكلدانيين »

«...وكان كورش بعد ذلك يطلق لهم في كل سنة من الحنطة والزيت والبقر والغنم والخمر ما يحتاجون إليه في خدمة البيت ويطلق لهم جراية واسعة .»

ولا شك أن كورش فعل ذلك لما كانوا مظلومين فلما صاروا ظالمين يرملون النساء وييتمون الأولاد ويكتسحون المسلمين ويهددون القدس ويحرقون المسجد الأقصى فقد صار شأنهم شأنا آخر شأن الذين يبيدون الأجناس ويدينون بالميز العنصري ويقاومون الأديان السماوية من إسلام ونصرانية.

على أن كورش لما أمر فسمح بإرجاعهم لأنهم كانوا عبيدا وأسرى لم يسمح لهم ببناء كل معبد سليمان بل عين لهم مقدار البيت لا يتجاوزونه.

قال ابن خلدون (ص 263) نقلا عن مؤرخ اليهود القديم ابن كريون:

«...لأنهم لما رجعوا إلى القدس بإذن كورش عين لهم مقدار البيت لا يتجاوزونه فلم يتم على حدود سليمان.»

وذكر ابن خلدون كوروش مرة أخرى ص 208 باسم كورش فقال:

«ثم غلب عليهم كوروش وأزال ملكهم وهو الذي رد بني إسرائيل إلى بيت المقدس فعمروه.»

وابن خلدون يورد كورش بأسماء عدة قد تختلف في الرسم: كوروش، كورش، كيرش وهذا مرده إلى اللغة المنقول عنها.

ثم هو يقول: «وقد اختلف في كيرش الذي رد بني إسرائيل إلى القدس من هو بعد اتفاقهم على أنه من الفرس. فقيل: هو يستاسب ولم يكن ملكا بل كان مملكا على خوزستان.» وانظر بقية الخبر على التحقيق من ص 208 إلى ص 210. ويتبين منه أن ابن خلدون بعد أن ناقش المؤرخين في تحقيق الاسم عرف أنه هو كورش إلى أن قال:

«هلك دارا وانفرد كورش بالملك على فارس ومادي.»

نعتمد في تحليلنا هذا على طبعة دار الكتاب اللبناني. فقسم تاريخ الإيرانيين يوجد بهذه الطبعة في المجلد الثاني من صحيفة 308 إلى صحيفة 374 أي 66 صفحة متواصلة وهو فقط تاريخ إيران في عصورها القديمة، وسنرى فيما بعد تاريخ الدول الإسلامية، ومدة هذا التاريخ ــ على ما قال ابن سعيد المغربي في تاريخ المشرق نقلا عن تاريخ الأمم لعلي بن حمزة

الإصبهاني — من زمن كيومرت إلى زمن يزدجرد في خلافة عثمان بن عفان 4181 سنة.

وقد عول ابن خلدون في تأليف هذا الكتاب على :

أ — عناصر وطنية فارسية وهي :

1) « تاريخ الأمم » لعلي بن حمزة الإصفهاني

2) يكثر ابن خلدون من قوله « ذكر علماء الفرس » ولم يسمهم بأعيانهم

3) نسابو الفرس الذين نقل عنهم ابن الكلبي (ص 314 سطر 3)

4) البيهقي

ب — المصادر العربية ·

1) الطبري في « تاريخ الرسل والملوك » وهو من أهم مصادره وأكثرها له استشهادا.

2) ابن الكلبي

3) المسعودي في « مروج الذهب ».

4) السهيلي في « الروض الأنف ».

5) ابن سعيد المغربي في « حلى المشرق ».

6) ابن العميد الذي يعتمد هو نفسه على مصادر رومانية ويونانية

7) الإسرائيليات وهي كتب تاريخ اليهود ولا سيما يوسيفوس بن كريون الذي كان مترجما الى العربية

إيران قبل الإسلام

تحدث ابن خلدون عن الإيرانيين قبل الإسلام ففصل دولهم وقسمهم إلى أربع طبقات.

أولا : الطبقة الأولى من الفرس وذكر ملوكهم (مجلد 2/ص. 310 ـ 316) اعتمد فيها على ابن الكلبي فيما رواه الطبري عنه . وعول على بعض علماء الفرس في ذلك فقال : إن كيومرت هو كومر بن يافث بن نوح وإنه كان معمرا. وإنه نزل بعض جبال طبرستان

وملكهـا. ثم ملك فارس وعظم أمره. وأمر بيتـه حتى ملكـوا بابل. وإن كيومرت هو الذي بنى المدن والحصون واتخـذ الخيـل. وإن الفـرس من عقب ولده ماداي(Medes). وعول ابن خلـدون في الموضوع أيضا على البيهقـي ،والإ صبهاني والطبـري.

ثانيا : الطبقـة الثانيـة وهي الكينيـة وفي كلمـة الـكينيـة سقطت ميم إذ الأصـل ولا شك الـكيمنيـة.. تحـدث عنهـا في الجـزء الثاني ص. 318 ـ 335 وأهم ما في هذه الدولة هو كورش وقمبوسيوس وداريوس وقـد تحـدثنـا عنهـم. ويعـول ابن خلـدون في تاريـخ هذه الدولـة على الطبري والسهيلي وهشـام بن محمـد بن الكلبـي وعلماء الفرس والمسعودي.

وتحدث ابن خلـدون في هذا الباب عن نبي الفـرس زرادشت Zoroastre وعن كتـابه زنداقشتاب Zend-Avesta ويختصر بـ Avesta وهو عند العـرب القشتاب وقد ترجم إلى العـربيـة.

واعتمـد ابن خلـدون في الحديث عنـه على « علمـاء الفرس » والمسعودي: «وظهر في أيامه زارادشت الذي يزعم المجـوس نبوتـه... وعنـد علماء الفـرس ان زرادشت من نسل منـوشهر .»

« وقـال علماء الفرس : إن زرادشت جـاء بـكتـاب ادعـاه وحيـا كتب في 12000 بد نقشا بالذهب (البد : القسم الديني) وإن كيستاسف وضع ذلك في هيـكـل باصطخر » .

ثالثا : الطبقة الثالثة وهي الإ شكـانية (مجلد 2 ص : 335 ـ 338) (Les Seleucides) والإ شـكـانيـة من ولد إشـكـان بن دارا الأكبـر. وهذه هي دولة الطوائـف السيلاقيـة. وعـول ابن خلـدون في تـاريخ هذه الدولة على الطبري والمسعودي .

رابعـا : الطبقة الرابعـة. وهي الساسانيـة Sassanides وهي آخر الدول الإ يرانيـة قبـل الإ سلام تحـدث عنهـا ابن خلدون من ص 339 إلى ص 372 فأطـال الحديث لأنهـا أقـرب عهـدا من الإ سلام فالمصادر عنهـا متـوفرة. وقد اعتمـد على المسعودي والطبـري وهشام ابن محمـد بن الكلبي

والسهيلي كما عول على الشعر العربي القـديـم.

ويتبين من هذا أن ابن خلـدون كان يعـرف أخبار الإ يرانييـن من مصادر كثيـرة وأنـه ينـاقش المصادر ويقـابلهـا ويصحـح عنهـا ، وأن ما كتبـه ابن خلـدون من تاريـخ إيـران في عامـة العصور لو جمـع ورتب وشـرح لـكـان وثيقـة هامـة لتاريخ الإ يرانييـن وحضارتهـم.

المصادر : Clément Huart : La Perse antique Bibliographie
Christensen : Les Sassanides

تـرجمـه إلى العربية صديقنا الكبير العلامة الدكتور يحيى الخشاب تحت عنوان : « إيـران في عهـد الساسانيين » وهو كتـاب قيم جـدا.

الدول الاسلامية بايران

اولا : الدولة الطاهرية

عنـدمـا تـرامت أطـراف الامبـراطـوريـة الاسلا ميـة عـلى عهـد هارون الرشيد وظهرت النزاعات القومية عند الشعـوب مع البقاء في حظيرة الإ سـلام ظهـرت الحركـة الشعوبيـة فـرأى هارون الرشيـد من الخيـر تأسيس دويـلات تابعـة متمتعـة باستقـلالها الداخلي كبني الأغلـب بتونس وبني طولون بمصر وبني حمدان بحلب. على أن دولا أخرى استقلت ولم تستشر الخـلافـة مثـل دولة بنـي رستم بالجزائر في مدينـة تيهـرت إلى ليبيا أحيانا. ومثـل الدولـة الأمويـة بالأندلس وهي خلافـة أيضا ومثـل الدولـة الإ دريسيـة في المغـرب الأقصى.

وهـكـذا تأسست دولة طاهر بن الحسين صاحب بوشنج والملقب بذي اليمينيـن. فتحدث عنها ابن خلدون عرضا في المجلد الثالث من تاريخـه في مواضع مختلفـة من صفحـة 469 إلى صفحة 656.

ثانيـا : الدولـة الصفاريـة

تحدث عنها ابن خلدون بإطناب في الجـزء الـرابع ص 686 إلى ص 712.

وهي دولـة أسسهـا يعقـوب الصفار الذي كان صفارا فعـلا (قدوريا — نحاتسيا) استولى على سجستان (867 م) ثم انتـزع خراسان من الطاهريين (873 م).

ثالثا : الدولة السامانية

دولة منبعثة من الأرسطوقراطية الإيرانية طلبت من الخليفة العباسي بعد سقوط الطاهريين إقطاعها بلاد ما وراء النهر La Transoxiane (بخارى وسمرقند وكان ذلك سنة 874 م) ، ثم إن الأمير الساماني إسماعيل انتصر على عمر الصفاري أخي يعقوب الصفاري (879 م 900) فضم خراسان إليه وبقي الصفاريون طوال القرن العاشر الميلادي. بسط ابن خلدون فيها القول من ص 712 إلى ص 771.

رابعا : الدولة البويهية

وفي هذه الأثناء انتصبت بإيران الغربية دولة أخرى وهي دولة بني بويه. أصل آل بويه من جيلان جنوب بحر قزوين. كانوا في الأصل ثلاثة إخوة :

1) أحمد معز الدولة وقد فرض نفسه على خليفة بغداد بعنوان أمير الأمراء أي رئيس القصر (945 م).
2) علي أو عماد الدولة تسمى أمير فارس (شيراز)
3) ركن الدولة صار أمير العراق الأعجمي (اصفهان)

أما أشهر البويهيين فهو عضد الدولة الذي حكم شيراز واصفهان وبغداد حوالي 976 ومن الملاحظ أن البويهيين كمعظم الإيرانيين شيعيون. ومع ذلك فكانوا كأمراء الأمراء إلى جانب العباسيين وباسمهم يتصرفون بالخلافة العباسية ببغداد.

خامسا : دولة بني سبكتكين تحدث عنها مؤرخنا من صحيفة 771 فقال :

« هذه الدولة من فروع دولة بني سامان وناشئة عنها. وبلغت من الاستطالة والعز المبالغ العظيمة واستولت على ما كانت دولة بني سامان عليه في عدوتي جيحون Oxus وما وراء النهر Transoxiane وخراسان وعراق العجم وبلاد الترك وزيادة بلاد الهند وكان مبدا أمرهم من غزنة.»

وتنتهي هذه الدراسة التاريخية صفحة 831 بظهور دولة الأتراك.

سادسا : الدولة الديلمية

تحدث عنها ابن خلدون من صفحة 891 فقال : « قد تقدم لنا نسب الديلم في أنساب الأمم وأنهم من نسل ماذاي» (أي ماديون Medes).

الفصل الرابع

ابن خلدون مؤرخ الفكر الإيراني

العلوم العقلية

تحدث ابن خلدون عن العلوم العقلية عند الإيرانيين فقال :

«...وأما الفرس فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيما ونطاقها متسعا لما كانت عليه دولتهم من الضخامة واتصال الملك ولقد يقال : إن هذه العلوم إنما وصلت إلى يونان منهم حين قتل الإسكندر دارا (داريوس) وغلب على المملكة الكينية (الكيمنية) فاستولى على كتبهم وعلومهم مما لا يأخذه الحصر. ولما فتح سعد ابن أبي وقاص أرض فارس وجد فيها كتبا كثيرة.»

قلت : ومن يراجع الفهرست لابن النديم يجد شطرا صالحا من الكتب الفارسية التي نقلت إلى العربية.

ثم تحدث عن ترجمة كتب اليونان وغيرهم وعطف قائلا :

«...وعكف عليها النظار من أهل الإسلام وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها ، وخالفوا كثيرا من آراء المعلم الأول وخصوه الرد والقبول لوقوف الشهرة عنده. ودونوا في ذلك الدواوين وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم وكان من أكابرهم في الملة أبو نصر الفارابي وأبو علي ابن سينا بالمشرق »

قلت : ومن مفاخر تونس أن أحد التونسيين العلماء صديقنا المنوبي السنوسي رحمه الله هو الذي ترجم إلى الفرنسية وعلق تعاليق ضافية على كتب الفارابي وابن سينا الموسيقية. وهي من العمل العلمي الصالح الذي اهتدى إليه البارون ديرلانجي.

ثم قال :

«...ويبلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة وخصوصا في عراق العجم وما بعده في ما وراء النهر Transoxiane وأنهم على ثبج من العلوم العقلية لتوفر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم. لقد وقفت بمصر على تآليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يعرف بسعد الدين التفتازاني منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان تشهد بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم وفي أثنائها ما يدل على أن له اطلاعا على العلوم الحكمية وقدما عالية في سائر الفنون العقلية.» (أ. خ - مجلد أول - ط. بيروت 862)

العلوم العددية

وتحدث عن الفنون العددية (أرطماطيقي) فقال :«... وللحكماء المتقدمين والمتأخرين فيه تآليف... فعل ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة.»

وعن علم الجبر قال ابن خلدون «...وأول من كتب في هذا الفن أبو عبد الله الخوارزمي »

وعن علم الهندسة قال: « اختصر كتاب الأصول في الهندسة لاوقليدس (Euclide) وقد اختصره الناس اختصارات كثيرة كما فعل ابن سينا في تعاليم الشفاء أفرد له جزءا منها اختصه به »

وقال عن الطبيعيات «...وأوعب من ألف في ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمنا ، ثم لخصه في كتاب النجاة وفي كتاب الإشارات ، وكأنه يخالف أرسطو في الكثير من مسائلها ويقول برأيه فيها ، ولأهل المشرق عناية بكتاب الإشارات لابن سينا وللإمام ابن الخطيب عليه شرح حسن ، وكذا الآمدي وشرحه أيضا نصير الدين الطوسي المعروف بخواجه. وبحث مع الإمام في كثير من مسائله فأوفى على أنظاره »

وعن الطب قال : «وكان في الإسلام في هذه الصناعة أئمة جرّوْا من وراء الغاية مثل الرازي والمجوسي وابن سينا»

قلت : وقد شرح الطبيب الصقلي التونسي الفية ابن سينا في الطب. كما عول في كتبه الأخرى على القانون له أيضا وكانت شروح القانون متداولة بتونس منذ ظهورها.

وعن الكيميا ويقصد به تحويل المعادن الرديئة إلى معادن ثمينة كتحويل النحاس إلى ذهب بالصنعة واستعمال الأكسير لذلك – قال ابن خلدون :

«...فالذي ذهب إليه أبو نصر الفارابي وتابعه عليه حكماء الأندلس أن (المعادن) نوع واحد وأن اختلافها إنما هو بالكيفيات إلخ.....

والذي ذهب إليه ابن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق أن المعادن مختلفة بالفصول إلخ .»

(الفصل السادس والثلاثون من المقدمة مجلد أول ط. بيروت 1020)

هي أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية.

...والحضر لذلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف. كأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس:

فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم. وإنما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم.

وكذلك حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى .

وكان علماء أصول الفقه كلهم عجما كما يعرف وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين.

...وظهـر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم « لو تعلـق العلـم بأكناف السماء لناله قـوم من أهـل فـارس »

التفسيـر

قال ابن خلدون : « ومن أحسن ما اشتمـل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الـكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العـراق. إلا أن مؤلفـه من أهل الاعتـزال في العقـائـد فيأتي في الحجاج على مذاهبهـم الفاسدة... فإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنية محسناً للحجاج عنهـا فلا جرم أنه مأمون من غوائلـه فلتغتنـم مطالعتـه لغـرابـة فنـونـه في اللسان ».

وقال في مـكـان آخـر (باب علـم البيان ط. بيـروت مجلد أول 1037)

« وأكثـر تفـاسيـر المتقـدمين غفل عنه (علم البيان) حتى ظهـر جار الله الـزمخشـري ووضع كتابه في التفسير وتتبع آي القـرآن باحـكـام هذا الفن بما يبدي البعض من إعجازه فانفـرد بهـذا الفضل على جميع التفاسير لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسهـا من القـرآن بوجوه البلاغة. ولأجل هذا يتحاماه الـكثير من أهل السنة مع وفور بضاعتـه من البلاغـة.

فمن أحـكم عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتـدر على الرد عليـه من جنس كـلامه أو يعلـم أنـه بدعة فيعـرض عنها ولا تضر في معتقده فـإنه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب للظفـر بشيء من الإعجـاز ...»

الباب الثالث

المؤسسات العسكرية

الفصل الأول

التحصينات

القيروان

قال صاحب «أخبار مجموعة» وهي تأليف تاريخي عن الأندلس مجهول المؤلف: «...بنى عقبة بن نافع قيروان افريقية» (تونس) فقيروان هي اسم مؤسسة قبل أن يكون علما على مدينة عقبة.

والقيروان هو محط القافلة ومركز عظم الجيش Le gros de l'armèe وذلك أن المسلمين خرجوا من المدينة المنورة وعظم جيشهم بها ففتحوا مصر لأن الاستمداد وتعويض الخسائر قريبان ثم لما أراد عمرو فتح ليبيا بعدت عنه مسافة الاستمداد من عظم الجيش بالمدينة المنورة فأسس فسطاط مصر، والفسطاط من اللاطينية Fossatum أي الخندق أطلق على الظرف واريد المظروف اي الخندق الذي يحيط بالجيش فالمراد هو المعسكر الكبير الذي به عظم الجيش. ففتحت ليبيا وافريقية من فسطاط مصر.

فلما اراد عقبة بن نافع الفهري فتح الجزائر والمغرب الاقصى بعد الفسطاط للاستمداد من عظم الجيش فاسس قيروان افريقية سنة 51 هـ.

وقيروان افريقية هو جامع القيروان الكبير الذي هو ثكنة ورباط وجامع. صومعته قلعة بذاتها ومجنبات صحنه معسكر وصحنه ميدان ومصلى، وشرفاته وقبابه شرفات عسكرية. وبيت صلاته بيت صلاة ومدرسة ومنبر خطبة سياسية وعسكرية ودينية. ولا يعقل ان يبنى جامع بهذه المساحة في مدينة كانت صغيرة اول نشأتها فهو جامع ورباط مثل جامع الزيتونة هو جامع ورباط. ومثل جامع سوسة هو جامع ورباط. فالقيروان بعيدة عن البحر بما لا يوجب التقصير في الصلاة وهي وسط صحراء مكشوفة فيمكن فيها

استكشاف حركات الروم او البربر على مسافة اربعين كلم (جبل جلولا) (جبل وسلات) وطبيعة مناخها توافق المناخ الصحراوي وحياة الابل. وهي معزولة عن العالم المحيط فلا يمكن ان يكشف سرها العسكري.

فالقيروان الاولى معسكر بمؤسسات الدفاع من حصون (الصومعة) وشرفات وقباب رماية وحيطان سميكة كالاسوار ، ومن تزويد للمياه بالصهاريج لمدة عام ومن امكان عيش حصاري فالصحن ومجنبات الصحن وبيت الصلاة متسع كبير لآلاف الجنود.

ثم ان الفروض الاسلامية لا تهمل فهناك بيت الصلاة بمحرابه الخلاب وبمنبره العجيب. فاذا اعلمت حراسة الصومعة عن ظهور العدو صعد القائد الاعلى أو الأمير او الامام المنبر واعلم الناس وطالبهم بالجهاد وانتقل المؤذنون الى ابواب الجامع الكبير يؤذنون في الناس ويعلمونهم بقدوم العدو وبوجوب اخذ الاهبة.

وجامع القيروان يقع في السماط الاعظم من مدينة القيروان Grand Avenue بين قبلة وشمال فهو يشرف على الناحية الشرقية التي ياتي منها العدو من البحر من ناحية سوسة ، ويشرف على الناحية الغربية التي ياتي منها الخوارج من الجهات الجبلية. ويشرف من الشمال على الجهات التي يأتي منها الثوار بتونس من اعاظم قواد الجند الشامي واضرابهم.

على أن أمر سوسة قضى منذ القرن الأول. فقد صارت دار صناعة للأسطول وفي القرن الثاني صارت دار رباط بني رباطها الأول سنة 206 وبني سورها سنة 249 وبني جامعها الذي هو رباط كبير سنة 237 وبني رباط فتح الفتى في أعلى المدينة سنة 249 وبنى لها رباطا بالساحل على الشاطيء (برج خديجة الذي خرج منه أسد بن الفرات لفتح صقلية سنة 212) ورباط أبي جعفر .بعد ذلك التاريخ بقليل فسوسة هي درع القيروان وأي درع وفي شمال سوسة سلسلة من الأربطة : رباط سهلون ورباط أكودة ورباط القلعة الكبرى ورباط القلعة الصغيرة ورباط هرقلة ورباط أبي علي الحسن السوسي ورباط القصر المدفون.

وفي الجنوب منها سلسلة أخرى : قصر الطوب (سيدي عبد الحميد)

ومسجد عيسى وسقانص والمنستير وقصيبة المديوني ولمطة وقصر هلال والسكرين والقاضلين وراس الديماس.

على أن جامع القيروان إلى جانب كونه مسجدا كبيرا ومجموعة أربطة دفاعية هو أيضا مدرسة كبرى فقهية مالكية وحنفية وإلى جانبه بيت الحكمة الذي هو جامعة ودار تعريب والجامع في نفسه مجموعة فنية يبدو فيها التأثير الإيراني في صناعة الخشب وتخريم الرخام وبناية القباب وصناعة الزجاج وصناعة النحاس في الثريات إلى غير ذلك وهو مصدر إشعاع معماري فني على الإسلام المغربي والأندلس وعلى أوروبا النصرانية الغربية كما سنراه في غير هذا المكان.

وحول الجامع المدينة وقد انقسمت حارات وكل حارة لقبيلة وخارج السور مما يقابل الحارة مقبرة القبيلة فهناك مقبرة تميسم (سحنون) ، مقبرة المعافرين ومقبرة البلويين (أبي زمعة البلوي) ومقبرة قريش.

وحول المدينة البرك الفخمة والمدن القصورية الملوكية مثل المنصورية التي بنيت أسوارها وقصورها على طراز فيه الكثير من الإيرانية كالشرفات التي على شكل الإيريسا Merlons en Iris وكأن زج رمح ينطلق منها ، ومدينة القصر القديم الأغلبية التي بها صومعة ذات طريق صاعد خارجي مثل أبي كريب في سر من رأى ومثل جامع أحمد بن طولون بمصر ومنها رقادة ذات الفسيفساء الشرقية ومغارس النارنج والليمون وأنواع الرياحين من ياسمين وسوسن وخيري وقرنفل وعطرشاه ، وذات الحياة المرحة التي تشبه كثيرا حياة الساسانيين في نظام البيزرة والاستماع إلى الموسيقى ومجالس الخمر إلى غير ذلك فبرقادة الحياة الساسانية والعباسية في معمار القصور وترفها وحياة المجالس العلمية والأدبية والموسيقية التي كانت تنعقد بكشك البركة الكبرى.

وتوالت على القيروان الدولة المهلبية ثم الدولة الأغلبية ثم أوائل الدولة الفاطمية التي انتقلت إلى المهدية ، ثم الدولة الصنهاجية التي كانت تارة بالمهدية وتارة بتونس إلى أن انتقلت العاصمة إلى تونس في عهد الحفصيين الموحدين.

الخندق

الخنـدق من الفـارسيـة خانده من مادة خاندان أي حفـر ، فهـو الحفيـر. هو حفيـر يحيط :

أولا : بسور المدينـة. ويكـون مملـوءا ماء وعليـه جسر مشال ينـزل ويشال على رغبـة وحال الدفاع. فإذا نـزل دخل أو خرج الناس وإذا رفع فـلا سبيل إلى الخـروج أو الدخـول ولعـل هذا الخنـدق وما فيـه من ماء وجسـر مشال هو ما نشاهـده في القـرون الوسطى عند مرازبة Seigneurs ملـوك الطـوائف من النصارى بأوروبا الغـربيـة في القـرون الوسطى.

وهذه الخنادق كانت موجودة بتـونس أمام أسوار أغلب المدن ولا يزال منها بعض خندق سـور باردو.

ثانيا : الخندق الصلـة : إذا كانت مدينـة واقعة في رأس بين خليجين كانت محاطـة بسـور فيحـفـر خندق للصلـة بين الخليجيـن حتى تعـزل المدينـة تماما عن البر وهذا مثـل المهـديـة في العهـد الفاطمي أمام باب زويلة.

ثالثا : الخنادق حول الأربطة والحصون وهي زيادة في تحصينها:

رابعا : الخنادق التي تحفر خصيصا في حرب الاستحكامات والحصار فهـذه كلهـا ابتـداء من خندق سلمـان بالك في عهـد الرسالة هي أصل الـوسائـل التحصينيـة الإيـرانيـة.

الـربـاط

الـرباط هو ثـكنـة للمـرابطين يحـرسون بها الثغـور البحرية أو الصحـراويـة احتسابا لوجـه الله تعـالى.
فلمـا فتح المسلمـون الشام ولم يكـن لهـم أسطـول بنوا أربطة الشام . ولما فتـح المسلمـون المغـرب ولم يكن لهـم أسطـول بنوا أربطة المغرب.

وأول من فعـل ذلك هو الوالي هرثمـة ابن أعين الذي كان واليا بإيـران ورأى حصونه وقلاعـه وأساليب دفاعـه عن نفسـه فنقـل المؤسسـة

إلى المغرب فبنى رباط طرابلس الغرب (179 هـ) وهي ما يسمى الآن السرايا الحمراء. وبنى رباط المنستير في نفس السنة. وهو لا يزال موجودا. وبنى الأغالبة ألف رباط من طنجة إلى الاسكندرية باعتبار أن المسافة 6000 كلم وأن البعد بين الرباط والرباط 6 كلم والرباط قلعة على البحر أو في جزيرة وهو يتركب من العناصر الآتية :

1) صومعة مستديرة مأخوذة من الزقورات الفارسية Tour du Silence فرباط سوسة وجامع الزيتونة والمنستير والشابة والحمامات وغيرها لها صوامع مستديرة لا تزال موجودة إلى الآن بينما صوامع أو معاقل الحصون البيزنطية مربعة أو مخمسة وبينما صومعة جامع عقبة بالقيروان هرمية مقطوعة ومعظم صوامع المالكية مربعة وصوامع الحنفية مسدسة.

فهذا الاقتباس الأول عن الحصن الفارسي الطراز قد اقتبسه الرباط.

2) المسقط Mâchicoulis وهو أن تكون فوق سقيفة الرباط قبة أرضيتها جوائز فارغة وملأى فيقف المدافع فوق الجائزة الملأى ويلقى من الفراغ (الجائزة الفارغة أو الخالية) النار الفارسية أو الزيت المغلو على المهاجمين. وهذا نشاهده في رباط سوسة المؤسسة سنة 206 هـ أي بعد رباط هرثمة بن أعين بالمنستير بـ 27 سنة. ومعلوم أن المسقط والنار الفارسية هما من أصل إيراني وإن كانت النار الفارسية تسمى بالفرنسية Feu Grégeois أي النار اليونانية فقد أخذها اليونان عن الإيرانيين ولا مزيد.

3) الخندق المحيط بالرباط. وكلمة خندق هي نفسها فارسية مأخوذة من الفعل خاندان أي حفر فالخندق اسم مفعول منه أي محفور، ويؤول بالصفة المشبهة باسم المفعول : مفعول فعيل : حفير. وهو باللاطينية فوساطوم لنفس المعنى ومنه فسطاط مصر لنفس المعنى من باب إطلاق الظرف وإرادة المظروف فهو الخندق الذي يحيط بالمعسكر وبالتالي المعسكر نفسه والخنادق على ضربين : خندق حصار وخندق إحاطة وتحصين فخندق الحصار يضرب على المدن لوضع الحصار عليها وقد استنبطه سلمان الفارسي (سلمان باك) كما هو معلوم.

وخندق الإحاطة هو يحيط بالسور أو بجزء منه أو بقلعة ويكون مملوءا وعليه جسر متحرك يرفع عنه المخاوف وينزل عند دخول شخصية مرتضاة. فالأربطة لها خنادق من هذا القبيل.

4) الحمام البطائقي أو حمام الزاجل Pigeon voyageur وهو حمام تعلق بعنقه بطائق من كاغذ رقيق مكتوبة بحرف السر وبالمداد الخفي ينقل الخبر من رباط إلى رباط آخر على مسافة معلومة قد تعود عليها. فيأخذ عنه حمام آخر وهلم جرا تناقلا إلى أن يصل الخبر من طنجة إلى الإسكندرية في مدة يسيرة. فيعلم الناس وخصوصا الرباطيون بمقدم العدو فيأخذون حيطتهم لذلك.

5) العلامات النارية كانت بين الرباط والرباط علامات نارية سرية مصطلح عليها. فإذا جن الليل استعملت العلامات النارية دون الحمام البطائقي الذي لا يمكن استعماله طبعا. ولا نعلم ما هي هذه العلامات بالضبط لكننا نعلم أنها كانت موجودة ومستعملة.

6) مدخل الرباط ومدخل الرباط سقيفة بعد سقيفة في انعطاف وباب السقيفة من حديد ينزل بالغرغار والسلاسل فلا يمكن خلعه بأي وجه وذلك زيادة في التحصين.

7) الحسك هو باب من جرات من فولاذ بشكل معين (بقلاوة Losange) تكون كالسكاكين وفيها يد وسلسلة فإن قبض على اليد وجذبت السلسلة انغلقت على بعضها وقطعت الأيدي والأرجل ومنها ما هو باب عمودي ومنها ما هو مفروش على الأرض أفقي تسمى بالفرلسية Herse وهي من استنباطات المسلمين ولا ندري أين نشأت في الأصل. ولكن مؤرخي الحصون وتجهيزاتها يذكرون أن الأوروبيين أخذوها من المسلمين. وعلى كل فقد استعملها الفاطميون في باب زويلة بالقيروان منذ سنة 306. ويغلب على الظن أنها كانت مستعملة بالأربطة قبل ذلك. فهل جلبها هرثمة من إيران؟ لا ندري! وعلى الباحثين أن يحققوا القضية. أم هل أن الشيعة الفاطمية جلبتها من الشرق فاستعملت لأول مرة في باب

زويلة بالمهدية ؟ (انظر : Larousse en x vol. S. V. Herse art. mil.)
8) المكتبة وتكون المكتبة في السقيفة الداخلية وهي طاقات فيها أدراج Rolls-Rouleau من بردي papyrus أو رق parchemin وأمامها مصاطب للمطالعين. نجد أمثلة هذا في رباط سوسة (206 هـ).

ثم يكون هناك صحن فيه رباط الخيل والمرافق ثم الطابق الأول وفيه غرف المرابطين كل مرابط له غرفة وفيه جامع كبير للصلاة ولإ لقاء الدروس (رباط المنستير ، رباط سوسة إلخ...)

ثم طابق ثان فيه قبة المسقط والصومعة ومجالات المنجنيق أربعة في الأركان وأربعة أخرى تتوسطها باستثناء الثامنة التي هي قبة المسقط وباستثناء المجال الذي أقيمت عليه الصومعة. والصومعة هي محل حراسة حية واستكشاف وإيقاد العلامات النارية وهي جديلة لحمام الزاجل

ثم السطح به الحراسة المسترخية ووسائل الدفاع عند الهجوم والحصار (المنجنيقات للدفاع من بعيد والمسقط والنار الفارسية والحسك عند الا قتحام)

والمرابطون منقسمون إلى ثلاثة أقسام :

1) المكلفون بدورهم بالصومعة وقبول حمام الزاجل وإيقاد نار الأعلام.

2) الذين على السطح ترقبا للهجوم.

3) الذين في دور الراحة في انتظار دورهم فهم يتولون القيام بأعمالهم المدنية على معنى الزكاة من جنس العمل والتطوع به احتسابا ، فالطبيب يعالج المرضى فهناك ألف بيمارستان والبريدي ينظم البريد فهنالك ألف دار بريد. والكواغذي يصنع الكاغد والنساج ينسج الكتب والمعلم يعلم والمضيف يعتني بالمسافرين النازلين وهلم جرا كل ذلك احتسابا لوجه الله .

وأمام كل رباط للرجال هناك رباط للنساء ودور المرأة الا ستعلامات والجوسسة العسكرية وإعداد الماء والطعام والسلاح للمجاهدين والزغردة عليهم لتشجيعهم وتضميد جراح الجرحى وغسل الثياب وترقيعها وإعداد الطعام إلى غير ذلك.

فهـذه مؤسسة الأربطـة المغـربيـة التي لها أصـول فارسيـة والتي قامت بدور عظيـم في الدفاع والهجـوم فمنعت السواحل وفتحت الجزر واقتحمت الصحاري ومنها خرج المرابطون مع يوسف بن تاشفين الذين أعادوا مجـد الإسـلام بالأندلس.

الفصل الثاني

هيأة القيادة

كانت تونس في العهد المهلبي عامرة برجال العسكرية أو السياسة أو الإدارة من الإيرانيين. منهم :

1) محمد بن يزيد الفارسي وربما كان هو ابن واقد كان في أول أمره مستشارا للفضل بن روح المهلبي وكان الفضل كثير الاستشارة حتى اضطربت عليه أموره.

قال ابن العذارى : «...فاجتمع الفضل مع بني عمه وخاصته، وتشاور معهم في أمره فاضطرب الأمر عليه، ولم يصح له أمر» وكان ذلك في حرب ابن الجارود مع الفضل بن روح. -

وقال سعيد بن يزيد بن حاتم يحذر الفضل بن روح من محمد بن يزيد الفارسي وهو المسمى بابن واقد على ما يظهر :

ألا قل لفضل إنني لك ناصح	فلا تسمعن مما يشير ابن واقد
فإنك إن تسمع لأقواله تعد	إلى أسد في كبة الخيل لا جد
ستذكر قولي حين ليس بنافع	إذا شقت الأرماح نحر القلائد

قلنا إن محمد بن يزيد الفارسي كان من رجال الفضل بن روح فلما استولى ابن الجارود على القيروان وأخرج منها روحا انضم إليه محمد بن يزيد الفارسي. فلما اضطربت الأحوال سمى هارون الرشيد هرثمة بن أعين عاملا على إفريقية وأرسل معه رجالا من ثقته منهم يقطين بن موسى وكان من كبار جند الخراسانية وكان نفر كبير من جند إفريقية (تونس)

خراسانيين. والجند الخراساني وضباطه هم الذين أيدوا ابن الجارود فتمكن من هزيمة الفضل بن روح الذي كان يؤيده الجند العربي. ويبدو أن روحا لما اجتمع بمستشاريه أشار عليه محمد بن يزيد الفارسي بالاعتماد على الجيش الخراساني فلما نصحه سعيد في قصيدته بمخالفته وبعدم الاستماع إلى نصائحه فكانت الهزيمة على الفضل انضم محمد بن يزيد إلى ابن الجارود. فلما جاء هرثمة وأخرج ابن الجارود إلى بغداد اتفق مع بن يزيد الفارسي على أن يترك ابن الجارود ووعده بالتقدم وقيادة ألف فارس وصلة وقطيعة (أرض) في أي المواضع شاء على شرط أن يفشي حال عبد الله بن الجارود. ففعل. أي أن العملية التي أشار بأن تقع على عهد الفضل وقعت على عهد هرثمة فنصيحته كانت في مكانها ، ولكنه دفع ثمنها غاليا كما سترى ، والمهم أنه كان مستشاراً عارفا بالسياسة والحرب وإحباط المؤامرات. وهكذا سعى في إفساد الخواطر على ابن الجارود واستل منه الجند الخراساني ومن كان معه من أهل خراسان ومن أطاعه.

وتولى محمد بن يزيد الأمر وتناهض هو وابن الجارود للحرب فمكر به ابن الجارود ودعاه إلى الكلام وأمر شجاعا من فرسانه اسمه أبو طالب إذا رآه معه أن يفتك به. فانقض عليه أثناء الحديث وقتله.

فأنشد ابن الجارود في ذلك :

لقد رامني ابن الفارسي بكيده … فوافق أمضى منه عزما وأكيدا
عشية أدعوه ليسمع منطقي … فأعجزه إصدار ما كان أوردا
فداريته حتى اطمأن جنانه … وكنت امرءا مثلي أغار وأنجدا
أسأتم إلى ذي نجدة فانكفا له … بأسمر خطي إذا مال أقصدا
فما زال قاب القوس إلا وعامل … من الرمح دام بين خضنيه قد بدا
فقل للعلاء : قد أصبت محمدا … منية يوم ، فارتقب مثلها غدا

2) عيسى بن موسى الخراساني

في سنة 148 ثار الجند على محمد بن الأشعب والي القيروان والمقصود بالجند — الجند الخراساني — الذي جاء مع ابن أشعب حين ولايته وكان

عـدده 30،000 إلى جانب 10،000 من جند الشام (الحلـة أسيراء لابن الا بار ج 1 ص 69):

ثم اتفق الجند (الخـراساني) على تولية عيسى بن موسى الخـراساني فثـار بالقيـروان وببعض البـلاد الإ فـريقيـة فتغلب عليهـا ببعض العـرب والجنـد ، من غير عهـد من المنصور ولا رضى منـه ، ولا تـراضي من العـامـة ، وذلك في شهـر ربيع الاخـر من عام 148 هـ فكـانت مدته ثلاثة اشهـر.

هذا ما رواه ابن العـذارى (85/1) ولم يروه غيـره على ما نعلـم.

ولا نعلـم هوية عيسى بن موسى الخـراساني سوى أنه من كبار القـواد الخـراسانيين وأنـه كان مقدما عند الجنـد الخـراساني حسبما يبدو من السياق. فهل إنه عربي ومنسوب إلى خراسان بالإ قامة وبولاية الجند أم إنه خراساني لحمـا ودمـا ؟

3) يقطين بن موسى

كان من كبار جند الخـراسانية ، وكان نفـر من جند إفريقيـة خراسانيين ، وكان من قضاة هارون الرشيد أرسلـه مع هرثمـة بن أعين وجماعة من ثقاتـه آخـرين. وهو الذي تولى إقناع ابن الجارود بالعـودة إلى الشـرق . فلمـا تـلكـأ خابر محمـد بن يزيد الفارسي في إفساد أنصاره والجند الخـراساني الذي كان يناصره عليه وإقصائـه عنـه.

كان يقطين بن موسى داهية وسيوسيا ورئيسا من جند الخـراسانيـة. وإليـه يـرجع الفضل في تصفيـة ثورة ابن الجارود.

4) فـلاح بن عبد الـرحمـان الـكـلاعي

ثار بتـونس في عهـد محمـد بن مقاتل العـكـي والي المغـرب وأخي هارون الـرشيـد من الـرضاع فقـدم محمـد بن مقاتـل العكـي مولاه الخصيب لحرب محمـد بن مـرة فصبح القـوم آمن ما كانوا وهم 500 من أهل خراسان والشام. فقتل محمـد بن مرة أميـرهم وعدة ممن كان معـه.

وانهزم أصحابه إلى تونس ومر الخصيب بمنزل فلاح فأحرقه. وأخذ امرأته وقال في ذلك شعرا :

لو كنت حرا يا فلاح صبرت لي وحميت عرسك ، والفتى يحمي
لكن هربت من القراع وأسلمت كفاك حرمتها على الرغم
ما النجم أبعد منك لو طالبته لتناله بيديك من سلمي

وزيادة للتوضيح يحسن أن نذكر ما أورده النويري في نهاية الأرب في نفس الموضوع وقد جعله الدكتور حسين مؤنس تعليقا على ما كتب ابن الأبار في الحلة السيراء :

« ولما كتب هرثمة إلى هارون يسأله الإعفاء وجه محمد ابن مقاتل أمير اللمغرب. وكان رضيع هارون فقدم القيروان في شهر رمضان سنة 181. ولم يكن بالمحمود السيرة. فاضطربت عليه أحواله واختلفت جنده وكان سبب الاضطراب عليه أنه اقتطع من أرزاق الجند وأساء السيرة فيهم وفي الرعية. فقام فلاح بن عبد الرحمان الكلاعي القائد ومشى في أهل الشام وخراسان وخرج عليه تمام بن تميم التميمي وكان عامله على تونس. فبايعه جماعة من القواد وأهل الشام واهل خراسان. فخرج في النصف من شهر رمضان سنة 183 إلى القيروان وخرج إليهابن العكي إلخ... »

الفصل الثالث

الجيوش الإيرانية

الجيش الخراساني

هذا الجيش قادم من خراسان مع الولاة ، بعضه ايراني اصلا وبعضه عربي مستعجم لطول المقام والمربى كما يقول ابن خلدون . وعدد هذا الجيش في الغالب ثلاثون الفا وليس بالقليل وقواده من الخراسانيين ومن العرب وهذا الجيش مصحوب بعائلاته فهناك في الحقيقة ثلاثون الف عائلة خراسانية منتشرة بتونس وهذا يدلنا على مبلغ التأثير الحضري . وقد قام هذا الجيش في غالب الاحيان بتوطيد الامن وقمع الخوارج وحراسة الثغور وإخماد الانتفاضات المحلية .

وهو مركب من مشاة (بيادي) ومن فرسان (اساورة) ومن اعوان مواصلات (سيارون) وهذه مؤسسة كبيرة معروفة في المغرب ينتخب لها العداؤون ويتناقلون مرحلة مرحلة وفق مسالك معينة فيصلون في اقرب الآجال وقد جاءت المؤسسة من المشرق من عهود قديمة ونحن نجد حتى اسماء اعلام بعنوان سيار (نصر بن سيار) ونجد آثار ذلك في مكان بتونس يسمى (ساباط السيارة) امام دار الامير الحسيني علي باي وهو في القديم من قصور المراديين وامامه قصور مرادية اخرى . والساباط فيه دكاكين (مصاطب مبنية) ومخازن لخيول البريد وهو قريب من الباب الغربي ومن القصبة فاذا احتاج الأمير الى ارسال سيار او اقتبال سيار فساباط السيارة هو المكان المعين وهذا اسمه الى الآن. ودخلت الكلمة الامثال . فاذا كان انسان يذهب ويجيء دواليك في حالة ارتباك يقال له : اشبيك باقي (دائما) سيار ميار ؟

السباهي

أي الجند او الجندرمة (الدرك) الراكب على الخيول، دخل تونس في هذا العصر المتحدث عنه وانقسم الى:

1) قسم قضائي: ويسمى سباهي قاضي أي جندرمة القضاة، وآل الى سبي قاضي وبقي معروفا فياللهجة التونسية وان كان انعدم في المؤسسة. ويغلب على الظن انه زال مع الاتراك وبقيت العبارة التونسية: «اش بيك باش تجيب لي سبى قاضي؟» ما دهاك هل تريد ان تاتيني بسبى قاضي أي عون جبر؟ فكان في العصور القديمة عونا من اعوان القضاء الشرعي راكبا على حصان لتسهيل ماموريته في الجلب والتبليغ.

2) قسم اداري : لدى الولاة ومن دونهم. وبقي على حاله الا ان اللفظ تغير الى صبائحي جمعه صبائحية او مخازني من المخزن وهو الادارة الادارية الداخلية. فلما جاء الفرنسيون سموه Spahis فصاريسمى سباييس.

3) قسم عدلي: تابع لوزارة العدل التونسية يتولى داخل الوزارة والمحاكم عمل الحجاب والدرك وهولا يزال موجودا بقسميه الاخيرين.

ودخل جند السباهي الحكومة العثمانية في القرن الرابع عشر الميلادي وهو نوع من الفروسية الخفيفة. وبقي هناك على هامش الجيش النظامي الى سنة 1826 . وعندما استولت فرنسا على الجزائر سنة 1831 وخلال حروب التحرير المتعاقبة مع ابطال الجزائر الفت فرقا من السباهي.

الجندار

فرقة من الدرك وجدت في الديار المغربية في العهد الموحدي اوقبله بقليل، ولعلها عند ظهوربني غانية وقراقش. وبقيت من الاسم عائلة بوجندار بالمغرب الأقصى وهي عائلة علم وأدب .

فهذه هي التاثيرات العسكرية يضاف اليها المعلومات العسكرية التي أخذها التونسيون من فن العسكرية وعلومها التكتيكية والتدريبية.

البابُ الرّابع

العُلوم

الفصل الأول

فذلكة تاريخية

إيران من الشعوب ذات المجد العلمي منذ أوائل ظهورها على مسرح التاريخ. ذلك للأسباب الآتية :

أولا : الإيرانيون كشعب آري ذوو فكر رياضي منتج للقضايا العلمية. وكشعب من أرومة جرمانية أوروبية فهو تأملي أي شاعر ومتصوف وفني في الآن الواحد.

ثانيا : إذا كان ما ذكرناه أعلاه هو تحليل لأسباب النبوغ الإيراني العجيب فإن جارات إيران أمم عظيمة القدر من ناحية العلوم والآداب والفنون. الهند من الجنوب والصين من الشرق ، وأشور من الغرب والفينيقيون الذين يرتادون خليج العجم (العرب) في الجنوب الغربي. وقد امتزجت إيران عمليا بهذه الشعوب واتصلت بعلومها وآدابها وفنونها.

ثالثا : نزعة إيرانية واضحة منذ قورش إن لم تكن قبله وفي عهد الدولة الساسانية إلى تأسيس إمبراطورية كبرى والإمبراطورية تقتضي دولة سياسية ودولة عسكر ودولة علوم وآداب وفنون. فجمعت إيران تلك الدول خلال تاريخها الخسرواني ونشرتها في شعبها وفي الشعوب التي في جوارها. وحتى في الشعوب التي غزتها مثل اليونان حينما اكتسح الإسكندر المقدوني تربة إيران في القرن الرابع قبل الميلاد ففتح ما فتح عسكريا. ولكنه فتح حضريا وعلميا وأدبيا وفنيا وتقنيا ، فقد رجع بحصيلة عظيمة جدا كانت سببا رئيسيا في نهضة اليونان وكانت لها انعكاسات في الشعوب المتصلة بها :

1) فقد تهلّنت الحضارة القرطاجنية منذ القرن الرابع قبل الميلاد ،

فجاءها – مثلا – الغضار المزخرف بالسواد. وكان ذلك مواكباً لفتوحات الإسكندر بإيران.

2) تأسيس الإسكندرية وظهور دولة البطالسة وتأسيس المكتبة وإشعاع دولة العلوم والآداب والفنون الإسكندرانية.

3) ظهور دولة البطوسيين Battides بالشحات Cyrène في ليبيا وجامعتها ومعالمها العجيبة في النحت (الجميلات الثلاث) والتصوير والمعالم والمعمار والتمصير والعلوم والآداب والفنون، ويحدثنا التاريخ أن الإسكندر رجع بماثورات حضرية عجيبة مما أنجبه الإيرانيون أصالة أو مما أنتجوه بعد اتصالهم ثم امتزاجهم بالهنود والحضارة الهندية وما ولدته من فلسفات وتصوفيات وعلميات وأدبيات وفنيات وتقنيات. وبخاصة ما أنتجوه بعد اتصالهمبالأشوريين إثر فتح قورش لمدينة بابل ومعاملتهم للمغلوبين تلك المعاملة المتسامحة المتحببة الغريبة التي جعلته وقومه وعلى التوالي يقتبسون حضريات أشور ويهضمونها ويضيفونها إلى ما اقتبسوه من حضارات الهند والصين والأناضول واليمن.

فما جاء العهد الساساني إلا وإيران شركة توزيع حضري كبرى انتفع بها الشرق الأوسط والرومان ومصر والمغرب. فمحاولة احتلال الرومان لإيران طبعة ثانية لغزوات الإسكندر فالفاتح العسكري مفتوح حضري.

وانتفع العرب أنفسهم والمسلمون من هذه الصيغة الطيبة. فالمسلمون بعد فتحهم للمعسكرين العظيمين والعملاقين الرهيبين وبعد تأسيسهم لدولة العلوم الإسلامية التي شارك فيها الأعاجم بنصيب وافر وجدوا علوما غزيرة فلسفية وتصوفية ورياضية وحسابية وهندسية وفلكية وطبية وزراعية. ووجدوا آداباً ليست كآدابهم ومكملة لآدابهم. ووجدوا فنوناً غزيرة وعلموا أنه لا يبنى ملك على جهل واقلال فأمروا – منذ عهد الدولة الأموية وإلى عصر المأمون العباسي – بترجمة جميع الكتب الهندية والإيرانية والأشورية واليونانية واللاطينية والبربرية والبونيقية والعبرانية. فترجموا في مرحلة أولى، في ترجمة أو ترجمات. وفي

مرحلة ثانية هذبت وزاد تعريبها. فجاومطريا صارت هندسة، وأسطرونوميا صارت فلكا وارتماطيقي صارت رياضيات وبويطيقي صارت شعرا وهلم جرا. وفي مرحلة ثالثة شرحوا هذه الكتب. وفي مرحلة رابعة ألفوا كتبا من وضعهم. وفي مرحلة خامسة أضافوا إلى العلوم علوما جديدة وإلى الاداب أدابا جديدة وإلى الفنون فنونا جديدة. وفي مرحلة سادسة ألفوا الموسوعات التي جمعوا فيها علوم الأمم وأدابهم وفنونهم. وفي مرحلة سابعة ترجموا هم أنفسهم هذا التراث العقلي إلى اللاطينية وكونوا طبقات من المترجمين الإيطاليين والإسبانيين فنقلوا هذه الماثورات إلى أوروبا بواسطة مدرسة سالرن وجبل كسينو وكريمونة في إيطاليا وطليطلة Tolédo وقرطبة في الأندلس. فتحولت دولة العلم الإسلامية إلى نهضة العلم والأداب والفنون والتقنية في أوروبا التي نتج عنها هذا الرقي الأوروبي الذي نقف مندهشين أمامه.

وبالحقيقة فإن المحور الكبير المشرق المغرب الذي سميناه محور إيران قرطاجنة تارة يفيد الغرب من علوم الشرق : إيران وأشور وقرطاجنة البونيقية والشحات ومصر، ثم يأتي عقبه دور تفيد فيه علوم اليونان والرومان المقتبسة من الشرق الأمم الشرقية نفسها كما حدث في عهد الأمويين والعباسيين كما رأينا ذلك أعلاه. وتارة تنتقل علوم المسلمين إلى أوروبا كما حدث منذ مدرسة سالرن وطليطلة وقرطبة. وقد جاء دور نهضتنا فها نحن نحتفل بدولة من دول العلم التي أفادت العالم بعلومها على عهد اليونان والرومان والعرب. وأفادت الإسلام من علومها طوال السيادة الإسلامية. وهاهي تتحفز مع بقية الدول الإسلامية والشرقية والإفريقية لتبوأ مقعدها من شمس العلوم كما كانت على وجه الدهر؟

ونتساءل كيف انتقلت دولة العلوم في مرحلتها الأولى من إيران إلى قرطاجنة البونيقية ؟

كيف كانت مكتبة قرطاجنة البونيقية التي وزعها الرومان على أمراء البربر سنة 46 ق.م أو بددوها.

ما هي تلك الكتب وما كانت تحويه؟ فالجواب عن السؤال متوقف عن السؤال الثاني الذي لا جواب عنه إلا أن تظهر كتب خفية لا نعلمها مدفونة في خرائب قرطاجنة.

ومهما يكن من الأمر فنحن نعلم أن الرومانيين أصدروا مرسوما من مجلس شيوخهم في الإحتفاظ بكتاب واحد من محتويات مكتبة قرطاجنة البونيقية وهو الموسوعة الزراعية لماغون القرطاجني، ويقتضي المرسوم المذكور نقلها من اللغة البونيقية إلى اللغة اللاطينية. وقد بلغتنا فقرات طيبة منها نعلم باختبارها أنها في مستوى علمي رفيع فهي تصنف التربة وتصنف الأسمدة وتتحدث عن النباتات من اعداد الأرض إلى البذر إلى التنقية إلى الحصاد. والعناية بصحة النباتات وعلاجها من الآفات وزبرها وتأبيرها وتطعيمها وتصبيرها وإيجاد صناعة زراعية من اعتصار وتخمير وتقطير.

ويصعب على الذهن من أجل ما ذكرنا أن يكون ماغون هو الأول في استنباط هذه العلوم .فإذا كان هو الأول في وضع موسوعة زراعية لا يصح أنه الأول في تقرير جميع أصول الفلاحة.

ونعلم من ناحية ثانية أنه لم يأخذ أصول الفلاحة من كتب يونانية ولاطينية لأن اليونان (كاستوس) والرومان (كولوملس، قاطون، فلينوس) قد حشوا كتبهم الزراعية بما نقلوه عن ماغون.

ونعلم من ناحية ثالثة أن الفينيقيين جلبوا المزروعات من إيران ومن أشور ومن الأردن. فإذا كانت كتب قد استقى منها ماغون فهي كتب إيرانية أو أشورية كانت في مكتبة قرطاجنة البونيقية ولم تصلنا.

واعتمادا على ماسلف بيانه نفترض أن كتبا زراعية إيرانية كانت بمكتبة قرطاجنة وفقا للمعطيات والاستنتاجات السالفة. وهذا ما أردنا الحجاج عليه كما يقول ابن خلدون.

وبالتالي فإذا كانت هناك كتب زراعية فمن باب أولى أن تكون هناك كتب رياضية وهندسية وغيرها.

ومن سوء الحظ أن العرب لم يجدوا من مكتبة قرطاجنة إلا كتاب

ماغون فنقلوه من اللاطينية إلى العربية ويغلب على الظن أن نقله كان ببيت الحكمة بالقيروان. واعتمده الزراعي الأندلسي ابن العوام وغيره من الزراعيين ويسميه ماغوش.

هذا فيما يخص المرحلة العلمية الإيرانية الأولى التي نقل مأثوراتها الإسكندر إلى بلاد اليونان والتي ربما كانت فيها كتب زراعية ترجمت إلى البونيقية. ويجوز جدا أن البونيقيين لم ينتظروا عهد الإسكندر لاقتباس هذه الكتب وترجمتها.

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الكتب الساسانية.

فقد نقل ابن خلدون – ونقلنا عنه في غير هذا المكان – أن الفاتحين المسلمين وجدوا كتبا عظيمة عند الساسانيين وروى ابن خلدون أن سعد بن أبي وقاص كاتب عمر بن الخطاب في ذلك فأمر بطرحها. وهذه أسطورة كأسطورة مكتبة الإسكندرية بدليل أن الفهرست لابن النديم مليء امتلاء عظيما بالكتب التي ترجمت من الفهلوية أي الفارسية القديمة ، فإذا كانت المكتبة الساسانية قد طرحت فمن أين وجد التراجمة النصوص لنقلها إلى العربية ؟

وكيف وصلنا من ابن المقفع آيينامة وكليلة ودمنة ومن أين وصلنا كليلة ودمنة وتلك المجموعة العجيبة من الكتب التي ترجمت عن الفارسية.

ولا شك أن معظم الكتب قد وصل القيروان وتونس وغيرهما من العواصم الثقافية بالديار الإفريقية. والكتب تصلنا :

أولا : عن طريق الحج. فالحاج ينسخ كتبا نادرة أو حديثة الظهور وينقلها إلى الحرمين الشريفين بدون أي يخشى سرقة مخطوطاتها.. من هو اللص الأبله الذي يسرق كتب الحجيج ؟! ثم أن الحاج يبيعها هناك فيكسب فيها كثيرا ويشتري مخطوطات ظهرت حديثا في سوق الحج فيكسب كثيرا عند الرجوع والمثل التونسي يقول « منو حج منو حاجة ».

ثانيا : عن طريق الرهادرة وقد بينا ذلك في غضون هذا السفر.

ثالثا : عن طريق الإسكندرية صفاقس البحري الذي هو طريق الكتب والأغاني.

ونحن نعلم أن مكتبة الجامع الأعظم بالقيروان كانت مكتبة مستوعبة. وأن مكتبة بيت الحكمة إلى جوار الجامع كانت مكتبة دراسة شاملة ، ونعلم أن طلبة العلم يذهبون إلى المشرق ويرجعون بكتب يدخلونها لأول مرة. فمنذ القرن الأول للهجرة والكتب تدفق على تونس ، وفي القرن الثاني ثم الثالث كانت الدواوين وكتب اللغة والأدب.

الفصل الثاني

العلوم الدينية

التفسير

واضع التفسير الأول هو عبد الله بن العباس المفسر المحدث المجاهد الذي أخوه معبد بن العباس مات مجاهدا بباجة سنة 34 ودفن بها وقبره معروف إلى الآن. وعبد الله بن عباس هو أحد العبادلة السبعة الذين فتحوا سبيطلة بالجنوب الغربي التونسي سنة 27 هـ وغلبوا بطريق الروم غريغوريوس المعروف بجرجير. ففتحوا تونس (إفريقية). فهو أول إفريقي خطيب ومحدث ومفسر وبقي جدث أخيه موجودا في البلاد.

وتولى علماء هراة بإيران نقل تفسير عبد الله بن عباس ، فهو يبدأ هكذا : «..أخبرنا عبد الله الثقة بن المأمون الهروي... قال أخبرنا أبي ، قال أخبرنا أبو عبد الله محمود بن محمد الرازي ، قال أخبرنا عمار بن عبد المجيد الهروي ، قال أخبرنا علي بن إسحاق السمرقندي عن محمد بن مروان الكلبي عن أبي صالح بن عباس قال.... »

فالرواية إيرانية إذن. واتصالنا بهذا التفسير الذي وضعه فاتح تونس هو عن رواة إيرانيين من هراة وسمرقند والرى (الرازي).

الطبري : هو تفسير كبير وضعه أبو جرير الطبري ويسمى « جامع البيان » جمع فيه أقوال الصحابة والتابعين وهو مطول في 31 مجلدا ، وهو معتمد عند التونسيين منذ قديم وقلما تخلو منه خزانة . ويحبه التونسيون لإسهابه ولأنه مشتمل على فوائد تاريخية وأدبية ولغوية فضلا عن التفسير البحت ولأن صاحبه يرجح بعض الأفكار والنظريات. وقد تحدثنا عن الطبري في باب التاريخ.

توفي أبو جرير سنة 310 هـ. في أوائل أيام الفاطميين وقد عاش معظم العصر الأغلبي فمنذ العصر الأغلبي وهلم إلى الان والناس يستعملون تفسير الطبري مع تفسير ابن عباس ويحيى بن سلام القيرواني وابن عمار المهدوي إلخ ...

ولعل الناس مالوا أكثر في الزمان الصنهاجي إلى تفسير ابن عمار المهدوي وفي العهد الحفصي إلى تفسير ابن عرفة والمسيلي التونسي والثعالبي الجزائري. وفي العصر الحسيني إلى تفسير الشيخ زيتونة المنستيري.

الزمخشري : وقد رأينا في باب آخر اعتماد التونسيين على تفسير الزمخشري مع الاحتياط لما فيه من الاعتزال ، وقد ذكرنا ذلك في غير هذا المكان وأوردنا ما قاله ابن خلدون في هذا الشأن.

عبد الله البيضاوي : من مدينة بيضاء بإيران ولي قضاء شيراز ثم تبريز. توفي سنة 685 له : أنوار التنزيل وأسرار التأويل. بناه على الكشاف للزمخشري وغيره وهو متداول عند التونسيين كثيرا ويرجعون إليه في الغالب وشرحه كثيرون نحو الأربعين.
(أنظر السبكي : طبقات الشافعية 19/5 ;Brokelmann 1/146. Enc. de l'Islam - S. V)

الفخر الرازي: ومن المفسرين الإيرانيين الذين يهتم بهم التونسيون كثيرا فخر الدين الرازي الطبرستاني. ولد بالري من أعمال فارس ورحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان. توفي بهراة سنة 1210/606.

له «مفاتيح الغيب» في ثمانية مجلدات. وقد طبع تفسيره بمصر سنة 1289 وفي الأستانة سنة 1357 . وله أيضا « تاريخ الدول » إن صحت نسبته إليه وفيه تاريخ الفاطميين . أما تفسيره هذا فقلما تخلو منه مكتبة عامة أو خاصة بتونس تحترم نفسها.

(أنظر عنه : عمر كحالة : معجم المؤلفين ج 11 ص 79 وما بعدها)

الحديث

رواة الحديث الستة من الإيرانيين.

1) الإمام البخاري صاحب الصحيح من بخارى توفي سنة 265 على عهد الأغالبة وهو المعتمد بتونس على عهد الأغالبة ثم على عهد

الحفصيين ثم الأتراك إلى الآن. ويقرأ بجامع الزيتونة ويختم في رمضان وتبنى على أحاديثه أختام الجوامع الأخرى والزوايا وحتى البيوت الخاصة في حفلات مسائية: شوال رمضان تشد لها رحلات وتكون محاضرات شيقة تختتم بأشعار ريقة ويقرأ البخاري للاستسقاء بمصلى العيدين بالمنوبية من جنوبي تونس ويحلف عليه الناس وتحلف به النساء. « والشفا والبخاري اللي نزل على قلب النبي »

ويعتني الناس بتزويق البخاري فمخطوطاته التونسية اية من آيات زخرف الكتب ويتأنقون في تجويده بالصوت الحسن وهنالك أوقاف على قراءة البخاري في الجوامع والزوايا ويقرأ البخاري على الماء ويشربه المرضى فيشفون بإذن الله تعالى. وقد شرح البخاري القسطلانيون وهم من الجريد التونسي. (قسطلية بالجنوب الغربي)

2) مسلم القشيري النيسابوري توفي سنة 261 كان معتمدا بتونس على عهد الفاطميين والصنهاجيين واعتنى به علامة المنستير الإمام عبد الله المازري (من مدينة مازرة بصقلية) فشرحه شرحا علميا مطولاسماه المعلم بشرح مسلم. كما تعقب عليه القاضي عياض السبتي الذي أحفاده بتونس. وتعقب على الكل الإمام الأبي التونسي في أطول شرح على مسلم. وهو تحرير الفائدة والإمام الأبي من أبة كسور قرب مدينة الكاف في الشمال الغربي التونسي.

وأما بقية جماع الحديث. الستة فهم أيضا من إيران :

3) ابن ماجه القزويني (273)

4) أبو داود السجستاني (275)

5) محمد الترمذي الضرير صاحب السنن توفي سنة 279

6) النسائي من مدينة نسا في إيران توفي سنة 303 له كتاب السنن.

الملل والنحل

لأول مرة في تاريخ البشر يكتب المسلمون في تاريخ الأديان والعقائد فيصفون الأديان كظاهرة عقائدية لدى ملة من الملل ويبحثونها

من حيث عقيدتها ومحال عبادتها ويدرسون المذاهب المتولدة منها. أو هم يأخذون دينا من الأديان ويدرسون مذاهبه بالتفصيل. وأول من فعل ذلك هو : عيسى بن مسكين القيرواني المتوفي سنة 295. فقد ألف رسالة في سبعين ورقة موجودة بمكتبة جامع عقبة بالقيروان كل ورقة بمذهب من المذاهب والنحل الإسلامية السبعين فوجهها فيه بيان المذهب على رأي أصحابه وظهرها فيه بيان المذهب على رأي عيسى بن مسكين:

ثم جاء ابن النديم صاحب « الفهرست » فبين الأديان والشرائع وأصولها ورجالها والكتب المؤلفة فيها.

ثم جاء ابن حزم الظاهري المتوفي سنة 456 هـ. وألف كتاب الفصل بين الفصل وهو من أجل الكتب في الموضوع وقد ترجم إلى الإسبانية.

ثم جاء الشهرستاني أبو الفتح محمد المتوفي سنة 548 هـ له كتاب الملل والنحل ط. في لندرة سنة 1865 وفي مصر سنة 1261 وعلى هامش بين الفصل الفصل لابن حزم ونقل إلى الألمانية والتركية والفارسية. والذي يعنينا منه :
أولا : حديثه عن علماء صقلية من اليونانيين باعتبار صقلية يومئذ تابعة لتونس:
ثانيا : حديثه المطول عن مدرسة الشحات (قورينا Cyrene في برقة Cyrenaïque ليبيا) وما هو مذهبها العلمي والفلسفي ومن هم علماؤها.
ثالثا : بسط القول في المذاهب الناجمة في المغرب. على أن أقدم من كتب في الموضوع بوجه عام هو عيسى بن مسكين ففي هذه المرة سبق التونسي أخاه الإيراني لكن دراسات الشهرستاني أهم، ومنذ وجد كتابه لا يزال مرجعا لتاريخ الفكر البشري.

الفقه

كان الكثيرون من فقهاء الطبقة الخامسة بالقيروان من الإيرانيين. نذكر منهم :

1) عبد الله بن فروخ (وفروخ معناه السعيد) الفارسي. فقيه القيروان كان إماما محدثا ثقة وأمينا. رحل إلى المشرق ولقي أعلاما ولقي زفر

بمجلس أبي حنيفة فغلبه. روى عنه مسلم بن الحجاج وغيره. ولي قضاء القيروان وأخذ عنه قيدوم المفسرين يحيى بن سلام القيرواني. وذهب إلى المشرق ثانية. ولد سنة 110 وتوفي بمصر عند رجوعه من الحج سنة 176 هـ ودفن بالمقطم. وأسف عليه علماء عصره منهم ابن وهب وغيره.

2) سقلاب بن زياد الهمذاني القيرواني كان إماما فقيها من أهل الفضل والعبادة والاجتهاد: سمع من مالك وغيره. وقرأ على نافع توفي سنة 193

3) أسد بن الفرات أصله من نيسابور. قدم به أبوه صغيرا مع الوالي محمد بن الأشعث.

4) عباس بن أبي الوليد الفارسي التونسي. كان إماما ثقة أمينا حافظا للحديث. رحل مع أسد بن الفرات إلى الشرق في طلب العلم فلقي مالكا والكثير من المحدثين.

وفي الطبقة السادسة من فقهاء المالكية اشتهر بتونس من الإيرانيين الأصليين :

القاضي أبو مهدي عيسى بن مسكين بن منظور الإفريقي. أصله من العجم. كان ثقة أمينا فاضلا. ولد سنة 214 توفي سنة 295 وقبره بقريته المعروفة بمسجد عيسى على نحو 10 كلم في الطريق بين سوسة والمهدية. كان فقيها ومرابطا وقاضيا. وكان يرابط بقصر الطوب المسمى الآن سيدي عبد الحميد قرب سوسة على البحر وبرباط قريته التي هي مسجد عيسى. ولما مر المنصور الفاطمي بقرية مسجد عيسى صلى بمسجده ركعتين وأوصى العامل (الوالي) بحفظ القرية.

الف كتبا كثيرة وعجيبة منها « اداب الوكيل » وهي اول كتاب في الاسلام والاداب العالمية في اصول مهنة الوكيل (المحامي — الافوكات) قرر قانونها الاساسي واصولها وجزئياتها ونحن لا نزال في القرن الثالث الهجري.

أخوه محمد بن مسكين. كان من العلماء الفضلاء ولد سنة 217 وتوفي سنة 297.

ومن رجال الطبقة السابعة من الفقهاء التونسيين الذين أصلهم إيراني :

أبو جعفر أحمد بن أحمد بن زياد الفارسي القيرواني. ولد سنة 234 وتوفي سنة 319 كان فقيها إماما نظارا ثقة أمينا صحب القاضي ابن مسكين وكان يكتب له السجلات. كان عالما بالوثائق وله من الكتب :

1) كتاب الوثائق عشرة أجزاء.
2) كتاب أحكام القرآن. عشرة أجزاء.
3) كتاب مواقيت الصلاة.

محمد بن عثمان الخراساني وهو فقيه قيرواني وصاحب وثائق ، كان يذهب مذهب أهل الكوفة، ولم يكن ممن يقول بخلق القرآن وله سماع بمصر من يونس بن عبد الأعلى توفي سنة 318.

ومن نقهاء القيروان المالكيين والمحدثين الذين ذهبوا إلى إيران فأخذوا عن علمائها أبو الحسن القابسي الإمام في علم الحديث وفنونه وأسانيده. كان أعمى لا يرى شيئا وهو مع ذلك من أصح الناس كتبا وأجودهم ضبطا وتقييدا. رحل سنة 352 فحج وأخذ عن القاضي التستري وأبي زيد المروزي ومحمد الجرجاني روى عنهم صحيح البخاري، وهم رووه عن الإمام الفربري عن البخاري نفسه وهو أول من ادخل رواية البخاري إفريقية (الجمهورية التونسية) : (أنظر سنده في أوائل «فتح الباري») وروى سنن النسائي عن حمزة بن محمد المذكور.

وله تآليف كثيرة من أهمها كتاب آداب المعلمين وهو من كتب البيداغوجيا شرح وطبع بمصر.

ولد سنة 324 وتوفي بالقيروان سنة 413 وهو ابن خالة عبد الله بن أبي زيد القيرواني ومحرز بن خلف. دفن بباب تونس بالقيروان قرب بركة الأغالبة وضريحه معروف هنالك مزار.

ومن الأدباء والعلماء والمحدثين الذين أخذوا بإيران. أبو عمرو بن أبي بكر بن حمود الصدفي الصفاقسي (المعروف بابن الضابط).

كان إمام المحدثين حافظا للحديث متفننا في علومه متقنا لها ، عارفا باللغة والإعراب والأدب مشهورا بالفضل والدراية. كانت له رواية واسعة ومعه كتب كثيرة قد رواها بالعراق والشام والحجاز ومصر.

تعلم أولا بمسقط رأسه صفاقس. ثانيا بإيران فكانت له رحلة إلى المشرق. وأخذ فيها عن جماعة يطول تعدادهم، منهم الحافظ أبو نعيم ، صحبه بإصبهان ، وكتب عنه كثيرا. ذكر أنه كتب عنه بخطه مائة ألف حديث. وكان يقول : « لم ألق مثل ابي نعيم علما وعملا». ثالثا : بمصر والشام والعراق والحجاز. وأخذ بالشرق أيضا عن علماء مصر والشام والعراق والحجاز وكانت له رواية واسعة عمن لقيه هناك من الرجال ومعه كتب كثيرة قد رواها عن أساطين تلك الأقطار. رابعا : أنه قدم الأندلس فقرأ بها وأسمع بها الناس وكان دخوله الأندلس سنة 436 هـ. فأقرأ بها وأخذ عنه علماؤها واثنوا عليه وعاد منها إلى القيروان سنة 438.

قال أبو عمر بن الحذاء في تسمية رجاله الذين التقى بهم فقال : « قدم علينا طليطلة وسنه نحو الخمسين وكانت له رواية واسعة ومعه كتب كثيرة.... ونجول عندنا بالأندلس نحو عامين ثم انصرف إلى القيروان.» وذكره المؤرخ الحميدي فقال : « قرأت عليه كثيرا وكتبت عنه ». وذكره أبو القاسم بن بشكوال في كتابه الصلة فأثنى عليه وأخبر عنه أنه قال :

« بعث إلي شعراء القيروان حين مقامي بها منهم ابن رشيق وابن شرف وابن حجاج والعطار يسألونني أن أرسل إليهم بشعري. فقلت للرسول : إنه في مسوداته. فقال : أحمله كما هو. فأخذته وكتبت عليه ارتجالا ثم بعثت به :

خطبت بناتي ، فأرسلتهن إليك عواطل من كل زينه
لتعلم أني ممن يجود بمحض الوداد ، وليس ضنينه

قــال : فأجابـوني عن بطء بهـذه الأبيـات :

أتتنـا بنـاتـك يـرفلـن فـي ثيـاب مـن الـوشـي يفتـن زينـه
فلما سفـرن فضحـن الشمـوس وسـرب الظبـاء ، وأخجلن عينـه
ولمـا نـطقـن سحـرن العقـول وظـل القـريـن ينـادي قـرينـه
أفي بابل نحن أم فـي العـراق وفـوق البسيطـة أم فـي سفينـة
فـدعني أراقـب ضـوء الجميع لنسمع مـن كـل مـدح عيـونـه

ومن جهـة أخـرى فقـد أدخـل أبـو عمرو هذا عثمان ابن الضابط الصفـاقسي إلى الانـدلس كتـاب "غريب الحديث" للخطابـي . وله جزء تضمن عـوالي كتبها لأبـي محمد عبد الرحمان الخطابـي ، تعرف بعـوالي الصفـاقســي .

الفصل الثالث

التاريخ والجغرافيا

التاريخ

كما اعتنى ابن خلدون بتاريخ إيران اعتنى الإيرانيون بتاريخ تونس. في مقدمتهم :

أ) ابن جرير الطبري من مدينة آمل بطبرستان. واكب الدولة الأغلبية ولد سنة 224 وتوفي سنة 310 بعد انتهاء الدولة الأغلبية بأربعة عشرة سنة وهو من أطول من تحدث عن المهلبيين والأغالبة.

ب) البلاذري : توفي 279 وهو اعتنى على الأكثر بالغزوات والفتوحات.

وله أيضا أنساب الأشراف – مطول – يوجد منه جزء وهذا يهمنا أيضا. لأن الكثيرين من سكان القيروان وتونس في العهد الأغلبي من الأشراف.

ج) اليعقوبي : توفي سنة 278 وكان مؤرخا وجغرافيا وكان من موالي المنصور العباسي. زار تونس وأطنب في الحديث عن جغرافية تونس الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية على عهد الأغالبة ووصفها وصفا دقيقا. فمكننا بكثير من المعلومات عن المجتمع الأغلبي الذي عرفه عن كثب.

د) ابن خلكان : توفي سنة 681 من بيت كبير في العراق ينتسب إلى البرامكة له « وفيات الأعيان » ترجم فيه ترجمات ضافية لكثير من التونسيين:

الجغرافيا

أ) اليعقوبي : وقد ذكرناه في المؤرخين

ب) البلخي أبو زيد له كتاب صور الأقاليم. توفي سنة 322 فهو مشارك بين الأغالبة والفاطميين.

ج) ابن خرداذبه : يهمنا ابن خرداذبه كموسيقار فقد ألف في الملاهي والشراب. ويهمنا أيضا كجغرافي. فله كتاب المسالك والممالك الذي هو مصدر ثري عن أحوال الممالك الإسلامية في عصره. لا سيما من حيث جبايتها في أواسط القرن الثالث أي على عهد الأغالبة (طبع ضمن المكتبة الجغرافية)

د) أحمد بن رسته : له كتاب الأعلاق النفيسة موسوعة في سبعة مجلدات في تقويم البلدان . طبع جزء منها ضمن المكتبة الجغرافية.

هـ) زكرياء القزويني توفي سنة 682 له كتاب عجائب المخلوقات وهو في الفلك والجغرافية الطبيعية والنبات والحيوان. مشهور جدا ومتداول عند التونسيين مخطوطا ومطبوعا.

و) السائح الهروي : توفي سة 611 هـ هو أبو الحسن علي بن أبي بكر ابن علي الهروي الأصل لكنه ولد في الموصل. طاف البلاد وأكثر من الزيارات. قال زيدان : «لم يترك برا ولا بحرا أو سهلا أو جبلا يزار إلا قصده ولم يصل موضعا إلا كتب خطه في حائطه» وذكر ابن خلكان في ترجمته أنه شاهد ذلك في البلاد التي رآها حتى صار مضربا للأمثال .

له «الإشارات إلى معرفة الزيارات.» تحدث فيه بأطناب عن مزارات صقلية الإسلامية وتونس فأفاد فوائد يعز وجودها في غيره. إنما اختلط على الناشر بين أطرابنش بصقلية وطرابلس في المغرب الشرقي. فليحرر.

(انظر ترجمته في ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب.)

ز) ناصر الدين خسرو: صاحب السفر نامة وقد تحدثنا عنه في غير هذا المكان.

الفصل الرابع

العلوم الحسابية

الترسل

تأثر الترسل التونسي بابن العميد الخراساني وأبي بكر الخوارزمي والصاحب بن عباد وبديع الزمان الهمذاني. ومن شاء معرفة ذلك فليراجع زهر الآداب للحصري القيرواني.

المقامات

نشأت المقامات بالمشرق واشتهر بها بديع الزمان الهمذاني وأبو القاسم الحريري وهي عندنا أصل الأقصوصة العربية (la nouvelle) وهي القصة الصغيرة أي وصف دقيق نقدي تهكمي إلى حد ما بشخصيات المجتمع من الأمير إلى اللص الأديب. ووصف للمجتمع الحي بدياره (المقامة المضيرية) وأثاثه (المضيرية) وشخصية حديث النعمة إلخ.

وقد أخذ المقامة بتونس ابن رشيق وابن شرف وجعلاها قصة مطولة خيالية استعراضية للنقد الأدبي وأخذ الاستجوابات من الأدباء الأموات مما جاء على غراره فيما بعد دانتي اليغيري الإيطالي. ومما صنعه أبو العلاء المعري في رسالة الغفران (انظر رسائل البلغاء لكرد علي).

ولا تزال المقامات من الكتب التي يحفظها المتأدبون والأدباء التونسيون كوسيلة للخطابة والترسل والإنشاء الرفيع.

وقد نقل منها جملة الحصري في زهر الاداب ونسج على منوالها جماعة من الأدباء التونسيين في القرن الماضي وهم محمد السنوسي ومحمد الورغي وعلي الغراب الصفاقسي.

أشعار ومنتخبات أدباء العصر

1) الثعالبي : افتتح هذا الباب أبو منصور الثعالبي النيسابوري المتوفي سنة 429 هجرية. في كتابه « يتيمة الدهر في تراجم شعراء العصر » وفيه باب عن شعراء تونس في القرن الرابع أي على عهد الفاطميين منهم تميم بن المعز الفاطمي.

2) الباخرزي : علي بن الحسن (توفي سنة 467) من مدينة باخرز بين نيسابور وهراة له :« دمية القصر في تراجم شعراء العصر » ، تعقب فيه على الثعالبي وتدارك ، وفيه بعض التونسيين.

3) عماد الدين الإصفهاني: له « خريدة القصر وجريدة أهل العصر ». تعقب فيه على الثعالبي والباخرزي وزاد عليهما كثيرا وأطنب في رجال القرن السادس بعد أن تحدث الثعالبي عن رجال القرن الرابع الفاطميين والباخرزي عن أدباء صنهاجة تكلم هو عن أدباء صنهاجة بإطناب وصقلية ومالطة واعتمد ابن بشرون عن أدباء مالطة وأنموذج ابن رشيق وحديقة أمية بن أبي الصلت.

ونبغ في هذا الفن المغاربة. فقد كاد أن يسبق الحصري الثعالبي ولكنه عدل عن مشروعه وعلى كل فزهر الاداب شبيه به. ثم جاء ابن رشيق وألف الأنموذج وأمية بن عبد العزيز* وألف الحديقة وابن بشرون والسعدي فألفا عن أدباء صقلية التابعة يومئذ لتونس.

ثم جاء بيرم والسنوسي فألفا عن أدباء تونس في القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

الأمثال

معجم الأمثال للميداني المتوفي في سنة 518 ﻫ. هو أوسع كتاب في ذلك متداول لدى الناس قديما وحديثا. والكثير من الأمثال التونسية مطابق لما فيه.

(انظر : ياقوت : معجم الأدباء 45/5. ودائرة المعارف الإسلامية وغيرهما من المصادر .)

الـزمخشري : له المستقصى في الأمثال . وللـزمخشـري تأثيـر خـاص في الأدب. فلـه «أساس البلاغـة» معجم لا مثيل له في طريقتـه يتحدث حتى عن المولدات والعبارات والتراكيب وهو متداول بتونس. وله المفصل في النحو وهو مقرر في التعليم العالي بتـونس وفرنسا مع شرح ابن يعيش في وقت ما على الأقل. وله أطواق الذهب كالمقامات إلى غير ذلك. وقد تحدثنا عنه كمفسر في غير هذا المـكـان.

في الأدب واللغة والبيان

ومن أثر في الأدب من الإيـرانييـن أبو زكـرياء يحيى التبريزي المتوفى سنة 502 ، أثر بـ :

أولا : شرح المعلقات الذي هو متداول في المدارس التونسيـة .

ثانيا : شـرح الحماسـة .

ثالثا : شـرح ديـوان أبي تمـام.

رابعا : شـرح سقط الزند لأبي العـلاء المعـري.

خامسا: شرح المفضليات، وهو نسخة فـريدة حسبما نعلـم يوجد بدار الـكتب الوطنيـة التـونسيـة تحت رقم 531 وهو على الـكـاغد العراقي وبخط التبريزي وهو النسخـة الأم التـي نقـل عنهـا علمـاء كثيـرون منهم الجـواليقي وأثبتـوا بهـا خطوطهـم فهـو معـرض للخطـوط العـربيـة ودراسته من حيث أنـه مخطـوط تقتضي رسالة مطولـة. فقـد كتبه صاحبه بالمشرق وانتقـل إلى مصر ثم إلى الأندلس ثم إلى المشرق ثم إلى تـونس. وهذا يدلنـا على أن الكتب في العصور الإسلاميـة الزاهرة تسافر أكثـر من مضيفات الهـواء. وبقي بتـونس أزيد من قرنين واستفـاد منـه تونسيون كثيرون أثبتت أسماؤهم في تملـكاتـه. ولا يـزال هنـا.

(أنظر عنه : ابن خلكان 2 233 ، ياقوت : معجم الأدباء 25/20 ، ابن القفطي : أنباه الـرواة ، دائرة المعارف الإسلاميـة.)

الـزوزني ، : الحسين بن علي توفي سنـة 486. له شروح المعلقات. كان مقـررا في التعليم التونسي وبه تخـرجت أجيال من الطلبـة.

(أنظر : ابن القفطي : أنباه الرواة 320/1.)

الطغرائي : له لامية العجم وشروحها. ولد بإصبهان سنة 453 هـ/ 1061 م وتوفى 1109/513. وهو من المقرر حفظه في التعليم الثانوي بتونس.

(أنظر كحالة : معجم المؤلفين 36/4 و المصادر الأخرى)

الصاغاني اللغوي المتوفي سنة 650 له كتاب ما كان على صيغة يفعول حققه ونشره العلامة التونسي المرحوم حسن حسني عبد الوهاب.

(أنظر عنه : تاج التراجم لابن قطلوبغا 17، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردي 26/7، ابن العماد : شذرات الذهب 250/5.)

السكاكي الخوارزمي المتوفي في سنة 626. له كتاب مفتاح العلوم وهو من الكتب المعتمدة لدى التونسيين.

(أنظر عنه : دائرة المعارف الإسلامية.)

الجرجاني : المتوفي في سنة 471 وهو معتمد في التعليم التونسي ولا سيما في الجامعة الزيتونية في كتابيه : «أسرار البلاغة والبيان» و«دلائل الأعجاز».

(أنظر القفطي : أنباه الرواة 188/2.)

الشاهنامة

أصل هذه الملحمة التي هي الياذة الفرس كتاب أبي منصور الثعالبي : «غرر أخبار ملوك الفرس» ثم اقترح الأمير نوح بن منصور الساماني (366 — 387) نظم الشاهنامة، وكان من محبي العلم وأهله. وكان مجلسه مجتمع الشعراء. فاقترح على شاعره الدقيقي نظم الشاهنامة فنظم له بعضها ثم قتل. فأتمها الفردوسي بعده بإشارة من السلطان محمود الغزنوي ثم ترجمها الفتح البنداري المتوفي سنة 624 إلى العربية ونشرها عبد الوهاب العزام في لجنة التأليف والترجمة والنشر وقدم لها بمقدمة طويلة.

ومنه نسخه خطية بالأسكوريال أي بالأندلس. فقد بلغت الترجمة العربية الأندلس فهل كانت نسخة خطية بتونس ؟

وعلى كل فإن محتوى الشاهنامة موجود كثير منه في القصص الشعبية التونسية اقتباسا عن ألف ليلة وليلة أو كتاب تاريخ الفرس للثعالبي، أو هو متبق شفاهي منتقل من فم إلى أذن منذ كان الجند الخراساني بتونس، ومتبق أيضا من كتب المغازي والملاحم التي كان يسردها القصاص في المقاهي والميادين العامة وحتى أفنية الجوامع.

أما الآن فإن الشاهنامة والجلستان ورباعيات عمر الخيام معروفة منذ أسس يوسف داي مدرسة لتعليم العربية والإيرانية والتركية ومنذ صح في العهد التركي اعتبار اللغات الثلاث أساسا للثقافة الإسلامية ومنذ قرر خير الدين باشا الفارسية لغة رسمية بالصادقية ومنذ تقرر بعد الإستقلال تعليم الفارسية بالزيتونة وغيرها. ومنذ ذهب طلبة تونسيون إلى الشرق فتعلموها ضمن البرامج.

الفصل الخامس

الحساب والجبر والمقابلة والمثلثات

أهم ما فعله المسلمون في الحساب أنهم استنبطوا الأرقام عوض الحروف التي كانت عند اليونان والرومان. وجعلوا المنزلة القيمية من ديار آحاد وعشرات ومئات وآلاف إلخ...

وجعلوا الصفر علامة الخلا مدورا كمثل حلقة جلا.

فكان هذا معجزة المسلمين في الرياضيات ثم أنهم وضعوا الجبر والمثلثات قصد حل مشاكل الفرائض وغيرها. فعل ذلك أولا علماء من ايران أخصهم أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي الذي نقل الأرقام الهندية من الهنود، وهو أيضا صاحب كتاب الجبر والمقابلة. فهو قد جمع بين ما عثر عليه من أصول الجبر عند اليونان والهنود والإيرانيين فاستخرج منه علم الجبر الحقيقي. وألف في الجبر أبو الوفاء البوزجاني وأبو حنيفة الدينوري وعمر الخيام وكلهم من الإيرانيين.

وجاءت كتبهم إلى القيروان. فاستنبط أهل المغرب الأرقام العربية وهي تعتمد على اعتبار قيمة الرقم بما فيه من زوايا فالواحد فيه زاوية فهو واحد والإثنان فيهما زاويتان فهما اثنان وهلم جرا وجعلوا الصفر مدورا حتى لا يقع فيه الاشتباه مع النقطة.

وانتقل هذا العلم من المغرب إلى الأندلس وترجمت في الأندلس كتب الخوارزمي إلى اللاطينية كما ترجمت كتب المغاربة في إيطاليا إلى اللاطينية. وانتشر عند الأوروبيين علم الحساب والجبر والمقابلة والمثلثات مما يسميه Mielli في كتابه تاريخ الحساب معجزة المسلمين.

والذي نقل الأرقام العربية والصفر إلى الأوروبيين هو جربرت Gerbert

(انظـر : Hesperis : Vol 44 - 1957 - P 265 - 266.)

ومنهـم الأنكليـزي Adelard de Bath الذي ترجم كتب الخـوارزمي

(آنظـر : Jour. Asiat. de Paris: 1883. p 518. Mai - Juin) وكـذلك الإيطـالي جيراردو الـكـريموني Gerardo di Cremona وكريمونـه مدينـة بشمال إيطاليا قرب بارما Parma وهو من مدرسة قسطنطين الإفريقـي القيرواني الذي كان مسلمـا وترجم كتب بيت الحكمـة بالقيروان من تأليف ابن الجـزار وغيـره إلى اللغـة اللاطينيـة وأسس مدرسة التـرجمة الإيطالية التي منهـا جيراردو الـكـريموني.

(آنظر : Enciclops. Italiana: Costantino Africano et Bibliografia)

وقد أخذ الأوروبيون المصطلحات العـربية من zéro صفر — وجفر Chiffre و Algebre جبر و Algorisme الخوارزمي وXش العـربية من شي بمعنى العدم. فحـرف × الإسباني ينطق شين X atriva = شاطبة و Xeres = شريش. فلما وجد الإسبان عند ابن بـدر الأندلسي كتاب الجبر وترجموه وجدوا فيه ش وهي عندهم × فجعلوا × علامة المجهول. وأخذها الأوروبيـون ونطقـوها إيكس لأن نطقها هكـذا عندهم وأخذنا نحـن إيكس من الأوروبييـن وقلنـا أشعـة إيكس ونسينا أنهـا عربيـة ولله في خلقـه شؤون.

ثم لما جاءت مهاجـرة الأندلس إلى تونس ترجمت كتـاب Aleman الإسبانـي في الجبـر إلى العـربيـة وتلك الأيام نداولهـا بين النـاس.

وبنفس المناسبة نذكر العلامة الشاعر الإيراني عمر الخيام المشتهر برباعياته بالفارسيـة وقل من يعـرف أن له كتبا بالعـربية في الجبـر والرياضيات كان لهـا أثـرها العظيـم في العـالم الإسلامي وأوربا وهي :

1) مقالـة في الجبـر والمقابلـة . نقلهـا المستشـرق الفـرنسي Wœpke إلى الفـرنسيـة طبعت سنـة 1851 باريس.

2) رسالـة فيمـا يشكـل من مصادرات إقليـدس Euclide مخطـوط ليـدن ، هولانـدا

3) رسالة في الاحتيال لمعرفة مقداري الذهب والفضة في جسم مركب منهما. مخطوط غوطا.

(انظر عن الخيام الرياضي قدري طوقان : تراث العرب العلمي في الفلك والرياضيات

Smith: History of Mathematics II - 442 - Enc. de L'Islam

وعن الخيام عموما السمرقندي : جهار مقالة ـ تعريب الدكتور يحيى الخشاب.

براون : تاريخ الأدب الإيراني. تعريب إبراهيم الشواربي 304/1

وللتونسيين ولوع خاص برباعيات الخيام المترجمة حتى أن أحد أصدقائنا وهو العلامة المرحوم المنوبي السنوسي أخذ منتخبات منها نقشها في الخشب بيده بالحرف الكوفي المزهر القيرواني وزخرف بها أعالي جدران بيته.

الفصل السادس

النبات

جاء علـم النبات إلى تونس من ثلاثـة مصادر :

المصدر الأول : هو الـكتب البونيقيـة (موسوعـة ماغون) والكـتب اللاطينيـة (موسوعة يوبا الثاني الملك البربري) التي قد تكـون تـرجمـت إلى العـربيـة مع بقيـة الـكتب اللاطينيـة في الموضوع.

ثانيا : المصدر اليونـاني وهو ترجمة كتـاب ديسقوريدس Discorides اليـوناني إلى العـربيـة بالأندلس. وقد أضيفت إليـه تعيين ·نباتاتـه وإثبات أسمائهـا بالأندلسيـة والمغـربيـة واليـونانيـة والإيطاليـة والبربـريـة مع تصويـر نباتاتـه في أغلب الأحيـان.

ثالثا : المصدر الإيـراني وهو أبو حنيفـة الدينـوري المتـوفي سنـة 282. لـه كتـاب في النبات نقـل عنـه ابن سيده الأندلسي في كتـابه « المخصص »

واشهـر النباتيين المغاربـة أحمـد ابن الجـزار القيرواني و الغافقـي والشـريف الإ دريسي على أن الـكثير من أسمـاء النبات الغابي (الشاهبه لوط) أو المثمـر (الفستق، البندق ، القـراصيا ، النارنج) أو الخضر (الإ سبارج ، الأرضي شوكـي) أو العطريات والطيبات (السكنجبير ، البابونج إلـخ...) هي أسمـاء فارسيـة الأصـل.

وانظـر عن أبي حنيفـة القفطي : إنبـاه الـرواة : 41/1
ياقوت : معجـم الأدبـاء : 26/3

Leclerc: Histoire de la Med. ar. I - 298.

C. Brockelmann: G. A. L. I / 298.

Enc. de L'Islam S. V.

الفصل السابع

الطِّبُّ

الطب التونسي مر بالاطوار الاتيـة :

أولا : الطب الزنجي. ويعتمد في الاكثر على العزائم والرقص والاغاني السحرية. ويعتمد على ذبح التيوس السود والديوك الحمر وتسخير الجان او استخراجـه.

ثانيـا : الطب البربري. ويعتمد على تقديم النذر للعيون والمغاور والجبال والاشجار الطوطمية Totémique (التي يعتقدون انها جدتهم وانها الاه يملك خصائص الالوهيـة) مثل السدر والفلين والخرنوب فيشعلون لها الشموع ويربطون الخرق التي هي ارتباط وعقد بينها وبين المريض. ويحاولون تسخير الاولياء كوسطاء لدى الالاه او من لهم خصائص فكل ولي او سليل ولي يعالج من مرض بعينه باسلوب بعينه. على ان هناك طبا بربريا حقيقيا يعالج بالاعشاب او بالتوقيع اي بالنخس بالابرة. وهذا علاج آت من الصين ولا يزال بالمغرب موجودا.

ثالثـا : الطب البونيقي. اي الفينيقي القرطاجني وهو طب يعتمد على الاعشاب المجربـة وعلى بعض العمليات البسيطة. وليس لنا من المعلومات المقارنـة ما يكفي للعلم هل ان الفينيقيين جلبوا اصولا طبية من الهند او من ايران. ذلك لان الرومان لما اخذوا قرطاجنـة سنة 46 ق م. احرقوا مكتبتها او وزعوا كتبها على امراء البربر ولم يستبقوا منها الا كتابا واحدا، وهو الموسوعـة الزراعيـة التي الفها ماغون القرطاجني والتي هي اول واقدم موسوعة زراعيـة في العالم فاصدر الرومان امرا من مجلس شيوخهم لنقلها الى اللغة اللاطينيـة. فتم ذلك وصارت هذه الموسوعـة نهبا لعلماء الزراعة من اليونان والرومان امثال قسطوس وكولوملس وقاطون وافلينوس وامثالهم. كما نقلت الى العربيـة فاعتمد عليها علماء الزراعـة من العرب امثال ابن العوام وغيره. فكتب الطب

التي كانت بمكتبة قرطاجنة البونيقية والتي يحتمل انها كانت مكتوبة بالبونيقية والبربرية القديمة (اللوبية lybique) واليونانية قد ضاعت، او وقعت بيد البربر ويجوز ان يوبا الثاني الملك البربري العالم قد نال البعض منها فان ما وصلنا من الموسوعة التي الفها يدل على انه يعرف الطب العلمي والطب السحري.

رابعا : الطب الروماني. كانت بجامعة قرطاجنة الرومانية جامعة فيها كلية طب. وكان الاديب المحامي الحقوقي الطبيب ابوليوس يدرس بها التشريح وله مخبر معتبر للتجارب. فكان هناك طب علمي معتمد على علوم اليونان والرومان الى جانب طب تجريبي empirique معتمد على الاعشاب والفولكلور.

خامسا : الطب العربي. لما جاء المسلمون نقلوا بالقيروان وقرطبة اهم الكتب الطبية القديمة واليونانية على الخصوص ومن ذلك كتاب ديوسقوريدس اليوناني Diosoride في الاعشاب الطبية والادوية المفردة وجاء ابن البيطار فجاب الاندلس والمغرب والمشرق ومعه عشابون ورسامون فالف كتابه "المفردات" في الاعشاب واورد اسماءها اليونانية والفارسية والعربية والاندلسية والاسبانية واللاطينية والبربرية والتونسية والمشرقية وصورها تصويرا. لكنه كان مسبوقا بالغافقي الليبي الذي الف كتاب المفردات في زمن متقدم واحمد بن الجزار القيرواني الذي الف في الموضوع ايضا.

ولكن مدرسة الطب القيروانية بعد ان تبربرت وتهلنت وترمنت، تفرست فبعد الاعتماد على الطب البربري (الرعواني) وعلى كتب الرومان واليونان اعتمدت على الطب الايراني. فقد ظهر الكندي البغدادي الطبيب الفيلسوف الموسيقار، وظهر آل بختياشوع واساطين بيمارستان جنديسابور الذين قامت اعمالهم على التجارب السريرية على المرضى. واسس زيادة الله بن الاغلب الثالث "بيت الحكمة" بالقيروان وجعل على راسها ابراهيم الرياضي البغدادي وجلب اليه اطباء من بغداد فتاسست المدرسة الطبية القيروانية اعتمادا على المدرسة البغدادية وبالتالي المدرسة الايرانية. ويبدو ان ابناء الكندي جاءوا الى هنا فنحن نجد اسماء الكندي بالقيروان في ذلك التاريخ كما نعلم انهم كانوا بمصر ايضا. فهل هم احفاده ام مجرد اشتراك في اسم القبيلة ؟

والمهم في مدرسة القيروان المنبعثة عن مدرسة بغداد وجنديسابورانها جمعت بين طب بقراط وجالينوس وديوسقوريدس من اليونانيين والطب الايراني البغدادي والطب البربري الروماني فقد ترجمت معظم هذه الكتب ببيت الحكمة بالقيروان وانشأ ابن الجزار فن الاقراباذين اي الصيدلة المستقلة عن الطب، فالطبيب طبيب والصيدلي صيدلي، واسس فن التلقيح البدائي من الجدري وغيره.

ونقل قسطنطين الافريقي القيرواني كتبه الى اللاطينية فكانت المعتمد عليها بمدرسة الطب بسالرن بايطاليا التي اسست في عهد الحكم الاسلامي بصقلية وكان بها اساتذة من العرب فنهض الطب الاوروبي على اساس هذه الكتب التي كانت مستعملة بمدرسة مونبيليه بفرنسا الى القرن السابع عشر.

(انظر : C. Brockelmann: gesch de arab. Litterature.
Stein Schneider Die lateinische uebers etzunger aus arabisch

ونجد بتونس طبا ايرانيا قائما. من ذلك لفظة بيمارستان نفسها. وهي من الفارسية بيمار بمعنى مريض وستان بمعنى مقر ومكان . وصارت فيما بعد مارستان ثم مرسطان وما جاءت كلمة "سبيطار" اللاطينية الاصل الامع الصليبيين والفرسان الاسبيطارية الذين كانوا بمالطة وكانوا يعالجون مرضاها من مسلمين ونصارى ثم جاءت كلمة مستشفى وهي حديثة على النسبة.

كذلك نجد اسماء الادوية فارسية الاصل مثل خشاف وجوارش وجمعه جوارشات وجواشنات ومعناه المسخن والملطف والمقطع للاخلاط وبذلك فهو مادة طبية مساعدة على الهضم. وهو الان عند التونسيين نوع من الحلاويات يركب من سكر معقود يوضع فيه بندق (صنيبرة Pin pignon doux) ويفصل اقراصا او مربعات او معينات ويوزع على الناس في الافـــراح.

ومن اسماء النباتات التي يعالج بها التونسيون وهي من اصل فارسي : البيبونج وفي الفصيح بابونج بالفرنسية Camomille والمردقوش بالفصيح المرزنجوش ويسمى ايضا المردقوش وعند العامة بمصر البردقوش وبالفرنسية

والسكنجبير من الفارسية سكنجبين Gingembre والراوند بالفرنسية Marjolaine والسيكران وهو البنج بالعربية Cigue الى غير ذلك من العقاقير المعروفة rhubarbe في كتب الطب والتي نجد اثرها منذ ابن الجزار في العهدين الاغلبي والفاطمي عندما نراجع كتابه الاساسي زاد المسافر ونستخرج منه ما نقله في الطب والاقراباذين Pharmacopée وفن الاسرة عن الاطبـاء الايرانيين وما نقله وشرحه وقابله من اسماء الادويـة والنباتات الطبية قبل ان يظهر ابن البيطار على مسرح الوجود.

واستمر ذلك في المدرسة الطبية القيروانية التي اسسها زيادة الله الثالث واشرف عليهـا ابراهيم الريـاضي البغدادي او في المـدرسة الطبيـة المهدوية التي اشرف عليها وتزعمها الامام المازري او في المدرسة الطبية التونسية بعاصمة الحفصيين تونس المدينة التي ظهرت فيها عائلة الصقلي المتعاقبة والخميري واضرابهم.

وللصقليين المختصر الفارسي وهو كتاب في الطب مختصر من كتاب القانون لابن سينا ومقدم الى السلطان الحفصي ابى فارس عبد العزيز وشرح الفية ابن سينـا في الطب. وكل هذه العلـوم قد انتقلت من هنا الى صقليـة ثم الى ايطاليا وترجمت الى اللاطينيـة فكـانت عمـاد الصيدليـة والطب عند الاوروبيين الى القرن السادس عشر.

ومن الالفاظ الصيدلية او الكيمياويـة الموجودة بتونس والتي هي من اصل فارسي الاشنان بمعنى الصودا Soude والنشا Amidon والسكر والباروق (البورق) والانبيق ويسمى ايضا القطار والجلاب او ماء الورد. ومعظم هذه الالفاظ قد انتقل الى اوروبا اسما ومسمى عن طريق صقلية دائما.

المصـــادر

ابن جلجل : طبقـات الاطبـاء

البيهقـي : تاريخ الحكمـاء

ابن ابى اصبيعـة : طبقات الاطباء

D. Leclerck - la Medecine arabe.
D. A. Cherif - la Medecine Tunisienne.
D. A. Ben Milad - l'Ecole de Medecine de Kairouan
C. Brockelmann- Geschichte der arabischen Litteratur

وقد ترجمنا القسم المتعلق بتونس الى العربيسة مع تعاليق ونشرناه

الباب الخامس

اللغة والأدب

الفصل الأول

اللغة الفارسية

دخل الكثير من الالفاظ والعبارات الفارسية في اللغة العربية منذ العصور الجاهلية. فقد قال الشاعر الجاهلي علقمة الفحل * كما تراطن في افدانها الروم * فالأفدان ج فدن وهو القصر من الفارسية القديمة افادانا.

واللغة التونسية هي مجموعة اللهجات التي جاءت بها قبائل الفتح منذ سنة 27 هـ. فيومئذ دخلت العربية الى تونس من بابين كبيرين. باب الفصحى الذي نشره القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر فما بلغت اواخر القرن الاول الا وكان الناس يعرفون كل هذه الاشياء. وما جاء القرن الثاني الا وكانت مدرسة النحو واللغة المغربية تاخذ مقعدها المشرف من الشمس الى جوانب المدارس الاخرى كمدرسة الاندلس والكوفة والبصرة.

(انظر : الزبيدي : طبقات النحويين. ابن القفطي : انباه الرواة.)

ومن باب آخر هو باب القبائل الغزاة التي اتت بلهجاتها فلهجات الجنوب الغربي التونسي عراقية، ولهجات الشمال الشرقي شامية ولهجات جبال الشمال الغربي يمنية ولهجات الوسط تميمية وهلم جرا.

وقد سهلت اللغة الفينيقية التي كانت رسخت قدمها بتونس منذ 2400 سنه انتشار العربية لا سيما وان الفينيقية هي لغة سامية متولدة من لغة عربية اولى Protosemitique حتى ان الاوروبيين الاولين الذين درسوا لغة جزيرة مالطة القريبة من تونس وقد فتحها احمد بن الاغلب في القرن التاسع الميلادي وانتصبت بها اللغة البغدادية القيروانية ظنوا اللغة المالطية لغة فينيقية لشدة المشابهة وانما هي لغة عربية وهي الى الان من افصح اللهجات

العربية. وقد ترجمت اليها منذ سنوات قليلة رباعيات عمر الخيام فكأنها ترجمة عربية اخرى.

وهذه اللغة التونسية الأولى تالفت ايضا من عناصر اجنبية سابقة ولاحقة :
فالعناصر السابقة هي : الفينيقية واليونانية واللاطينية والبربرية
والعناصر اللاحقة هي: الايرانية والتركية والاسبانية والايطالية والفرنسية.
والذي يعنينا الآن اولا وبالذات هو العنصر الايراني. وقد دخل الى تونس :
أ) مع القرآن الكريم نفسه فهو دخل من باب سام ونبيل ورسمي وايماني. فمن ذلك الاستبرق والسندس.
ب) مع الجند الخراساني في اواسط القرن الثاني للهجرة.
ج) مع اللغة العربية العباسية التي كانت هي لغة القيروان اذ كان الاغالبة منبثقين عن العباسيين واذ كان الناس على مذاهب ملوكهم واذ كانت المستحدثات والكلمات التي تدل عليها تاتي القيروان اسما ومسمى بعد موسم الحج، وعلى كل فبعد عام من ظهورها في بغداد سواء كانت مؤسسة دولة (دستور، بريد، ديوان) او قماش (سندس، شاش، ديباج) او كتاب (كاغد، طومار، ازميل) او طعام (كباب، سكباج، فالوذج، خشاف، جلاب الى غير ذلك).
د) مع الكتب العربية المؤلفة في المشرق والواردة مع الحجاج والبريد والرهادنة ومعلوم ان هذه الكتب تحوي الكثير من الالفاظ الفارسية ككتاب الحيوان للجاحظ والبخلاء له ايضا ومفاتيح العلوم وكتب الفارابي وابن سينا ونشوار المحاضرة لابي على التنوخي والشعر الملمع (الذي بعضه عربي وبعضه فارسي) الى غير ذلك.
ه) مع المؤسسات البغدادية المدنية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية الواردة من بغداد والمستقرة بتونس. واليك بيان بعض هذه المؤسسات وما فيها من الفاظ فارسية.

المؤسسات الادارية

فالحكومة تنقسم الى دواوين مثل ديوان البحر وديوان الجند وديوان الخراج وديوان المال وديوان الانشاء الى غير ذلك.
وكلمة ديوان في الاصل من «ديو» اي الجن "وان" علامة الجمع فالديوان

هو مجمع الجنون ثم اي مجمع او مجموع اخر فديوان الجند هو مجمع الجنود ولا يزال يسمى الديوان الى الآن وان انتقل عنه الجند. وديوان الشعر هو مجموع الاشعار.

وقد اورد الخوارزمي في كتابه مفاتيح العلوم والماوردي في الاحكام السلطانية المفردات الاصطلاحية الواردة في دواوين الحكومة الاسلامية وفصل ذلك القلقشندي في كتابه « صبح الاعشى » فديوان الجند لا يزال بتونس بناية واسما ومسمى وديوان البحر لا يزال بصفاقس (باب الديوان) وكلمة ديوان بمعنى قمرق لا تزال موجودة بتونس ومنها الديواني اي عون الديوان وقد اخذها عن التونسية في صقلية وسردانيا الايطاليون فقالوا Dogana وكذلك الالفاظ المتعلقة بديوان المال مثل قبالة، وهي مكس غير شرعي اخذها الايطاليون عنا فقالوا Gabella واخذها عنهم او عن الاندلسيين الفرنسيون فقالوا Gabelle وكلمة القبالة كانت مستعملة بتونس على عهد محرز بن خلف ولي تونس وأديبها ومؤرخها وشاعرها. فقد ورد في مناقبه انه خرج في المساء لاشتراء خبز فوجد الاسواق مقبلة اي عليها مكس قبالة — وهو غير شرعي — فتورع عن شراء الخبز وبات ليلته طاويا، وبعض النساخ وهم مساخ لم يفهم مقبلة فحولها مقفلة اذ رآه أنسب للسياق سامح الله حماقته .

ومن الفاظ ديوان البريد كلمة بريد وهي فارسية، وفرانق وهو مرافق البريد ويسمى بالفرنسية Convoyeur ونوع منه يسمى حمارا لكن ليس هنا محل الحديث عنه. ومن الفاظ ديوان الجند : البلطة وهي Hallebarde رمح فيه شاقوران وطورجهارة Arbalête وسريطانة والاسوار وهو الفارس وسباهي وهو الشرطة التي على الخيل ومنه الفرنسية Spahis التي صنع منها لفظ تونسي ثانوي "سبايبس" ولفظ ثالث صبايحي ومنه سبي قاضي عون القاضي الراكب، ومنها الجندار وهي الجندرمة، وقد كانت موجودة في المغرب بهذا العنوان. ومنها النموذج من الفارسية نمودن اي اظهر واستظهر وهذا اسم المفعول منها، يستعمل على الاكثر في الفصيح ولعله من المولد الحديث إذ يوجد في التونسية عرض بمعنى نموذج ومشتره من الايطالية Mostra من الفعل Mostrare الذي هو نمودن الفارسي.

ومنها الدينار والدانق من النقود ومنها الراهدار او الراهدان من الفارسية (راه) طريق و(دار) صاحب او(دان) بمعنى ماسك. وهو النائب التجاري او المسافر التجاري. كانوا جماعة من المسلمين او من اليهود يبدأون رحلتهم من الصين يحملون البضائع والكتب الحديثة واخر ماجد من الاخبار و(الموده) ويتجولون من مدينة الى مدينة ينزلون عند بني اعمامهم ويبيعون ويشرون ويخبرون ويستخبرون الى ان يصلوا نورمبيرغ في المانيا فيرجعون. وكانت لهم سوق خاصة بهم في اهم المدن تسمى سوق الرهادرة او الرهادنة بقرطبة والقيروان والقاهرة وبغداد وغيرها وكانت لهم اعوان لتقبل الوصايات من الكتبيين والوراقين والتجار والهواة لاقتناء ما يحتاجون اليه من البلاد البعيدة في الذهاب والاياب. فهؤلاء وربما كانوا من العهد الفينيقي هم سماسرة الحضارات ورسل المبادلات الحضرية بين اطراف العالم من الصين الى المانيا وما وراء المانيا.

(انظر : R. Dozy: Sup. aux dict. ar. S. V.)

ومنها سرماية اي راس المال ويقال له بالتونسية صارميه تحريفا من سر بمعنى راس وماية مال ومن سر جاءت سرناي اي الناي الذي له راس وينطق بالتونسية زرنه ومنها السراي بمعنى القصر ويقصد به قصر الحكومة.

المؤسسات التجارية والأسواق

ففي التجارة يوجد الشاهبندر في الأصل بمعنى رئيس المرسى وهو رئيس التجار جاء مع النظام الإقتصادي الجديد ومع قصص ألف ليلة وليلة. ويقال إلى الآن بتونس فلان شاهبندر أي رجل ثري عظيم مثل ما يقال أيضا من الإيطالية Mercante فلان مركانتي لنفس المعنى. ومنها السمسار أي الوسيط بين البائع والشاري .وقد أخذته الإيطالية عن طريق صقلية وسردانيا الجزيرتين الإيطاليتين اللتين كانتا تونسيتين فقالوا Sensale وقال التونسيون سمسرية وهي صناعة السمسار أو أجرة عمله فقال الإيطاليون Senseria ومنها البازار أو البازر فانتقلت إلى اللغات الأوروبية عن طريق تونس ــ صقلية

المدينة

وأول مدينة إسلامية بالمغرب اسمها فارسي القيروان ومعناه

محط الجيش لأن القيروان التي بناها القائد الفاتح الكبير عقبة بن نافع الفهري كانت مجمعا للعساكر والعتاد. فقد كان المجمع الأول هو المدينة ومنها انطلق عمرو بن العاص لفتح مصر فلما اراد فتح ليبيا بنى الفسطاط من اللاطينية Fossatum أي المعسكر (وفي الأصل الخندق الذي يحيط بالمعسكر من باب إطلاق الظرف وإرادة المظروف) ثم لما أراد عقبة فتح الجزائر والمغرب بعد عنه الفسطاط للاستمداد فبنى قيروان إفريقية (أنظر : أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس – مطبوع بدون اسم المؤلف).

والمدينة تشتمل على البطائح ومنها الميدان وهو فارسي من ماي بمعنى خمر ودان مستودع وهو في الأصل ساحة يشرب بها الناس الخمر ثم صارت ساحة مطلقا ثم صارت ساحة الحرب. ومنها مسكن المسافرين وهو الخان. ومنها الحفير الذي يدور بالمدينة لحمايتها أما السور وهو الخندق اسم مفعول من الفارسية خاندن أي حفر فهو الحفير ففسطاط وخندق وحفير بمعنى واحد في ثلاث لغات. ومنها بالتونسية في معنى آخر (خندق) بمعنى مصرف مياه المدينة القذرة. ومنها الشيشمة أي الحنفية وتسمى السبالة أيضا ومنها الزندالة في تونس بمعنى السجن وفي الساحل بمعنى صهريج الماء أو الزيت. وفي المدينة أو في المجمع البشري بيوت أبسطها القربي Gourbi من الفارسية كربه من الفعل كربان أي رصف الحجر. وهو أبسطها أما أرفعها فالسراي أي القصر ويسمى بالتونسية صرايا ومنها الفدن بمعنى القصر كما مر بنا.

وفي المدينة الخمارة وتسمى حانه (من خان – ومنها الحانوت) وتسمى أيضا ميخانه أي دار الخمر. ومنها الميخور والماخور وفيه خمر وزمر ورقص وقصف. وفيها المستشفى وهو البيمارسطان ويقع تلخيصه في مارسطان ثم مرسطان. ومن الدواوين التي في المدينة الدفترخانه نصفه الأول يوناني Dipterion أي ذو الدفتين بمعنى الكتاب والزمام والنصف الثاني فارسي (خانه) بمعنى الدار الذي مر بنا في كلمة ميخانه والذي يوجد في كتبخانه وإجزاخانه وتختخانه وطوبخانه وترسخانه وشرابخانه.

وفي المدينة البيت وفي البيت الأثاث ومنه الزربية

والإكليم والطيفور والقفقير والقرقاف والشنقال والطاقم. وفي البيت يلعب الشطرنج والشيش بيش والخربقة (نوع من الداما) والزربوط (لعله فارسي؟) وكلها مؤسسات فارسية جاء بها المهلبيون أو جاءت قبلهم ومصطلحاتها فارسية مثل شاه ورخ وبيدق ومثل بنج جهار ومثل مرتبات الأعداد التي تظهر في الكعبين حين يقذف بهما فيعلن عنهما بأسماء الأعداد الفارسية.

وفي البيت المطبخة، وفيها القفقير (المرغاة، الملعقة المثقوبة التي يرفع بها اللحم والخضروات من المرق والمقليات من الزيت أو الحلويات من العسل أو السكر المغلي.) وعود الرشتة، والرشتة، (واللفظ فارسي: عجين كالمقرونة يكون أعرض ومشرفا نوعا ما يطبخ جاريا، أو يابسا) والطيفور وهو طنجير كبير من نحاس ذو عروتين يسخن به الماء للاغتسال. وهنالك غرفة الطعام وبها الطشت والليان (اللكان) والصابون والأشنان والبشكير وبها الجام والسكردان فإذا انتهى الإنسان من أكل الكوامخ والطرشي في السكرجة، ومن أكل الكباب والأرز والشيش كباب والمروزية أقبل على أكل البلوزة (بالوده) ورفيسة الأرز (فلوذج) والهردبة والصمصة والخشاف ثم غسل يديه بالأشنان في الليان وصب عليه الماء من الإبريق في طشت الليان (اللكان) ثم تنشف في البشكير وتعطر بماء الورد أو العطرشاه أو الياسمين ثم تبخر بالند أو القماري (من بلاد قمار Khmer في كمبوجيا بالهند الصينية).ثم جلس على الصفة فشرب فنجانا من الشاي أو فنجانا من القهوة الصادة. واذا انتهى الانسان من الاكل والتعطر والتبخر أحب المشموم من الياسمين والعطرشاه والمسك والنرجس والبهار والليلك والزنبق والسوسن.

* فاح الورد والسوسان * في وسط الأغصان * يالالان

والخيري (الخيلي) وعنبر الليل وغيرها. فيتخذ منها باقة مشكلة من مجموعة ألوان وأشكال وعطور صادة من ورد أريانة (بلدة تبعد 6 كلم في الشرق من تونس) وهو في الأصل ورد جلولا قرب القيروان المجتلب من ورد اصبهان. فوضع هذه الزهور على ظهر أذنه أو رشقها في عمامته أو في حرف (كلاه) شاشيته. ثم أخذ البربط أو الكمنجة أو الناي أو السرناي وغنى الاصفهان أو الكرد أو الرها وعدل أوتار الزير والبم والمثنى والمثلث على اليكاه

والدوكاه أو السيكاه أو الجهاركاه أو غيرها ووقع بشرافا (بيشرو).
والمثل التونسي يقول : البطن إذا شبعت تقول للراس غن

ومن ألفاظ اللباس : الطربوش (سر الراس ، بوش غطاء) والكلاح (كلاه) والشاشية. ومن الألبسة التي صارت ضرورية عند التونسيين ، ودخلت عن طريق الأوروبيين (البيجامة) من باي (رجل) جامه ثوب ، أي الثوب النازل إلى الرجل. ومنها الببوش من الفارسية باي (رجل) وبوش — (غطاء) أي غطاء الرجل لكن نستعمل أكثر كامة بشمق التركية ونستعمل Babouche عند الحديث بالفرنسية. ونستعمل المست (وهو جزمة من جلد رقيق) والجرائب تحريف جوارب ج جورب ونشدها بالشنكال حتى لا تلتوي على الكعبين. ونلبس السروال وهو في الأصل سراويل الفارسية وظنناها جمعا فاستخرجنا منها مفردا : سروال وأخذه الإسبانيون عنا فقالوا Zaraguellos بصيغة الجمع os وباعتبار أن الواو تصير G عندهم مثل Guadalquivir (الوادي الكبير) Guadilajara وادي الحجارة و Guadalete وادي ليته إلخ...

الفصل الثاني

الأدب الفارسي

بين إيران وتونس صلات أدبية وثيقة منذ عصور بعيدة. فمنذ عهد زرادشت وكتاب القشتاب اتصلت تونس ببعض تعاليم ذلك الكتاب، سواء في النصرانية التونسية حينما دخلت النصرانية تونس في القرن الأول بعد المسيح وبقيت هنا الى الفتح الإسلامي سنة 27 ه. أو في العهد الإسلامي نفسه فإننا نجد في الفولكور التونسي بعض النزعات المانوية.

ثم لما جاء الإسلام وانتشرت العربية انتشرت الفلسفة الهندية من جهة وعقائد زرادشت وماني ومزدك من جهة ثانية لا سيما في العصر العباسي ، والفلسفة اليونانية من ناحية ثالثة. فتكونت مذاهب المانوية والزندقة، والأدب العربي مملوء بقصص الزنادقة التي دخلت الأدب التوتسي الشعبي والفصيح.

ابن المقفع ونشر الأدب الفارسي

لعل عبد الله بن المقفع (روزبه) أكبر كاتب فارسي قد أثر في الأدب العربي التونسي والمغربي وحتى الأوروبي. فإن كتاب كليلة ودمنة قد بقي منذ القرن الأول أو أوائل الثاني للهجرة كتابا فصيحا مكتوبا وعاميا شفاهيا مندسا بين الخاصة يتأنقون في امتلاك أجمل نسخه خطا وتزويقا وتصويرا وتنميقا ، كما حرص العامة على الاستماع في حلقات القصاص إلى نوادر كليلة ودمنة، فمنهم من حملها محمل النادرة الواردة على ألسنة الحيوانات التي يقصد بها التعجب وإيراد المغامرة والإعجاب بالذهن الحيواني، ومنهم من يعلم أن هذه النوادر إنما تقصد منها مغازيها

ومواعظها وعبرها فهي درس مستمر حي للخصومة المستمرة بين الخير والشر والحق والباطل والقوة والضعف والعدل والظلم والحيلة والسذاجة. درس للأخلاق العامة وآداب السلوك في البيت والشارع والمجالس والحياة وإزاء المجتمع بوجه عام. حتى صارت حكايات كليلة ودمنة ترد على السنة الناس من شيوخ وعجائز وكهول ونساء وخواص وشعبيين كأمثال تنطبق على صور راهنة يحتج نها بطلها أو ضحيتها.

ولم تقف كليلة ودمنة عند هذا الحد بل تجاوزته إلى الاندساس في القصة البربرية التي على ألسنة الحيوانات. وقد أثرى الأدب البربري الكتابي والشفاهي من هذه الناحية بفضل كتاب كليلة ودمنة. وينظر في ذلك إلى كتاب (روني باسيه) «قصص شعبية بربرية» والقصص الشعبية البربرية الجديدة.

وانتشر كليلة ودمنة من تونس إلى كامل بلاد البربر وحتى بلاد الزنوج الذين أسلموا مثل السينغال ومالي وغانة. ذهب إلى هناك عن طريق القوافل التي تنقل في الآن الواحد البضائع والكتب والفولكور وبخاصة الأدب الشفاهي وذلك منذ العهد الفينيقي. ودراسة كليلة ودمنة ورحلاته الأوروبية والإفريقية يحتاج إلى مجلدات فلا يحويها ولو تلخيصا هذا الأنموذج الموجز ولامزيد.

René Basset: Contes papulaires berbères. Paris 1897 et notes
Nouveaux Contes berbères Paris 1897

— Essai sur la litterature des berbères Alger 1920

وانظر أيضا : أ. لاوست — قصص بربرية مغربية.

E. Laoust: Contes berbères du Maroc. Paris Larose H

وأيضا : الدكتورة ليجيه حكايات وخرافات شعبية مغربية

D^esse Leger = Contes et Legendes populaires du Maroc.

وليس هذا فقط بل إن الأدب الشعبي الإسباني نفسه قد اقتبس كثيرا من كليلة ودمنة.

أنظر : — Gonzales Palencia = El Islam y Oceidente.

والأدب الفرنسي منذ نشأته الأولى مدين لكليلة ودمنة حتى بعنوانه فإن من أقدم مجاميع القصص في القرون الوسطى كتاب Roman de Renart رواية الثعلب هي مقتبسات كثيرة من كليلة ودمنة.
انظر : عن ذلك

Lucien Fonlet = Le Roman de Renart - ed. Ernest- Martin. Strasbourg 1881 — 1887 Paris 1914

ثم إن لافونتان La Fontaine قد نقل كثيرا من كليلة ودمنة إلى الفرنسية ببراعة عجيبة من ذلك (الراعي والجرة) فقد اقتبسها بعنوان اللبانة وقدح الحليب La laitière et le pôt de lait وكذلك الحيوانات التي أصابتها الداهية فقد اقتبسها بعنوان : Les animaux malades de la Peste ومعلوم أن كتاب كليلة ودمنة قد ترجم منذ القرون الأولى فاتصل به لافونتان من خلال الترجمة.

أما بتونس فإن كليلة ودمنة كان منذ الأول كتاب القاعدة للقصاصين المعروفين « بالفداوية » وهم قصاص المقاهي وبعض الأسر الخاصة والمحافل العامة، ينقلونه إلى الناس بلغة دارجة مهذبة.

على أن ابن المقفع لم يقتصر على ترجمة كليلة ودمنة من الفهلوية التي هي اللغة الإيرانية القديمة بل ترجم أيضا (أيينامة) أي كتاب النظم الدولية ، ومنه آستوحى العباسيون — وبالتالي الأغالبة — الكثير من النظم الحكومية التي تشتمل عليها الإدارة العباسية في المشرق والإدارة الأغلبية في تونس. وهذا ما سنراه في باب آخر.

ألف ليلة وليلة

هذا الكتاب من أعظم الكتب الفارسية القديمة التي أثرت في المجتمع التونسي وفي الأدب التونسي الشعبي وحتى غير الشعبي. ترجم كتاب «هزار أفسان وأفسان» من الإيرانية إلى العربية في القرن الثالث الهجري أي على عهد الأغالبة، واهتم به الفاطميون بخاصة فقد ذكر وجود الكتاب لأول مرة على عهد الخليفة الفاطمي الأخير(1160 — 1171) من

طرف المؤرخ القرطبي الذي ألف تاريخ مصر على عهد الفاطميين. ونميل إلى الإعتقاد بأن ألف ليلة وليلة ازدهر على عهد الفاطميين الذين انشؤوا « الفداوية » (القصاص) لاسماع الناس الملاحم وأعمال البطولة حتى يكونوا في شروط جهادية طيبة ولا تزال كلمة فداوي معروفة بتونس وهم يقرؤون السير الحماسية والبطولية مثل فتوح إفريقية والعنترية وفاطمة ذات الهمة وسيف ذي اليزن وراس الغول وغيرها. وعلى الخصوص قصص « سيدنا علي فارس الجهاد » يكون ذلك في المقاهي العامة التي تكون جدرانها مزدانة بصور سيدنا علي الشعبية وهو يجاهد بسيفه ذي الحدين. ويتحمس الناس لذلك غاية التحمس وقليل من الناس من لا تكون له في بيته مجموعة من هذه الصور معلقة بالحائط.

على أن قبة الفداوية مشهورة بمصر. ولعل جعل الجنود في الحالة اللازمة للحرب وفق الشروط المطلوبة Mise en condition ترجع إلى الأغالبة إن لم ترجع إلى ما قبلهم. فقد ذكر لنا إبراهيم الرقيق القيرواني في القطعة المنشورة من تاريخه أن القاعدة قبل خروج الجنود إلى الحرب هي أن يأتي قارىء فيتلو عليهم الآيات القرآنية الجهادية ثم يأتي واعظ فيحمسهم ثم يأتي الشعراء فيذكون نار النخوة فيهم. ونحن نعلم من كتاب الحلة السيراء لابن الأبار أن الحالة كانت منذ المهالبة والأغالبة أن تسبق المعركة مهاجاة شعرية من الطرفين. لكن الفاطميين أرادوا أن يجعلوا الأمة المغربية كلها في الشروط اللازمة لمجابهة الحرب برفع معنوياتهم وإذكاء النار في روحهم الجهادي ويدلنا على هذا في الطرف الال الطرف الآخر الطرف الصقلي مثلا. فإن نصارى صقلية في حربهم ضد المسلمين أيضا كانوا يلجأون إلى نفس الطريقة. ومن ذهب منا اليوم إلى مدينة بالرم عاصمة صقلية يجد « الفداوي » (الحاكي أو القاص : Contastorie) وقد اتخذ مجموعة من العربات صور على أخشابها حروب النصارى للمسلمين وانتصار النصارى على المسلمين ــ طبعا ــ ثم هو يحكي قصة هجوم العرب في حماس شديد ويصورها تصويرا ويشير إلى التصاوير التي على أخشاب العربات ويحكي أطوارها كما عن له

أن يحكي . ويتكاثر المتفرجون على كثرة ما يبدي من الحماس وينفحونه بقطع مالية تكون اكتساب يومه.

ثم إننا إذا نظرنا في آداب الشعوب في القرون الوسطى نجدها ترتكز على ملاحم الحروب فأول ملحمة فرنسية في القزون الوسطى هي أغنية رولان La chanson de Roland التي تحكي هجوم رولان على الأندلس الإسلامية وما جرى له في ذلك من عجائب وغرائب. وفي الأدب الإيطالي من حماسيات الحروب الصليبية « تخليص بيت المقدس وأورلاندو المتحمس » وفي الأدب الإسباني قصة السيد القمبياطور معروفة. ألفها ghilien de Castro ثم أخذ عنه كورناي المسرحية الفرنسية فسماها Le cid.

وكتب الأدب العربي المليئة بالحماسيات التي تتلى على الناس وتروى لهم لإذكاء نار الحمية فيهم تبدأ بالجاهلية ففيها « أيام العرب » ثم في صدر الإسلام ظهرت كتب المغازي ثم حروب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثم سجنيات أبي فراس ثم فتوح الشام وفتوح اليمن وفتوح إفريقية وفتوح الأندلس ثم تغريبة بني هلال إلى غير ذلك. وهذا معروف لا يحتاج إلى زيادة بيان.

فكان الفاطميون بالمهدية أو بالمنصورية وفي كامل الأقطار التي لنظرهم محتاجين إلى أن يستبقوا الناس في شروط جهاد مستمرة. فهم يحتاجون إلى فتح الأندلس والبلاد السوداء وجزر البحر المتوسط وجنوب فرنسا ، هذا فقط استعداداً لفتح المشرق. فما بالك بشروط فتح المشرق.

إلا أن هذه الإثارة المستمرة تؤلف بالنهاية « ميلاخوليا » تحتاج إلى ترفيه ، وقد ألف أطباء تونس يومئذ في صلة الميلاخوليا بالرباط أي بالحياة الجهادية الشديدة واقترحوا الترفيه لها دواء. فاستنبط الفاطميون قصص كليلة ودمنة ويغلب على الظن أنهم استنبطوا قصص ألف ليلة وليلة ففيها من العجائب والغرائب ومن قصص الحيوانات والمغامرات البحرية والغراميات الشيقة والريقة ما يروح على النفس. ومن طالع منا «خاص الخاص» لأبي منصور الثعالبي يجد فيه قسم الترفيه الرباطي وهو أخذ الأناشيد الرباطية الجدية التي نسمعها إلى الآن

في الزوايا وتحويلها إلى قصص فكاهية على نفس الوزن وبنفس اللغة فيضحك لها الناس ويزول عنهم كدرهم النفسي.

الكبش يدور الكبش يدور وقرونو نطاحه
يا جزار يا جزار أذبحو بالراحه

وهي موجودة بتونس إلى الآن من عهد أبي منصور الثعالبي إلى اليوم وهذا مظهر آخر من تأثير الأدب الفارسي حتى في أخص الأشياء.

ثم ورد ذكر ألف ليلة وليلة عند المسعودي في كتابه «مروج الذهب» وكتب المسعودي في القرن العاشر أيضا سنة 336 هـ / 947 م وصحح كتابه سنة 346 هـ / 957 م. أي يوم كان الفاطميون لا يزالون بالمغرب ولم ينتقلوا بعد إلى مصر (369 هـ / 971 م) وقد نشر النص العربي المتعلق بألف ليلة وليلة وترجمته الفرنسية المستشرق الفرنسي باربييه دوميينار Prairies d'or IV 89 Barbier de Meynard ط. باريس. فيقول ما معناه: «وشأن هذه الحكايات الخرافية هو كشأن الكتب التي وصلتنا والتي ترجمت من الفارسية أو الهندية أو اليونانية فقد ذكرنا كيف ألفت هذه الكتب ومنها كتاب هزارْ أفسان وترجمتها بالعربية ألف خرافة أهـ 112.»

وجاء ابن النديم الوراق الذي ألف كتاب الفهرست سنة 377 هـ/987 م وذكر هزار أفسان وأورد الإطار الذي جرت فيه حوادث القصص.

وقسم ما كدونالد ألف ليلة وليلة إلى الأصول الآتية:

1) هزار أفسان الإيرانية الأصلية والتي نقلت إلى العربية.
2) رواية عربية أخرى لهزار أفسان.
3) القصة التي تؤلف أطار الهزار أفسان تتبعها الحكايات ذات الأصل العربي؟
4) «الليالي» الرآجع تأليفها إلى الطور الفاطمي الأخير بمصر.

وهذا يدل مرة أخرى على أن الفاطميين استعملوا ألف ليلة وليلة واستعملوها في حقبتين على الأقل: الحقبة الأولى مبكرة تعتمد على أصل تعريب هزار أفسان. وهي الحقبة المغربية وقد أضيفت أجزاء

مغربيـة على ما يظهـر. الحقبة الثانيـة الفاطميـة المصريـة وهي على العمـوم القسم المصري من ألف ليلـة وليلـة. والقسم المصري يشمـل على الخصوص عناصر سحريـة وطلاسم وحـروز ومعلـوم أن المغاربـة هم الذيـن يتـولـون ذلك على العمـوم. فهـذا مرجع آخـر لإقامـة الدليـل على « مغربية »ألف ليلة وليلة المصريـة نفسهـا على الأقل في بعض مظاهـرها.

ودليـل آخـر على « مغـربية » ألف ليلة وليلة هو وجود قصة فتح مدينـة لبدة في الشمـال الشرقي من المغـرب. فهي جزء روائي من المغازي المغربة. ولبدة هي المدينة الليبية البونيقية الرومانية المعروفة بـ Leptes Magna والتـي تقـع في الجنـوب الشرقي من طرابلس العاصمـة قرب « الخمس » وهي من أعجب الآثار العملاقيـة المزخرفة في العـالم.

ونلفت النظر إلى قصة تودد الجارية العالمة التي نجدها قد سربت من ناحيـة إلى الأدب الإسباني La dancella Tesder في الطـرف الشمالي الغربي ومن ناحية أخرى إلى الأدب الحبشي تودد في الطرف الجنـوبي الشرقي من إفريقيا وما بينهما بما هو سر هذه الرحلـة المطولـة بين طرفي أدب متقابلين بالراس. وهناك قصص « الأحدب » الفـكاهية العجيبـة التـي تشبه قصص بوك عكـرك الأحدب التونسي الجـزائري الذي هو جحا الثاني والتي هي قديمـة جـدا. فهل هي بربرية أصليـة أم هي بونيقية؟. وهل هي مغربيـة دخلت في ألف ليلـة وليلة أم هي من هزار أفسان إيرانية معربة دخلت في الأدب الشعبي المغـربي منذ زمن مبكـر. ؟

وعـلاوة عن كل هـذا فقد أثـرت ألف ليلـة وليلـة في الأدب التونسي الفصيح. وفي الأدب التونسي الشعبي ، فإن حكايات الحيوانات وحكايات السلاطين والجنون والأغوال والسعالي وحكايات الـكنوز التي تحت الأرض وحكايات الغني والفقير والقوي والحقير والسلطان والصعلوك والتزوج بالجنـون والأغـوال ـ هذه الحكايات والخـرافات التونسية التي لا تدخل تحت حصر لهي تحوي نصيبا كبيرا من ألف ليلـة وليلـة لو توفر البحث عنـه لأحد لقضى العجب العجاب وأماط اللثام عن كنـز مدفون.

(انظر : (Houdas : Chrestomatie Maghrebine

وصار لألف ليلة وليلة شأن في سهرات النوادي والدرائب(والدريبة سقيفة كبرى فيها قاعة ،ؤثثة لقبول السهارة في الشتاء ورمضان وغير ذلك. وقل ألا يكـون بيت بتـونس ليس فيه دريبة أو علي (علو ــ طابق أول ــ سهارة.) وانتشرت على أيدي الفداوية في المقاهي والفداوي بتونس هو الحاكي أو القاص يسرد ملحمـة حماسيـة ثم قصة من ألف ليلـة ويقـول مقطعات أي فواصل قصيـرة فكـاهيـة أو وعظيـة بين حلقـات الملاحم أو القصص الكبرى. واستولت على ألف ليلة وليلة خرافات الملوك والوزراء والأغنياء يخـرفن في سهـرات الليـل المطـولـة في الشتـاء أو على الزربيـة عند الفـراش فيأتين بالعجب العجاب.

وانطلاقا من تونس انتشرت ألف ليلـة وليلـة بـكـامل المغـرب والأندلس وصقليـة وأوروبا ودخلـت الأدب الأوروبي الأطفالي أو الـكهولي. فـأصـل الـحـكـايـة هي أن ملـكـا كـان يتـزوج كل لـيلـة جارية ويقتلها في الصباح حتى جاءت جارية فكانت تقص عليه قصة طريفـة وتقف في حلقـة شيقـة منها : « فلما أدرك شهـرزاد الصباح ، سـكتت عن الـكـلام المباح وقالت إن ترك الله إلى غد تسمع ما هو أغرب وأعجب » فكـان يستبقيهـا إلى تمام ألف ليلـة وليلـة فولدت الأولاد وما عاد قتلهـا جائزا.... فهذا الأسلـوب في وضع إطار القصة نجده قد انتقـل من تونس إلى صقلية ثم إلى إيطاليا فنجده قد استعملـه جوفاني سركامبي Giovani Sercombi (1347 ــ 1424) في روايتـه كما استعملـه الـكاتب الإيطالي أريوستو Ariosto صـاحـب أورلانـد و المـحتد Orlando Furiroso (1474 ــ 1533) فاستعمـل نفس الإطار في الأنشودة 28 من كتابه المذكور وهي قصة أستولفـو وجوكونـدو Astolfo-giocondo ومفهوم جـدا أن سـر هذا التأثير إما أتى عن طريق صقلية وسردانيا وقلـوريا Calabria التي كانت بأيدي المسلمين وكان بهـا قصاص مسلمون وإيطاليـون كما رأينا في غيـر هذا المـكـان، أو عن طريق الحروب الصليبية وعن طريق اللبنانيين النصـارى الذين كـانوا يقيمـون بـرومـة.

انظـــر :

— Chauvin - Livres arabes.

— BALDENS PERGER - Les origines arabes des romans de H. de Balzac.

وفي ألف ليلة وليلة قسم إيراني كبير فيه ملاحم ملوكهم واهم هذه القصص هي : الحصان السحري ، وحسن البصري وسيف الملوك وقمر الزمان والأمير بدور، والأمير بدر والأمير جوهر المسمندل ، واردشير وحياة النفوس.

انظر : Oestrup وهو عالم دانماركي نشر بكوبنهاغن عاصمة الدانمارك سنة 1891 كتاب دراسات عن ألف ليلة وليلة والكتاب بالدانماركية (Studier over 1001 Nat) ترجم إلى الروسية Kymski (Zslidnanie 01001 Moci Mouscou 1905) وإلى الألمانية O. Rescher: Oestrup Studien nebur 1001 Nacht Stuttgart 1925

ولخصه بالفرنسية Galtier ونشره بالقاهرة سنة 1912. وانظر عن ألف ليلة وليلة بوجه عام.

— C. Brockelmann - Geschichte der arabischen littératur. S. II 59.63 + bibliographie.

— Enc. de l'Islam - Nouvelle Edition S. V. Tome I. p. 369

كتب قصص فارسية اخرى

أورد ابن النديم أسماء هذه الكتب ومترجميها وهي لم تصلنا نحن لكن من الثابت أنها وصلت من قبلنا منذ العهد الفاطمي وهلم. وهي :

سيرة رستم واسفنديار : ترجمة جبلة بن سالم
كتاب بهرام شور: ترجمة جبلة بن سالم
كتاب شهرزاد مع ابرويز
كتاب الكارنامج في سيرة أنو شروان
كتاب التاج وما تعالت به ملوك فارس
كتاب دارا والصنم الذهب
كتاب اثنين نامه
كتاب خداي نامه
كتاب بهراج ونرسى

كتـاب أنو شـروان
كتـاب خـرافـة ونـزهـة
كتـاب الدب والثعلب
كتـاب روزبه اليتيـم
كتـاب مسك زنانـه وشاه زنـان
كتـاب نمـرود ملك بابـل
كتـاب المـربيـن
خليـل ودعـد
مـوسفـاس وفينلـوس
كتـاب حمـد خسـرو

قال ابن النديم : « أول من صنف الخرافات وجعـل لهـا كتبا وأودعها الخـزائن وجعـل بعض ذلك على ألسنـة الحيـوانات الفـرس الأول. ثم أغرق في ذلك الملوك الإشكانية وهم الطبقة الثالثـة من ملـوك الفرس ، ثم زاد ذلك واتسـع في أيام الساسانيـة. ونقلتـه العـرب إلى اللغـة العـربيـة وتناوله الفصحاء والبلغاء فهـذبـوه ونمقـوه وصنفـوا في معناه ما يشبهـه ».

وقال : «...ابتدأ أبو عبد الله محمـد بن عبدوس الجهشياري — صاحب كتـاب الوزراء — بتأليف كتـاب اختـار فيـه ألف سمـر من أسمار العـرب والعجم والروم وغيـرهم. كل جزء قائم بذاتـه لا يعلق بغيره ، واحضر المسامرين فأخذ عنهـم أحسن ما يعـرفون ويحسنون ، واختار من الـكتب المصنفـة في الأسمـار والخـرافات ما يحلو بنفسـه. وكان فاضـلا ، فاجتمـع له من ذلك 480 ليلـة كل ليلـة سمـر تام يحتـوي على خمسين ورقة وأقل وأكثـر ، ثم عاجلتـه المنيـة قبـل استيفـاء ما في نفسـه من تتميمـه ألف سمـر ورايت من ذلك عدة أجزاء بخط أبي الطيب أخي الشافعـي ».

ولا ننسى أن للخـلفاء والأمـراء والعظمـاء والأثرياء ندماء ومسامرين ولهـؤلاء كلهـم كتب في المنادمـة والأسمـار. ولا أن أمـراء المغـرب وملـوكـه كان لهـم مثـل ذلك وأن الرهادرة والحجاج والتجار عامة كانوا يجلبـون هذه الـكتب ويتناقلهـا الناس بالخط أو مشافهـة ويحرص القصاص

على اقتنائها لروايتها. لكن القضية تحتاج إلى بحث واستقصاء يكشفان في يوم غد عن البعض أو الجل أو الكل من هذه الكتب التي معظمها مترجم عن الفارسي.

الفصل الثالث

الألفاظ الفارسية الموجودة في اللغة التونسية

إبريق: يكون من نحاس أو من قصدير أو من فضة ومعه اللبان والطشت ويوضع على منضدة من خشب مكرش قرب قبو الغرفة أو في ركن من أركان غرفة الأكل. تتقدم به الخادم أو غيرها فتضع البشكير (المنشفة) على كتفها وتكون في الطشت الذي في الإبريق صابون ممسك أو أشنان. يغسل الضيف يديه وينشف فيعطره الخادم من المرش. ثم يغسل بعد الطعام ويمضمض فمه ثم ترشه الخادم فإذا جلس بخرته.

أنبيق : Alambic ويسمى أيضا قطار يستعمل في البيوت الخاصة في الربيع لتقطير ماء العطرشاه والورد والنسرين والزهر، ثم في الصيف لتقطير الياسمين. ويستعمله المقطرون في مخابر تكون بتونس وصفاقس وراس الجبل وبنزرت وأريانة وغيرها.

أشنان : نوع من الصابون للغسل

إيوان : ويستعمل في الفصحى التونسية أما في العامية فيقال « برطال » ج براطل من الإسبانية Portal . ففي باحة الدار التونسية إيوان أو ثلاثة أواوين أو أربعة. تتألف من أعمدة رخام أو كذان وبها عقود (أقواس) من مقطوعات رخام بيضاء وسوداء على التوالي من باب المقابلة antithese التي هي أصل الفن الإسلامي من الشعر والمعمار والموسيقى وغيرها وتسمى « الخادم والعلجية » أو القائم والنائم وتسمى بالفرنسية claveaux antithetiques .

آخـور: هي لفظ كان يستعمل لوحده ثم اضمحل وبقي في مركباته «ماخور» و «ميراخور» والأخور هو الإسطبل فيستعمـل إلى جانبـه «طبلـة» واستطبل وكـوري (écurie) وروا (مـن الإسبانيـة rua) وهو زقاق غير نافذ في البيوت الأندلسية بتونس يكـون مستودعا للعـربات ومربطا للخيـل.

أصبهـان : هـو مقـام من المقـامات في الموسيقـى.

أستـاذ : يستعمل بمعنى Professeu وتشتق منه أستاذية. وجمعه أساتذة. وصار .يستعمـل الآن أكثـر فأكثـر بمعنى Maître للمحامي (الأستاذ فـلان : Maître un tel).

أوسطا : أوسطا ج أوسطاوات وسطاوات هو تحـريف شعبي للـكلمـة التي قبلـه بمعنى العـريف المتفنن في صناعـة من الصناعات التقليـديـة.

ام البويه امالالوان الحرباءة

ب

بلـــوزه: Paloudé

بيـرق : هو العلـم بالفارسيـة إلى جانب سنجق بالتـركيـة والعلـم والراية واللـواء بالعربيـة ويسمى صاحبـه بيرقدار ومنه عائلة بيرقدار بتونس.

بيمارستان : (بيمار : مريض ؛ ستان : مكان ، مقر، موطن ، مستشفى) ويسمى بتـونس مرسطان .

بازار : من الفارسيـة بازر وقد دخل اللغـات الأوروبيـة Bazar .

بيـدق : قطعـة من قطع رقعـة الشطرنج .

بـرنـامـج : معـــروف .

بشـــراف : قطعـة موسيقيـة صامتـة من الفارسيـة بشـرو .

بنـج جهـار : أي خمسة وأربعـة من تـرقيـم كعـوب الشيش بيش clic-trac وتستعمـل أيضا بالتونسية بمعنى جهـارا ومباشرة وصار يقـول بعضهـم في العهـد الفـرنسي فراشما Franchement .

بازدار وبازيار : الذي يربي البازي ويدربه على الصيد ويكون مع صاحبه للصيد به
بزدره وبيزره : صناعته تربية البازي للصيد به .
بازونك: نوع سوار يوضع في الزند ويكون داخله أجوف توضع داخله عقود زواج أو غيره من الفارسية بازو الذراع ، وبند الرباط ، بازبند
بفطه : نوع قماش خفيف ويقال أيضا لشخص ليس من ذوي الوزن
باله : الربطه من التبن أو الصوف أو الحلفاء أو الأقمشة من الفارسية باله ومنها الفرنسية Balle.
برسم : هو الحرير أو نوع منه رفيع.
بيتنجال : (الباذنجان aubergine) من الفارسية باذنكان.
بنفسج : بنفسك Violette
بيجامه: دخلت حديثا. من الفارسية باي : رجل؛ جامه : ثوب. الثوب النازل إلى الرجل .
بيبونج : فمن الفارسية بابونج ، بابونك Camomille
بزركان ج بزرك : بمعنى الكبير وهو برقوق كبير، نوع من الخوخ Brugnon
بنج : فارسي
بقشش بخشش: عطية

ت

تخت : لها في التونسية عدة معان : قاعدة الدولة ، كرسي الملك، المنصة ، السبورة إلخ...
تختخوان : مكان جلوس النساء خلف البرمقلي

ج

جندار : « جندرمة » الفرنسية من الفارسية على ما يظهر لا العكس وكانت مستعملة بالمغرب في عصوره الإسلامية.
جركه : (جهاركاه) اصطلاح موسيقي
جولق : من الفارسية جواليق ثم صار شوال لنوع منه
جردقه : galette

جانيما: لفظ الخاتن عند الختن لإبعاد انتباه المختون في تلك اللحظة البسيكولوجية ومعناه بأرواحنا نفديك

جانم: لفظ تكميل واتكاء في الموسيقى ومعناه: ياروحي!

خ

خزنه دار: Trésorier نصفه عربي ونصفه فارسي. وهو بالعربية الخازن وبالتركية الخزنه جي ويستعمل في التونسية أيضا.

خان: بمعنى الأمير Khan ومنه الخاقان بمعنى الأمير الكبير أو أمير الأمراء.

خانه: 1) بمعنى الدار: أجزاخانه دار الدواء، الصيدلية، طوبخانه دار المدفعية، كتبخانه دار الكتب، دفتر خانه دار تسجيل الأملاك العقارية. المسافر خانه: دار المسافرين، النزل، الفندق، اللوكاندة Hôtel-Auberge

2) زيادة مستحسنة حشوية بين جملتين موسيقيتين، أو بين أطراف جملة واحدة

خندق: من الفعل خندن حفر، اسم مفعوله خندق وخندده الحفير Fossé

خرده: الاثار المعدنية البائدة أو الثياب الخلقة أو المتاع البالي يباع في سوق الخرده أو القشاشين أو سوق العصر وهي سوق تنعقد بعد صلاة العصر حول بعض الجوامع بتونس تباع فيهاالخردة(Marché aux puces)

خرداجي: بائع الخردة. ويسمى أيضا القشاش ومنه سوق القشاشين بتونس قرب جامع الزيتونة في الوسط الهندسي للمدينة.

خواجه: يقال لغير المسلمين من معلمي الصناعات ويقال لغير المسلم مطلقا وضاع هذا الاستعمال الآن.

ويطلق على الكاتب أو العالم. وينطق بالفارسية خاجه لأن الواو أمام الألف حرف مد. شعب منه خوارزم : خارزم

خوجه : تحريف للكلمة التي قبله مع توسع في المعنى. جاءت عن طريق التركية. وتفيد الرئيس والكاتب والمنشد في جوامع الحنفية أو في الجنائز ومنه الفعل خوج أي أنشد أناشيد محزنة لائقة بالجنائز ومنه وظيفةخوجة الخيل رئيس الإسطبلComestable الذي هو باش طبله وميراخور.

خربقة : ضرب من ضروب لعب الداما في الريف التونسي ونظن الكلمة فارسية

خاقان : رئيس المنطقة، واسم علم

خشكار: هو الدقيق الذي لم تنزع نخالته وينطق بتونس بالكاف كشكاره خبز كشكاره خبز خليط. ومن الناس من يستحسنه ويراه أكثر صحية.

خيزران : نوع من القصب رفيع واسم شخص مؤنث.

خسرف: اسم عائلة بتونس :

خشاف: (خوشب آب)

خيرى: giroflée

وقد دخل الاسبانية aleli

خام : لم تدخله الصناعة

د

دهليز : Corridor, Souterrain

ديباج : نسيج من الحرير اسمنجوني غالبا

دوشيش: في لعب الشيش بيش

دوبش: مثله

دوكاه : المقام الثاني في الموسيقى

درابزون: لعلها فارسية أو لعلها يونانية Trapezon

دست : العرش والمنصة

دستـور : القانـون الرابط بين الحكـومـة والشعب
درويش : البهلـول الذي يميل إلى التخلـع في بزته وسلـوكـه والصوفي المتصرع ، ومنه المثـل : اعمل نفسك درويش تعيش.
دفتر خانه: مصلحة الاملاك العقارية
دبلج : دملج
دولاب : عجلتـان يدور عليهمـا سيـر فيـه قفص لرفع الأحمـال إلى أعلى بين الطابق والطابق Monte charge أو مجمـوعة نواعير rouage أو دائـرة تجاريـة أو فلاحيـة. cycle
ديـدبان : paravent يـكـون من البرمقلي أي أخشاب رقيقـة كالأصابع مشبكـة مع بعضهـا تجلس وراءهـا المرأة تـرى ولا تـرى عنـد تسميع العدول في عقـد الزواج اوبيع اوايجـار اوعنـد حضور مجلس طـرب أو غيـره.
دوس : بمعنى الصديق لفظة حشوية تعجيبية اشتكائية تقال في الموسيقى
دهقـان : رئيس القرية. فهو الشيخ بتونس والعمدة بمصر والمختار بالشام.
كأنما الدلفـاء ياقوتة* أخرجت من كيس دهقان
دار صيني: معناه بالفارسية شجر الصين. وهو نبات يشبه القـرفه ذكـره الطبيب التونسي إسحاق بن سليمان في تأليفـه (كان يعيش على عهـد الأغالبة : انظـر . ابن أبي أصيبعـة طبقـات الأطباء)
ديوان : مجمع مجموع
ر
رستـاق : الـولايـة الـكـورة
رروشـن : المشرفـة، الطبق، الخـراج ، القناريـة. Galleria, Balcon
رشتـه : نـوع دويـدة Vermicelle
رخ : قطعـة من قطـع رقعـة الشطـرنـج
رزنـامـة : من روز : يـوم ، و نامة : كتـاب. الـكتاب اليومي ، المياومة وتقويم يومي شهري سنويCalendrier, Almanach
اهنامج : راه: الطريق ، نامج ، نامه : كتاب ، كتاب الطريق الخـريطـة البحـريـة

رهدان أو رهدار : مسافر تجاري ينقل الأخبار والكتب والأقمشة وأحدث البضائع من الصين إلى نورنبيرغ مرورا بكافة الأقطار . وله سوق بالقيروان يسمى سوق الرهادرة.

راوند : نبات طبي rubarbe

ز

زنديق : في الأصل الذي تتبع الزنداقشتاب وهو كتاب زرادشت Avesta de Zorastre ثم هو المنحرف عن الدين القويم المراوغ المتلاعب ذو الوجهين

زلابيه : موجودة بتونس في رمضان على الخصوص وأفضلها ما كان من باجة أو من نابل . وتهدى ليلة السابع والعشرين إلى رؤساء الدولة وكبار القوم.

زرياب : اسم علم لموسيقار كبير ربما أقام بتونس قبل آن ينتقل إلى الأندلس ، جاء في آخر أيام بني الأغلب.

زرنيخ : arsenic مادة كيماوية

زرنيس : نوع خرشوف بري ذهبي

زرده : وليمة موسمية تقام لولي أو شبهه تكون فيها الدعوة عامة

زربوط : الخذروف Toupie

زركولاه : مقام موسيقى

زندالة : سجن. ماجل. اختزان للماء أو الزيت

زربيه : من زر ،آب: ماء زرابية منسوبة إلى ماء الذهب

زركشه : التطريز بسلك الذهب

زركشي : المطرز بسلوك الذهب. مؤرخ تونسي في العهد الحفصي.

زرداب : سرداب ممر تحت الارض

زاوق : الزئبق Mercure

زنزار : (زنجار) هو صدأ النحاس

زنزير : السلسلة ، المنقاش

س

سـرادق : خيمـة الأميـر الـكبرى عند أمـراء البربر آساراك

سـواري : (أسـوار) الجنـدي الفارس

سبـاهـي : spahis (سبى قاضي) ضرب من الجند يركب الخيول قديم العهـد أحياه الفـرنسيون كجند استعماري.

سـراي : (صرايا) القصر ، مقـام الحكـومـة.

سبت : سفط panier

سـاده : ساذج Simple

سـروال : سراويـل بالإسبـانيـة Zaraguellos-Pantalon

سـكـاه : مقـام مـوسيقـى

سمسـار : Courtier بالإيطـاليـة Semsale

سمسـريـة : مهنـة السمسـار وأجـرتـه بالإيطاليـة Semseria

سـكـر : Sucre

سـكـردان : خـزانـة السـكـر buffet

سـكـرجـة : صحفـة bol

سفطـه : متصوف، ولي، درويش (اسم عائلـة تركيـة)

سفتجـه : Registre Officiel

سكنجبيـر : Gingembre

سـردار : رئيس الجيش

سـرهنك : ضابط أعلى

سكبـاج : نـوع طعـام

سيـكـران : Cigue

سـوسـان : سـو سن اسم زهر

ش

شيشـــه : زجاجـة ، نـرجيلـه
شـاهبنـدر · : أميـن التجـار
شيشمـــا : Fontaine
شـــاه : Chah
شطـــرنـــج : Echec
شيش بيش : Jacquet, Clic-trac
شنقال : crochet

ص

صيـوان : Civière من الفارسيـة سائبـــان
صاده : ســـاده
صارميـه : سـرمايـهء Capital
صـارمـة : فضـة مذهبـة يطـرز بهـا
صمصـــه : نــوع بقــلاوة مثلثـة

ط

طبـــــر : halle barde رمح فيه زج وشاقـوران
طـرشي : Navet en saumure من الفارسية ترشهالمالح المملح
طـــازه : طـــرى Frais
طشـــت : tasse
طيفـــور : grand Vase en cuivre
طيقـــار : tiare
طـرطـور : bonnet
طـربـــوش : (سر + بـوش) couvre-chef غفاره، غطاء الـراس
طـومـــار : grand format un plame، بالقطع الكبير
طـــراز : broderie
طابانجه : بندقية قصيرة
طبخانـه : دار المدفعية

ف

فــروخ : السعيـد اسم علـم

فهـرسـت : index

فـرمـان : firman أمر سلطاني تركي ، مـرسـوم ملكي

ق

قــربي : gourbi masure

قفـكيـر : écumaire

قـركـاف : Métier à broder

قرمسود : قماش الهند، الذى يعطي الدفء

ك

كــلاح : كــلاه

كـامـخ : salaison

كبــاب : Kebab ragout de viande

كليم : نوع زربية

ل

ليــان : لـكـان

م

مـرزبـه : Sceptre

مـرزبــان : صاحب الحكم في القرية

مهـرجــان : اسم الاحتفال الشمسي وصار يطلق على الاحتفالات الباهرة

مـوبـذ : ج. مـوبذان رئس دين زردشت

ميخانـه : الحانة

مــاخــور : مكان شرب الخمر

ميـراخــور : امير الاصطبل

ميـرزا : ابن الأمير

ميـزاب : مسيل المـاء

ن

نـــاي : القصبة (آلةطرب)

نـــرد : نوع من اللعب ، نوع الشجر

نيـــروز Néróuz

نيـــارنـــج : البرتقال

نيـــرج :نوع من الأدوية الحلوة الطعم

نمـــوذج : النمط ، والعرض، والعينة من الشيءيقابله من التونسية (المشترة)

(ه)

هـربـد : ذكرها ابن خلـدون كقس لمعبد النيران

هـردبـــه : نوع من الحلويات معروف في تونس

(و)

وزيـر : الوكيل، مساعد الملك

(ي)

يـاكـــاه : المقام الأول في الموسيقى

يـاشب : نوع من الأحجار الكريمة. jaspe

يـــك : معناه الواحد ومنه :(اليك في اليك)

الفصل الرابع

المسرح

المسرح البربري

لقدماء البربر مسرح رقصي ناري (فيه أم عوف أي نار توقد ويحرق فيها تمثال من خرق يمثل السنة المنقضية التي ذهبت بشرها). فإلى أي مدى يتصل هذا المسرح الرقصي الغنائي الناري المصور للأحداث بالمسرح الإيراني القديم باعتبار أن فريقا من البربر من الإيرانيين.

(انظر E.Basset - Essai sur La littérature des berbéres.)

التعزية

كان للفاطميين مسرح ديني يمثلون فيه أحداث عاشوراء من استشهاد سيدنا الحسن وسيدنا الحسين.

وهذا المسرح الديني الشامل لجوانب من تاريخ الإسلام هو باعث المسرح الديني الأوروبي Théâtre de mystère في القرون الوسطى.

الباب السادس

الفنون

الفصل الأول

الفنون المعمارية

تنقسم الفنون المعمارية إلى :

1) فنون كبرى ، وهي العقاريات أعني القصور والمساجد والمدارس والقلاع والأسوار والأربطة وغيرها. وهي تنقسم بدورها من حيث مقصدها إلى :

أ) فنون عسكرية : الأربطة والقلاع والأسوار والخنادق والشكنات (وكانت تسمى بتونس قشله من التركية قشلاق محل قضاء الشتاء)

ب) فنون دينية : المصليات والجوامع والمساجد والخلوات والزوايا والتكايا والبيمارستانات (المستشفيات) والمقابر والأسبلة والحنايا والآبار.

ج) فنون ثقافية : الكتاتيب والمدارس وديار الكتب وأسواق الوراقين وبيوت الحكمة ومعاهد الخطاطين والمجلدين وصناع المداد واللك والطلاء والكواغذيين والقراطيسيين.

د) فنون سكنية : القربي والدار والقصر والسراي والفندق والخان.

هـ) فنون اقتصادية : الأسواق والرحاب والدكاكين والوكالات والفنادق والعتبات العلية.

و) فنون اجتماعية : الطواحين والحمامات والأفران والآبار والمواجل والبرك ودكاكين الحلاقة .

وهذه الفنون الكبرى على اختلاف أنواعها تنقسم من حيث مواد تتركب منها إلى :

- المواد البنائية الضخمة من حجارة أو آجر أو طابية أو خشب أو حديد.
- المواد التلبيسية من رخام وكذان وزليج وفسيفساء وزجاج وشمسيات وحشويات.
- فنون زخرفية من سقوف مزخرفة ومقرنسة ومرصعة بالعاج والصدف وملبسة بالذهب ومموهة بالأصباغ ومزينة بالآجر البسيط أو الممزوج بالزجاج ومن نوافذ مزخرفة وأبواب ملبسة بالنحاس المموه بالذهب والمزينة زينة بارزة وغائرة ومن حلقات طرق ومن شاذروانات وفوارات وبرك وكشكات ونواعير وساعات مائية وشمسيات (Vitraux)

2) الفنون الصغرى أو المنقولات ، وهي :

أ) الأثاث والرياش من حيطيات واسرة وكراسي ومقاعد وصفيات ومرافع وزرابي ومعلقات ولوحات خطية أو رسمية زيتية أو مائية وتماثيل وتحف.

ب) الأنسجة من حريريات ومزركشات وطراز وصوفيات وقطنيات وكتانيات بسيطة أو مطرزة وما يتخذ من ثياب وطنافس ووسائد ومنابذ ومساند وغيرها.

ج) الحلي من ذهب وفضة وأحجار ثمينة وجواهر وعنبريات ومرجانيات وصدفيات وعاجيات.

د) النحاسيات الزخرفية كالصواني والأطباق والأباريق واللايانات والطشوت وأواني طبخ رفيعة ومباخر ومرشات.

هـ) الغضاريات المطلية والصينية من أوان وفناجين وجفان وزهريات وسكريات وأواني حلويات وأواني غوالي زينة.

و) الزجاجيات المذهبة والمنقوشة والمزخرفة « على العالي » من مرشات وقناني عطر وزجاجيات شرب.

ز) السلاح الزخرفي من بنادق مرصعة وسيوف مموهة ودرق مزينة وخناجر منزلة إلى غير ذلك.

فهـذه هي الفنـون المعمـارية بالمعنى الأوسع وكل هذه الفنـون الصغرى التـي جاءت على عهـد الفينيقييـن وتلقحت بالفنـون اليونانيـة ثم البيزنطية كانت منذ عهـد الفينيقيين ثم الإسـكنـدر ثم الـرومان متأثـرة غاية التأثـر بالفنـون الإيـرانيـة في أصل استنباطهـا وأنـواع زخـرفهـا.

فخذ الطبـر الإيـراني الذي هو عنـوان زخرف السـلاح الإيـراني منذ العهـود القـديمـة قد بلـغ أوج رقيـه الفني بتـونس على عهـد الفاطميين ودخل أوروبا في نفس الوقت Hallebarde وصار رمز الحراسة الملوكية وحتى رمز الشـرفات في الأسوار. والطبر هو الذي يعطينا صورة واضحـة من الزخرف الإيرسي Fleur Delysé الذي نـراه في الأقمشـة والرموز والـروانك والشارات الملـوكيـة الكسـروانيـة.

ولا شك أن الأثاث والـرياش والأقمشـة والطراز إن لم تـكـن أساسا من أصل فارسي ـ وهو الأرجح ـ فهي على الأقل متأثـرة بالفن الإيراني، لا سيمـا الأقمشـة الحـريـرية المطـرزة والمزركشة والمصورة بالدهن الطباعي الخشبي. وكذلك الحلي على اختلاف أنواعـه الذي فيـه أسماء فارسية تدل على أصلـه مثـل بازبند وطيقـار ودملـج.

وفنون النحاس المنقوش والمرصع من اباريق وطشوت واطباق وصواني وقدور وطيافير اصلها من ايران والاناضول ومن زار اسواق الصفارين بمدن ايران او بغداد او دمشق وزار سوق النحاس بتونس او اسواق جامع الزيتونة لم يشك انه لم يغادر مسقط راسه المشرقي.

وما قلناه فيما سبق نقوله في الزجاجيات التي هي على الاكثر الشمسيات Vitraux الموجودة في جامع القيروان منذ القرن الثالث هجري والتي هي نقطة الانطلاق للشمسيـات التي ظهرت في كنائس اوروبا في القرن الحادي عشر بموجب الفن المدجن art mudejar لذلك نميل الى الاعتقاد بان هذا الفن قد نشأ بالقيروان ومنها انطلق مشرقا ومغربا.

كذلك الفوانيس الزجاجيـة الموجودة بالجوامع هي ايضا من الفن التونسي المتولد من معامل زجاج صبرة ثم معامل زجاج المهديـة والتي انتقلت الى اوروبا

حتي اشتهرت بها مدينـة بجزيرة سردانيا تسمى مدينـة نورة Nuoro قرب العاصمة كالياري Cagliari . يدلنا على ذلك ان ناصر خسرو وصف لنا هذه الفوانيس التي رآها في جوامع القاهرة في السنوات الخمسين الاولى من ظهور الفاطميين بها خصوصا بالجامع الازهر وبجامع الفسطاط الذي اشتراه الخليفة الحاكم وزينـه بفوانيس ثريات عجيبة اندهش لها ناصر خسرو مع انه زار قبل ذلك جوامع ايران والعراق والشـام . ويجب ان يحرر البـاحثون يوما ما هل ان الزجاجيـات القيروانيـة ام الزجاجيات الايرانيـة من شمسيـات وفوانيس اسبق فـان الزجاج القزحي موجود بقرطاجنـة منذ القرن السادس او السابـع قبل الميلاد . لكننا نعني بالـذات الشمسيات والفوانيس لا عموم الزجاج ولا الزجاج الآجري.

وقد تحدثنا عن الغضاريات في غير مكان فلا حاجة الى الرجوع اليها. واما الفنون الكبرى فقد تحدثنا عن القسم العسكري منها في باب اخر. وتحدثنا عن التلبيس من رخـام وخشب وزليج وفسيفسـاء، وعن المضافات من شاذروانات وبرك ومحنشات ونواعير فلا نعود .

ولكن لم نتحدث عن فن البساتين التونسية. فان البستان التونسي القيرواني الذي نجد آثاره في (رقادة او المنصوريـة او العباسية أو القصر القديم) والذي نجد آثاره في بساتين منوبـة وباردو واريانة ورادس والمرسى وجبل المنار وقمرت وسكرة من ضاحيـة تونس، هذا البستان مدين للفن الايراني بكثير. اولا بـاسمه (فكلمة بستان محـل الرائحة الـزكية) ثم بتصوره الفلسفـي. فالبستان التونسي ذو مركز يلتف حوله بقية البستان ويؤول اليه فاذا جلس صاحبـه في مركزه ظن الدنيا تاتي اليه وهو قلبها. وهذا المركز هو ناعورة او بركة أو شاذروان او كشك. اما البستان الاوروبي فهو مجموعة مماش (ج. ممشى allée) ذاهبـة الى اللانهايـة من لامركز فهي اشعاع بلا كوكب وبلا قـرار.

ولا شك ان فلسفة بستاننا هي فلسفة بوذيـة قبل ان تكون فلسفة اسلامية. فبوذا ينظر طول دهره الى سرته التي هي قلب العالم في نظـره وصاحب البستان في تعقيله الانفرادي الذي هو قلب العالم egocentriste يعتقد او

يتوهم ان على العالم ان ياتي اليه، يتحفه بما عنده من ازهار عطرة ومناظر اشجار نضره، وموسيقى اطيار مغردة وخرير انهار منسابة وظلال اغصان. برودة صامتة هامسة مدنوة ومدرهمة تتلاعب فيها دوائر النور والظلام كتعاقب دوائر الحياة والموت.

هو يطلب من المسافر العطشان المتعب ان يشرفه بعقر بستانه ليقوم بواجب الضيافة ، ليتبرد في الساقية المتدفقة الرقراقة الى جانب الحسون المرفرف المؤتلق بالاصفر والاحمر والاسود والابيض كانه قطعة مصوغ متحركة عصبية طائره فيها انواع اليواقيت ذات الالوان الزاهية. وليشرب من قادوس الناعورة ماء عذبا سلسبيلا كانه رحيق الفردوس. وليا كل ما يسرله الله من طعام شهي فتراه يدغدغ الانوف وتتحلب له الافواه وتنق له ضفادع البطن. ثم لينام على زربية هي روضة صغرى تحت ظل الاشجار ومعرشات الازهار من ورد وياسمين ونسرين ولبلاب تهدهده رقصات الاغصان الثملى الطروبة المياسة وتغذي احلامه اغاني الشحرور والحسون والبلبل الصداح وتروح عليه مراوح النسيم العليل الخفية. فرب البستان الاناني غيري كريم في انانيته

وهذه الازهار والاشجارالتي في البستان هي نفسها من اصل ايراني في الغالب قد تناسقت عطورهاوتفتحت زهورها وضاع عبيرها وساغ اثيرها، وتنوعت الوانها وتراقصت
افنانها.

والشاذروان والكشك اليسا فارسيين ؟

الفصل الثاني

الموسيقى

الموسيقى البربرية هي الموسيقى الاولى التونسية بعد الموسيقى الزنجية التي وجدت في العصر الحجري وبقيت الى الآن. ثم جاءت الموسيقى الفينيقية وهي من اصل سامي تشبه الموسيقى الاشورية واليمنية والعربية والعبرانية. ثم جاءت الموسيقى الرومانية ثم الموسيقى البيزنطية وهي متولدة من الموسيقى اليونانية. ثم جاء العرب ومعهم الحداء الذي لا يزال موجودا عند المرازيق في الجنوب الغربي التونسي وجاءت الاناشيد العسكرية والاغاني العربية الاولى، لكل قبيلة أصولها في الغناء فهناك الغناء اليمني والغناء الحجازي والغناء العراقي والغناء الكويتي عند بني مطير المغاربة فليس وجود الآقوار المغربي والمرواس الكويتي وهما متفقان تماماً بالامر الذي هو عفوي.

ومعلوم ان الموسيقى العربية – منذ العصر الاموي – هي موسيقى ثلاثية اي عربية وايرانية ويونانية. فمنذ عصر الولاة والموسيقى التونسية مثلثة، وزاد ذلك تاكيدا ان الدولة المهلبية كانت متفرسة مستعجمة، وان ثلاثين الفا من العائلات الخراسانية بتونس لها وزنها في التاثير الموسيقي، ولا شك ان الموسيقى الخراسانية التي هي وريثة الموسيقى الساسانية كانت غنية جدا متنوعة فنية، فكان الناس يطربون لها اكثر، ولما كانت جديدة وغير معهودة فلكل جديد طربة. على اننا نعتقد ان الموسيقى كانت موزعة حسب المناطق فمناطق الجبال العالية والصحاري والجزر التي يغلب فيها البربر كانت موسيقاها بربرية الى الآن، وان مناطق

الجبال المتوسطة الغربية ومناطق الظهريسة التونسية التي تكثر فيها القبائل اليمنية موسيقاها يمنية. وان مناطق السهول الشمالية على ضفاف مجردة او بين سلاسل الجبال التي معظم سكانها من الشاميين والتي هي وريثة قرطاجنة البيزنطية فموسيقاها شامية مزيج بين العربية والبيزنطية. وان مناطق القيروان التي بها بنو تميم والمعافر والبلويون والخراسانيون فموسيقاها فارسية وعربية متفرسة.

وهذا ما يفسر لنا اسماء المقامات من حجاز وعجم وكرد وماية (فارسية) واصفبهان وعراق وحسين الى غير ذلك. وتفسرها ايضا المصطلحات الموسيقية التونسية التي اكثرها فارسي (يكاه، دوكاه، سكاه، جهاركاه، وبم، وزير، ودستان، وناي، وسرناي، وبشراف، وطاقم، وطمبور، وبربط، وكمان، وكمانجه، وزيركولاه).

فمنذ الدولة المهلبية قد تبين كل شيء وارتسم اطار الموسيقى مرة نهائية باستثناء ما سياتي في عهد الصنهاجيين من موسيقى اندلسية وموسيقى بدوية عربية، وفي آخر ايام الحفصيين من موسيقى تركية.

ثم جاء الاغالبة، وظهر بالقيروان درب النبابذة في الناحية الشرقية من المدينة وجاء –او على الاقل مر– زرياب وانتصب مؤنس البغدادي الموسيقار الذي استمر الى ايام الفاطميين وكثرت في القيروان الجواري الاديبات والمغنيات الراقصات من زنجيات وبربريات وصقليات وجلبت من بغداد الجواري الصفر. ونحن إذا طالعنا كتاب معالم الايمان لابن ناجي القيرواني – مع انه كتاب في طبقات الزهاد والنساك – نجد فيه الكثير من اخبار الجواري المغنيات، وكذلك كتاب الحلة السيراء لابن الابار فيه الكثير من ذلك ايضا.

ثم لما جاء الفاطميون استمر مؤنس البغدادي على الاشراف على الفن التونسي المتبغدد المتفرس. وفي هذا العصر بالذات سادت نظريات ابن سينا في الموسيقى (980/1037) كما سادت كتبه الطبية وبلغت تونس. وفي نفس العصر ظهر الفارابي الموسيقار الفيلسوف (توفى 950م.) وجاءت كتبه الفلسفية والموسيقية فانتشرت بالقيروان والمهدية.

وفي عهد صنهاجة دخل تونس صنفان من الموسيقى الجديدة ،

اولهما : الموسيقى الاندلسية المبنية على الموشح والزجل والمفارقات. جاء بها امية بن عبد العزيز بن ابى الصلت الداني المهدوي. والموشح باقة من الاوزان والقوافي للخروج من القصيدة التي هي ذات قافية واحدة، ودخول وطالع وابيات. فالطالع انشاد جماعي والابيات انشاد فردي، وذلك للخروج من الانشاد الفردي الذي كسر آذان الناس ومجته النفوس والاذواق السليمة والحس الصالح كما يقول ابن حزم. وانتصب المعز بن باديس الله شبه خصم للموسيقى الاندلسية، فاستدعى من الشرق جماعة من الموسيقيين والجواري المغنيات كونوا نهضة موسيقية جديدة على الطراز القديم الى جانب الموسيقى الاندلسية القادمة على يدي امية بن عبد العزيز.

الصنف الثاني : الموسيقى الهلالية. وذلك ان الاعراب القادمين من السودان وصعيد مصر جلبوا معهم اوزانا جديدة ونماذج جديدة من الشعر الشعبي ومعها تلاحينها فانتشرت هذه الاغاني كل الانتشار في البوادي والقرى وحتى المدن، واستعذبها الناس ونسجوا على منوالها ولا يزالون ينسجون الى الآن حتى من كان من ذوي الشعر الفصيح اصالة من التونسيين مثل مصطفى آغة والشاذلي خزنه دار وعبد الرزاق كاراباكه واحمد خير الدين وبلحسن بن شعبان وغيرهم.

وفي هذا العصر ظهر ابراهيم الرقيق القيرواني الشاعر الكاتب المؤرخ السفير، والف كتاب "قطب السرور في اوصاف الخمور"، وقد طبع اخيرا بعناية المجمع العلمي العربي بدمشق فعلمنا منه اخبار الموسيقى القيروانية الافريقية ومجالس الانس وتاثير الموسيقى الايرانية وصار عندنا كتاب في وصف موسيقانا في عصرها الذهبي.

على ان من يراجع مجموعات الغضار المطلي الفاطمي والصنهاجي بتونس واغلبها يحوي صور مجالس الطرب في ذلك العصر بتونس، يرى انها تشبه من حيث اللباس والآلة وحياة المجلس ما نراه في المنمنمات الايرانية في مقامات الحريري او دواوين رباعيات عمر الخيام.

واذا قابلناها بصور مجالس الطرب بالاندلس التي نشرها خوليان ريبيرا : (Jullian Ribera : La Musica de las Cantigas) راينا الفرق عظيما.

ثم ان الموسيقى الايرانية استرجعت مكانتها في العهد التركي لان الموسيقى التركية نفسها فيها عناصر ايرانية لا يستهان بها لا سيما المثنوي في الحان المولوية (مريدي مو لانا جلال الدين الرومي بقونية وغيرها). وخصوصا في المصطلحات التي اكثرها ايراني وقد راينا هذا مرارا. فماذا عسى ان يكون الغد ؟

لاشك ان الموسيقى الايرانية في مصطلحاتها وآلاتها ومقاماتها ومواضيعها هي مصدر استيحاء لنا، مثل الموسيقى التركية. ونحن في حاجة الآن الى مصادر استيحاء جديدة منها مشاهدنا الوطنية وتاريخنا الوطني وملاحمنا الوطنية وفولكلورنا الوطني. ولكن هذه الموسيقى الايرانية صارت بالامس جزءا لا يتجزا من موسيقانا فاحر ان تكون كذلك في مستقبل الايام وأحر بالموسيقى الايرانية ان تستمد عناصر تونسية اندلسية كما فعلت يوم كان محي الدين عربي بقونيه ينشر ازجاله التصوفية الباقية في مكتبة بشير آغا بتلك المدينة. فاذا كان كذلك في عهد السلاجقة، فلماذا لا يكون كذلك الآن ؟

الفصل الثالث

زخرفة الكتب والنمنميات

اذا تصفحنا المصاحف القيروانية التي ظهرت خلال العهد المهلبي والعهد الاغلبي وجدناها مذهبة منمنمة مزخرفة الى ابعد غاية. ووجدنا الخط الكوفي قد بلغ فيها منتهى زخرفه اذا استثنينا ما سيظهر في العهد الصنهاجي من تزهير وتوريق وتشجير وتعنيق وتفريع ومن كوفي بديع يعتمد على الخصوص على المفارقات وهي الاسترقاق والاستعظام Pleins et Deliés اي ان الجزء الدقيق دقيق جدا والجزء الضخم ضخم جدا كي تظهر المفارقة Contraste بينهما (انظر : Arts Islamica).

فمن نظر في مصحف الفتاة القيروانية فضل قضى العجب من جماله فكانه مسبق عن النميات الفارسية، ارضية المصحف فرشة من الكمثرى والتفاح الصغير جدا والشفاف كانه خيال مع ظهور طيف من الوانه، وهو فوق رق غزال كانه السندس والكتابة كوفية رائعة محضنة بالسواد والاسمانجوني. ومن راى مصحف الرق الازرق المكتوب بالذهب راى اعجوبة الدنيا . وقد دخل الزخرف المشهدي المصاحف التونسية التي لنا منها مشاهد رائعة. وكانت العادة بالقيروان ان الفتاة المقبلة على الزواج تهدي الى ضريح الصاحب ابى زمعة البلوى دفين القيروان مصحفا من خطها وتزويقها وتنميقها وزربية صلاة بنفس الاسلوب وهي تهدى الى حميها نفس الشيء، فتكونت من ذلك مجموعة من المصاحف الفريدة والزرابي الوحيدة.

وفي هذا العصر الاغلبي انتقل الكتاب من الدرج Roll-rouleau الى الكتاب المفلطح المجلد. وجاء التجليد عن طريق القبط المصريين ولنا مجموعة كبيرة من التجاليد القيروانية وهي من خشب مجلد والتجليد مزخرف.

(انظر : G. Marçais : Objets Kairouannais)

فالمصحف مزخرف والتجليد مزخرف. والتجليد يوضع في مسر من حرير مطرز مزركش، ويوضع الكل في ربعة من خشب السرو مكسوة بالصدف او الفضة المزخرفة. فانظر الى هذا الكل الفني التقني الجبار.

ويبدو كأن هذه المصاحف المزخرفة بالزخارف الخطية والهندسية والنباتية قد مهدت السبيل ليس فقط لتقنية ممتازة ولكن ايضا لمواضيع زخرفية اعطت صورة مسبقة عنها، وكانها تعلن عن قدومها فبقي منتظرا بمقدار ما هو متحتم وهو المنمنمات الفارسية Miniatures Persanes التي صرنا نجدها :

اولا : في المصاحف المصورة التونسيـة

ثانيا : في كتب مدائح مخلفات الرسول الاعظم مثل النعلين والعصا والبردة والمسواك فقد تفنن الفنانون التونسيون والمزوقون للكتب في تصوير ذلك بغاية الابـداع.

ثالثا : في مقامات الحريري او كتب النوادر مثل نوادر جحا او انباء نجباء الابناء او سلوان المطاع لابن ظفر الصقلي.

رابعا : كتب العشابين الذين يصورون الاعشاب بقضبانها واوراقها وازهارها واغصانها.

خامسا : كتب الطب التي يصورون فيها الاعضاء والالآت الطبية.

سادسا : كتب البيطرة التي تصور فيها الحيوانات واعضاؤها وادواءها وتنعيلها والات علاجها الى غير ذلك.

سابعا : كتب البزدرة التي تصور فيها الجوارح ومشاهد الصيد الطرديات

ثامنا : والتصوير هذا النباتي او الخطي او الهندسي او البشري او المشهدي قد دخل الرخام منذ العصر الفاطمي (مجلس طرب على عهد الفاطميين بتونس) والخشب (رحلة الفاطميين من المنصورية الى القاهرة — دار الاثار الاسلامية بالقاهرة)، والفضار، والكتب، والاقمشة، والسلاح، والزجاج، والعاج، مما يطول الحديث عنه.

انظر : ديامند : الفنون الاسلاميـة — Pope: The Persian art

Pearson: Index Islamics

الفصل الرابع

صناعة الخشب

صناعة الخشب بالقيروان تتمثل في السقف والمنبر وخزائن الكتب وخشب التجليد. وهي كلها راجعة إلى العهد الأغلبي (249 بالضبط) فالسقف والمنبر والخزائن من خشب الساج الذي جلب من الهند الصيني لتصنع منه عيدان ، فلما أفاق الملك الأغلبي الذي أمر بذلك من سكرته، أمر أن تصنع منها منابر الجوامع وخزائن الكتب وسقوف المساجد.

ثم ارتقى هذا الفن إلى أن بلغ أوجه في المقصورة الخشبية التي بناها المعز بن باديس الصنهاجي والتي هي على يمين المحراب.

فجوائز السقف مخرمة بالخط الكوفي البارز في الصميم ومموهة بالزخارف الزيتية الرائعة والمنبر مؤلف من آلاف المواشير الخشبية الملفقة مع بعضها (أنثى في ذكر) بدون غراء ولا مسامير وإنما يسخن الموشور الأنثى فلما يحمى يدخل فيه الموشور الذكر ويصب عليه الماء البارد فلن يتحرك بعد ذلك. وهو كله مربعات فيها الزخارف الهندسية من خطوط مستقيمة على اختلافها ومن خطوط مستديرة على اختلافها ومن مربعات ومستطيلات ومعينات ومن زخرف نباتي وزهري وهو أمر عجيب. ويبدو أن هذا الفن انتقل إلى السلجوقيين فإننا نجد في الجامع الكبير بمدينة قونية عاصمة السلاجقة منبرا يحاكي منبر القيروان ويقاربه في الزمن.

الباب السّابع

الصّناعات التّقليديّة

يجـوز جدا أن الـكثير من الصناعات التقليـديـة التي أتى بهـا الفينيقيون من البـلاد الشـرقيـة هي من أصل فارسـي، كالزربيـة. فإن البربر ما كانوا يعـرفـون من النسيج إلا نسيـج الصـوف والحلفـاء والدوم (الجمـارـ Palmier Nain) والأسل (السمـار Jonc) والخـوص Vannerie . فجلب الفينيقيـون مـادة البـردي Papyrus والقطن والـكتـان والقنب ونشروها في بـلاد البربر حتى عمت وصارت ليس فقط بضاعـة استعمـال داخلـي بل أيضا بضاعـة تصديـر. والبربر يعـرفـون الفخار لـكـن الفخـار الغني المـزخـرف أتاهم من مصر ومن إيـران ومن اليونان خصوصا ابتـداء من القـرن الـرابع قبـل الميلاد، وسنـرى أن الغضار القاشاني أو المطلـي أتى القيـروان في القـرن الثالث الهجـري على يد إسمـاعيـل الطلاء. أما خدمـة المعـادن والخشب المرصـع بالصدف أو العـاج والأنسجـة الـرفيعـة والصباغة العالية بالفرفير Pourpre وهو ذرور أحمر أرجواني يوجد في محاربحري يسمى Murex يصبغ به الفينيقيون الثياب الرسمية فقد جلبها الفنييون لامحالة.

فأغلب الظـن أن أهم الصناعات التقليـديـة التـي أتى بهـا الفينيقيون من إيـران هي الزربية ـ بدليـل أن الزربيـة البربريـة تسمى كليـم (من الفارسية إكليـم) ـ والمنسوجات والنجارة الرفيعة والحدادة وصنعـة الفسيفسـاء ونقش الحجـر الفنـي والصباغـة والصياغة الشرقية. أمـا في العصور الإسلامية ـــ في العصر المهلبي بالذات والمهالبة كانوا أمراء بإيران ـــ جاءت صناعات أخرى:

الزربية

جـاءت صناعة الزربية الإيرانية فتظـافرت مع الزربية البربرية والزربية

البيزنطية المتخلدة من العهد البيزنطي في تونس في إيجاد الزربية القيروانية الخالدة، وهي زربية عالية الصوف دقيقة العقدة طبيعية الأصباغ تجتمع فيها الزخارف الهندسية المستقيمة والمنحنية والزخارف النباتية والزهرية والزخارف الخطية، كما دخلتها الزركشة والتكليل بالجواهر فقد روي أن أحد خلفاء الفاطميين بمصر اشتاق إلى تونس بعد انتقال الفاطميين عنها وأراد تذكارا من تونس فصنعت له زربية فنية فيها خريطة تونس مصورة. وكانت ولا تزال عادة فتيات القيروان أن يتأنقن في صناعة زربية يهدينها إلى مقام الصاحب أبي زمعة البلوي دفين القيروان قبيل زفافهن. وقد جاء في كتاب « التبصر بالتجارة » المنسوب إلى الجاحظ أن تونس في القرن الثالث الهجري قد تقدم إلى بغداد عددا فلكيا من الزرابي الممتازة. هذه الزربية جاءت مع الجيش الخراساني الذي قدم من إيران والذي اعتاد أن ينام على الزربية وأن يكون قوام طعامه الأرز فصنعت الزربية وزرع الأرز ومن هنا انتقل إلى إيطاليا وإسبانيا وجهات أخرى من أوروبا.

الشاشية

وجاءت صناعة الشاشيةو هي الطربوش المغربي الشهير. جاءت من مدينة شاش بإيران وإليها تنسب. كما جاء من شاش أيضا البرقوق الشاشي الشهير بتونس حتى صار مضرب الأمثال فيقال : « أما شاشي وإلا بلاشي » أي « لنا الصدر دون العالمين أو القبر. »

والشاشية هي أكبر صناعة مغربية. تتألف أولا من قلنسوة مظفورة بالإبر، ثم تلبد بالماء والصابون ثم تحلج بنوع من الخرشوف يسمى الكرضون القلانسي حتى تخرج شعرتها الحريرية وتلين وتملس ثم تصبغ بالقرمز وتحلج مرة ثانية ويجعل لها زر من الحرير وتلبس على الرأس وتوضع فوقها عمامة في أغلب الأحيان.

هذه الشاشية كانت تصنع في القيروان خاصة ومنها تنتشر في المغرب والبلاد السوداء. وقد ظهرت منذ عهد مبكر ففي عهد

سحنـون (القرن الثاني للهجـرة) كانت صناعتهـا موجودة بالقيروان وقد ذكـرها سحنـون في مدونتـه. ثم انتقلت إلى فاس بالمغـرب الأقصى ومنها سميت Fez بالفـرنسية وما انقطعت إلا من أمد قريب. ثم انتقلت إلى الأندلس واستـوطنت هنـاك.

ولما رجع الأندلسيون إلى المغـرب بعد أن أجلاهم فيليب الثالث ملك إسبانيـا سنـة 1017 هـ / 1613 م على عهـد عثمان داي بتـونس نقلـوا معهـم صناعتهم، ومنها الشاشية والحـرير والزليـج وصناعة العاج، وأسست أسواق لها بتـونس كانت بهـا 400 دكان. لـكـن الأندلسيين كانـوا حـكمـاء فـوزعـوا أعمـال هذه الصناعـة على كامل القـرى الأندلسيـة حتى ينتفـع الجميـع وحتى لا ينفـرد شخص بمعـرفـة كل أسرار المهنـة فالصوف تجلب من صنف خاص مـن الأغنام يوجد بالوسط التـونسي في منطقـة سيـدي بوزيد. وظفـر الـكبـوس (القلنسـوة) تقـوم به النسـاء الأندلسيات ببلـدة أريانـة الأندلسيـة التي تقـع على 6 كلـم من تونس في الشمـال الشـرقي منها. والتلبيد يقـع في معمـل الباطان (اللفظ إسباني) قـرب طبربة (30 كلم غرب تونس على نهـر مجـردة) أو بيطان الجديدة أو باطان قريش الوادي أو باطان تستـور وكلهـا مدن أندلسيـة على نهـر مجـردة أكبـر نهـر تـونسي يأتي من الجـزائـر غـربا وينصب قرب غار الملـح شرقـا. وخشب صناعـة أدوات الشاشيـة يؤتى به من جوز فريـانـة الواقعـة في الجنـوب الغـربي التـونسي. وتصنـع الالات في القيـروان خاصـة وصباغـة الشاشيـة لا تكون الا ببلـدة زغـوان على بعد 50 كلـم في الجنـوب الشرقي من تونس والـكـرضـون (الخرشـوف الخاص بتحليـج الشاشيـة) لا يزرع إلا ببلـدة العاليـة الأندلسيـة الجميلـة التي توجد بين تونس وبنـزرت في الشمـال الشـرقي التـونسي. وأهم العائـلات الأندلسيـة التي تشتغـل بزراعتـه هي عائلـة هـريـرة (بالإسبانيـة معناه الحداد) وعائلـة قرندل (بالإسبانيـة معناه كبير تصغيـر كبير Grandel) ونيشان الشاشيـة أي علامـة الصناعة المخصصة بـكـل عـريف تتكـون من خطـوط زرقـاء مخيطـة داخـل الشاشيـة ذات أشـكـال هندسيـة ولـكـل عـريف علامـة مسجلـة يصدر فيها أمر علـي أي مـرسوم رسمـي (فـرمـان).

وكامة نيشان مع كلمة شاشية مع كلمة كلاه (كلاح) هي الكلمات الفارسية الوحيدة التي بقيت في الصناعة أما بقية الكلمات وعامة المصطلح فأندلسية ، أعني إسبانية. فالنصبة الخشبية التي يعمل عليها الصانعون تسمى بانكو من الإسبانية Banco بالفرنسية Etabli ، ررئيس الشغالين يسمى كابيصا بانكو Cabeza Banco أي رئيس المشغل Chef d'atelier والصانع يسمى قلفه ج قلفات واللفظة تركية فيما أظن. والدرج الذي في البانكو ويكون خاصا بكل قلفة بحسبية يسمى Chintoo بالفرنسية Tiroir. وأقسام الشاشية هي البوردوBordo وهو حرفها الأسفل، والكروضان Cruzan الهلال المتقاطع فوقها، والهمبير وهو داخلها، والهاس وهو خارجها، والكبيتش Cubitas وهو قطعة من الصوف مستديرة مستطيلة مثنية في قمة الشاشية ومثقوبة تدخل فيها الكبيته وهي الزر الحريري الأسود أو الأزرق المتدحرج منها على الكتفين. وداخل الشاشية يكون الكلاح (الكلاه) وهو شبه عراقية حريرية لإمساك العرق وعدم تسربه إلى الشاشية نفسها.

أما أدوات العمل فهي : الضبنينة Zapanina : بالإسبانية تصغير Zapa بالفرنسية Sape .المسحجة : وهي مثلث حديدي يدرج فيه الكرضون وله يد يمسك منها ويمر على الشاشية فيقردشها (يحلجها) والكرضون يؤخذ مجففا بعد أن يجر من العالية ويقطع بالتكليلش (المقص الكبير Tejidos) ويثقب باللميته Limetta تصغير ليمه بالإسبانية (Lime بالفرنسية) بمعنى مثقب ومبرد في الان الواحد. ويوضع في سلك الضبنينة ثلاث قطع البربميرو Primero هو الأول والترثيرو Tercero هو الثالث. الزوج : هو عصوان في طول نحو 25 سم بطرفيهما كرضون مقطوع ومثقوب ومندرج فيهما.

ومن تحليج الشاشية البيضاء يتناثر نثار الصوف كأنه القطن أو الريش الخفيف فلذلك يلبس العمال قميصا خارجيا وفوطة ويجعلون منديلا فوق شاشيتهم التي على رؤوسهم. ولهم أداة تسمى كرديتة وهي إسبانية تصغير كاردة بالفرنسية Carde وهي مربعة بقدر الكف

وزيادة فيها أشباه الإبر من معدن تمر على الكرضون في الضبنينة أو الزوج فتتلقف نشار الصوف الذي يسمى بوره من الإسبانية Burra فرنسية Burre .

وقرداش الشاشية البيضاء أو الحمراء يضع على ركبته شاشية مشمعة تسمى بطرون أي المثال الرئيسي واللفظ إسباني فيسوي فوقه الشاشية التي يريد قردشتها مثنية ثم يتولى عمله ، فتسمع لذلك أزيزا موسيقيا تعرف منه أسواق الشواشية من بعيد .

وتعرف أسواق الشواشية أيضا بدوي الباطيضورج (Battidor ج Battidores) وهو إنسان يقف في ممر السوق وبيده عصا خاصة قصيرة يخبط بها الشواشي خبطا خاصا لينفض عنها الغبار ودقاق الشعر والبورة . وترى على جانبي ممرات الأسواق أدوات كبرى كأنها حمير من خشب تسمى برينشة (من الإسبانية Prensa بالفرنسية Presse) أي معصرة أو مكبسة وهي مركبة من حمار من خشب في أعلاه لولبان من خشب قد اندرجت فيهما خشبة بقدر ظهر الحمار فتوضع الشواشي التي يراد إثبات طيها بين الخشبتين وتدار فلكتان في اللولبين فتضغطان على الخشبة العليا فتعصر الشواشي وتكبسها إلى أن تموت على طيتها .

وإذا وقفت أمام دكان شواشي رأيت بانكو على اليمين وبانكو على اليسار وفي الصدر مقصورة بها العريف ويسمى المعلم . وفي البانكو الذي على اليسار صناعة الأبيض أي قردشة الشاشية البيضاء بالحال التي تقدم عليها من الباطان. وأمام البانكو ثلاثة قلفات : قلفه كروضار Crudar أي الذي يعالج الشاشية الكروضو أي الخام. ويليه القلفة أبوطار أي الذي ينتهي بها إلى الاتقان ويليه قلفه أفينار Raffinar أي إلى غاية الجودة وفي البانكو الذي على اليمين جماعة الأحمر يعيدون العملية بنفس الأسلوب ولكن على الشاشية المصبوغة ببلدة زغوان الأندلسية الجميلة. فأولهم على اليسار من الداخل قلفه كروضار أحمر ، ثم قلفه أبوطار أحمر ثم قلفه أفينار أحمر. وترى شخصا جالسا أمام البانكو عند المدخل على اليمين ذلك هو الكابيصه بانكو أي رئيس الورشة : Chef d'Atelier كما مر بنا.

أمـا في المقصـورة فيوجد المعلـم يشتغـل في ضبط شؤونه من مفاهمـة مع الحرفاء ومن شراء صوف وقرمز وكرضون ومن مفاهمـة مع الباطان أو مع عميلـه باسطمبول أو باليـونان أو بالسـودان أو بليبيـا أو بالإ سكنـدرية. و الغالب أن كل معلـم له منطقـة نفـوذ خاصة به لأن الشواشي تختلف أشكالها و طبقـات حمـرتهـا من قطر إلى قطـر. فيختص العـرفاء في ذلك فمنهـم من يكـون تعاملـه مع الجنـوب التـونسي أكثـر،ومنهـم مع الجـزائر أو ليبيا أو السـودان أو مصر وهلـم جـرا.

والسوق تتقاطع على شكـل صليبي وفي ركن التقاطع مقهى بيد ضابط تـركي محالٍ على المعـاش يتولى بيع القهـوة والسحلب وغيـرهمـا وله براعة خاصـة في إمساك الجزوات والفناجين ج . فنجان وينطق بالتونسية فنجال من الفارسيـة ينـكام على ما يظهـر. والأسـواق كثيـرة تقـع قـرب جامع الزيتونـة من قلب مدينة تونس وهي السوق الكبير والسوق الصغير وسوق الركاضون وسوق الحفصي وغيـرها وجملـة دكاكينهـا 400 دكان عند ازدهار الصنـاعـة.

وغالب العائـلات المشتغلـة في الشاشيـة أندلسية الأصـل. مثلمـا تدل عليـه أسماؤها مثـل طاقـة وسيطـة وكاراباكـه والقسطلي (من قسطلة بالبرتغـال) وبالمـه من Palma ويشـكـه من Huesca .والتـرتيب السلـم هو قلفه كروضار أبيض وهلم جرا،إلى كابيصه بانـكو ثم المعلم ومن المعلمين يخـرج الأميـن الذي هو أعـرف الجمـاعـة بالصناعة وأقدمهـم فيهـا وأكثـرهم ثقـة وتوفيـة للأمانات. وأمين الشواشية المنتخب يسمى في الآن نفسـه وزيـر المتجـر ويكـون من العشـرة الكبـار.

فهـذه الصناعـة الإيـرانيـة في الأصل هديـة من إيـران إلى تـونس كسبت بهـا مغـانم وفيـرة وحصلـت شهـرة كبيرة وصارت لهـا سيادة التجارة في أسطـول البحـر وفي قوافل الصحـراء. ولا تـزال هذه الصنـاعـة بتـونس مشاهـدة لكنها انتقصت عما كانت عليه يـوم رجعت من الأندلس في أوائل القـرن السابـع عشـر.

الحـرير

قضيـة الحريـر في العصـور القديمـة قضيـة شائـكـة أحوجت

إلى إيجاد طريق الحرير la Route de la Soie وإلى فتوحات الإسكندر لغزو بلاد الصين ولبناء جدار الصين للمحافظة على سرية مهنته. لكن التونسيين كانوا أمهر فعوض أن يتعبوا أنفسهم في الذهاب إلى الحرير والتعرض إلى المهالك جلبوه إلى بلادهم وكان ذلك إما عن طريق الجيش الخراساني أو عن طريق المهلبيين أو على الأكثر على عهد الأغالبة، جلبوا التوت الخاص بطعام دود القز وزرعوه في قابس في الجنوب الشرقي التونسي على خليج قابس تلك الواحة البحرية التي تسمى جنة الدنيا والتي تبعد 400 كلم في الجنوب الشرقي من تونس وروى لنا أبو عبيد البكري أن بقابس تربية دود ومنها يتجهر بالحريرات إلى كامل بلاد البحر المتوسط. وانتشرت مع صناعة الحرير إعدادا وغزلا ونسجا صناعة الطراز التي كانت خاصة للأغالبة وغيرهم من الفاطميين إلى العهد الحفصي.

وانتقل الحرير إلى تونس العاصمة بعد مدة قليلة - وفي العهد الأغلبي على كل حال - فبنيت له الأربطة وهي قلاع محصنة ، فهو الصناعة الوحيدة التي لا تصنع في سوق وإنما تصنع في رباط وتباع في سوق. ولا يزال الحرير إلى الآن ينسج في تونس في أربطة حصينة محافظة على سر صناعته وهذه الأربطة تسمى فنادق الحرير وهي كثيرة بباب السويقة والحلفاوين والمدينة من تونس العاصمة. ثم انتقل الحرير إلى الأندلس وصقلية ثم إلى مدينة بيشه Pisa بإيطاليا الشمالية الغربية وأدخله الفاطميون إلى فرنسا في وادي الرون ثم بلغ مدينة ليون عندما فتح الفاطميون جهات ليون وبعض مناطق سويسرة وهذا الحرير آت لاشك من خراسان وإن كان أصله من الصين.

ومن أسباب إثراء الأغالبة والفاطميين - وإلى حد ما الصنهاجيين - اختصاصهم بالحرير في البحر المتوسط دون غيرهم، فملوك النصارى وخاقاناتهم ودهاقينهم وقساوستهم يلبسون حرير قابس ويتخذون الغطاء منه ويجعلونه أردية لتوابيت موتاهم.

(انظر : Gonzales Palencia : El Islam y Occidente

أبو عبيد البكري : المسالك والممالك

الزليج

Azulejos أو القاشاني وهو المعروف بالغضار أو المطلي céramique emaillée
ويكون ذا ائتلاق معدني à reflets Métalliques يصنع منه الزليج
الذي تفرش به البيوت وتكسى الجدران ويصنع منه الأواني الفاخرة
والتحف الممتازة وتكسى به حتى القبور الممتازة.

وقد رووا أن هارون الرشيد بعث بعثة عسكرية إلى الصين فجاءت
بأسرى فوعدهم الخليفة العباسي بأن يطلق سراحهم إذا علم كل
عريف بصناعة أصول صناعته لأهل بغداد. فكان منهم الكاغذي
والغضاري والبارودي وغيرهم من صناعات الصين أو البلاد المجاورة
له فانتشرت صناعة الغضار ببغداد. ولما كانت الدولة الأغلبية بتونس وليبيا
مرتبطة بالدولة العباسية فكانت مستحدثات بغداد تأتيها بعد عام على
الأكثر. وذكر أصحاب طبقات النحاة أن طالبا من القيروان اسمه
إسماعيل الطلاء ذهب إلى بغداد لتعلم النحو وتعامل مع غضاري فأخذ
سر تركيب المواد والعناصر التي تتخذ منها الأصباغ على اختلافها. فصنع
هناك 120 زليجة (Carreau de Faïence) ورجع إلى القيروان وصنع
120 زليجة ثانية وكسا بها محراب جامع عقبة سنة 249 هـ. فكانت
منطلق انتشار الغضار ذي الإئتلاق المعدني في صقلية وإيطاليا وفي
الجزائر والمغرب والأندلس ثم فرنسا وغيرها. ولكنه من القيروان
ابتداء ومن صنع إسماعيل الطلاء أصالة ومن بغداد اجتلابا ، ويغلب على
ظننا أنه جلب من الصين ومن إيران أيضا بدليل أنه يسمى القاشاني
وأن الغالب على زخرف الزليج التونسي الأزرق الإسمانجوني
وتوجد نماذج من هذا الزليج ومن هذا الغضار بوجه عام في القيروان
ورقادة (قرب القيروان) وقد كانت مسكن الأغالبة وعاصمة الفاطميين من
184 هـ إلى 296 هـ قبل بناء المهدية (303 ــ 306 هـ) ، كما نجده بالجزائر
وبصقلية. (انظر عن إسماعيل الطلاء القيرواني ابن القفطي : أنباه
الرواة ج المصادر التي أوردها وفيه قصة الزليج). ثم ترقى
هذا الزليج وهذا الغضار عصرا بعد عصر، لا سيما في العصر

الفاطمي، فدخله الزخرف الخطي والكوفي والزخرف الحيواني والإنساني ونماذج من ذلك موجودة في المتحف القومي التونسي بباردو (بلدة قرب العاصمة) ثم زاد رقيا في عهد الصنهاجيين لا سيما بإفريقية والجزائر (قلعة بني حماد وبجاية عاصمتا بنى حماد المنفصلين عن بني أعمامهم الصنهاجيين التونسيين).

انظر :
— Beulé : La Kalaa des Bani Hammad
— G. Marçais : Manuel d'art Musulman

ثم بلغ منتهاه على عهد الحفصيين حيث نبغ قاسم الزليجي الذي ابتكر الزليج المربع القائم بذاته والذي صنع الزليج البارز الزخرف والمحفور المزخرف بالخط الكوفي المزهر الرفيع والمحلى بصور الحيوانات الميثولوجية والبشر والزليج التصوفي الذي ترى فيه الزهرة أو الشجرة ساكنة فتعلم أنه قوة إيمان واطمئنان وسكون نفس أو مضطربة فتعلم أنه الشك أو الخوف قد تسرب إليها.

وقاسم الزليجي قد بنى داره بأعلى تونس والقبة التي سيدفن فيها. فزخرفها بأروع الزليج العالي. وهو كان يعيش في القرن الخامس عشر فقد سبق الغضاري الطلاء الفرنسي Bernard Palissy (1510 — 1590) بقرن كامل وفاقه في صنيعه مع تقدم زمانه عليه.

وانتشر الزليج القيرواني بصقلية ثم منها بإيطاليا وبخاصة في مدينة فائينزا Faenza في شمال إيطاليا قرب ميلانو ومتحفها الغضاري رائع وفيه كثير من النماذج التونسية. وانتشر بالأندلس في بلنسية Valence وبطرنه Paterne ومالقه Malaga فلما سقطت هذه المدن الاندلسية في القرن السابع وما بعده بأيدي الإسبانيين هاجر أهلها (الإشبيلي — المالقي البطرني) إلى تونس ونشروا بها أنواعا جديدة من الزليج المتولد عن القيرواني.

وفي العهد التركي جاء الأتراك بالزليج التركي من بروسه وغيرها.

وهاجر الأندلسيون إلى تونس فجلبوا إليها آخر مستحدثات الزليج. فانتشر بالمدن التي أسسوها بتونس، مثل تستور فصومعة تستور وبقية

صوامع تستور وزاوية سيدي نصر القرواشي آية الله من حيث الزليج الأندلسي المصنوع بتستور نفسها. وكذلك بلدة السلوقية ومجاز الباب وقريش الوادي وطبربة ، وكلها مدن أندلسية. وكذلك قبة سيدي علي عزوز وداره ومدرسته بزغوان فإنها آية هذا الفن. وكذلك قبة سراي الحكومة بالقصبة من مدينة تونس وقبة البستان العمومي (بلفيدير) وقبة سيدي محرز وقبة سيدي إبراهيم ودار المنستيري ودار بن عبد الله ودار الأصرم وغيرها من قصور تونس ومنوبة ورادس وسيدي بو سعيد وأريانة والمرسى وقمرت من ضواحي العاصمة.

ونفس الزليج الأندلسي قد ذهب إلى القيروان فزخرف به مقام الصاحب الفاتح أبي زمعة البلوي (توفي سنة 34) فأنت ترى البداية من الزليج بالقيروان في الجامع الكبير وترى النهاية بمقام أبي زمعة البلوي وقبابه الرائعة.

وانتشر هذا الزليج بالجزائر وليبيا (السراي الأحمر وجوامع القرجي وأحمد باشا القارمللي وأحمد باشا شايب العين وسيدي درغوث وغيرها). وانتشر بسردانيا وصقلية (قصور القبة والقبيبة والفوارة والعزيزية. من آثار العرب والنرمانديين).

فهذه هدية أخرى ثمينة أهدتها إيران إلى تونس دامت ألف سنة وترعرعت وولدت وانتشرت وازدهرت ولا تزال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الباب الثامن

التصوف

الفصل الأول

فذلكة عن التصوف

منذ أواخر العهد الفينيقي والتصوف موجود بتونس. وهو ميل تأملي الى الروحانيات والغيبيات والاتصال بالآلهة لا لجلب الخير ومنع الشر عن طريق الالهة ووسطاء الالهة فقط بل ايضا وعلى الخصوص الحب الالاهي المجرد والالتذاذ بالاتصال الالاهي والمتعة بالتعبد والتامل. جاء هذا للفينيقيين عن طريق اتصالهم بالهنود والايرانيين منذ قديم وعن طريق اتصالهم بالمصريين منذ القرن السادس قبل الميلاد على الاقل ، وعن طريق اتصالهم بالفلسفة الالاهية اليونانية منذ القرن الرابع ق. م. على ان الفينيقيين كشعب سامي وكأمة تجارية بحرية مستهدفة للأخطار في حركاتها وسكناتها فهم ميالون الى التصوف اساسا مع ان حياتهم مادية تاسيسا.

وجاء الرومان وانتصبت النصرانية وفيها جانب كثير من التصوف. فمن كبار رجال الكنيسة بالمغرب امثال القديس اوغوستينوس والقديس قبريانوس St Cyprien وارنوبيوس وترتليانوس والقديس فولجانس. على ان اضطهاد النصارى وسكنى الدهاليز المشعبة السرية الملتوية Catacombes بسوسة وسلقطة وغيرهما مال بالنصارى الاولين الى حياة تصوفية بدائية فضلا عن نصارى المغرب في آخر مراحل النصرانية به.

فلما جاء الاسلام ــ وهو دين عمل وتامل في الان الواحد وقد اتصل بفلسفيات وتصوفيات الهند وايران والمشرق والمغرب ــ بدأ التصوف منذ عصر مبكر. فنحن نجد بالقيروان حارتين متقابلتين بالرأس ، حارة الدمنة ومسجد السبت ومسجد الخميس حيث نجد منذ عهد مبكر رجال الرقائق من البكائين المتخمرين اصحاب الوجد الذين يمزقون ثيابهم من الجذب واحيانا يموتون من التاثر.

ونجد حارة النبابذة اي النبيذيين الذين يعاقرون الخمر ويتعاطون الزمر (انظر كتاب قطب السرور للرقيق القيرواني. ط. المجمع العلمي بدمشق). ومنذ عهد مبكر كان بالقيروان شقران المتصوف الذي له مناقب مجموعة ومتفرقة ترويها الكتب حتى قيل أنه لا يقل عن معروف الكرخي واضرابه.

وظهر في القرن الثالث للهجرة وما بعده بقليل ابو اسحاق الجبنياني الذي هو من اقدم من افرد تاريخه بالتأليف. فحررت مناقبه، كما حررت مناقب غيره كمحرز بن خلف المتوفي سنة 413 والملقب بسلطان تونس وبكسار الجبابرة وهو ابن خالة عبد الله بن ابى زيد صاحب الرسالة في الفقه وابن خالة ابى الحسن القابسي دفين القيروان وصاحب آداب المعلمين والمتوفي سنة403 ه.

على ان درجة التصوف مختلفة جدا، فهي تمتزج بمعنى الولاية. ومعنى الولاية يمتزج بالفتح والاستشهاد وبث العلم فمعبد بن العباس بباجة وابو زمعة البلوي الصاحب بالقيروان وابولبابة الصاحب بقابس يعتبرون اولياء لانهم من الصحابة ونقلة الحديث والمجاهدين المستشهدين. فهو يصير سيدي فلان ويصير ضريحه مزارا تقدم له النذور وتقضى به الحوائج وتصح به الوساطة ويقسم به تاكيدا ولا يدفن عند قبره شقي.

ومع ان كثيرا من علماء القرن الثاني مثل سحنون بن سعيد الفقيه، وعلماء القرن الثالث من تلامذة سحنون مثل يحيى بن عمر في سوسة وتلامذة عبد الله بن ابى زيد وعبد الله بن ابى زيد نفسه صاروا اولياء وتنسب اليهم الكرامات احياء وامواتا فانهم ليسوا مكاشفين ولا من دعاة الحلول ووحدة الوجود Panthéisme ولا من مؤسسي الطرق المتفشية في المغرب . وكثير من هؤلاء يوجدون في المغرب وهم في الاكثر من رجالات الاربطة الذين ماتوا مستشهدين فحيث هناك رباط هناك مقبرة وهناك قبور مرابطين ومرابطات.

فالأولياء الأولون من علماء أو من صحابة أو من مرابطين لم تكن لهم سلالة مرابطية منحدرة عنهم. لا أبو زمعة البلوي بالقيروان ولا أبو لبابة بقابس ولا معبد بن العباس بباجة ولا يحيى بن عمر بسوسة ولا سهلون الفقيه المرابط بزاوية سوسة ولا الحسن السوسي المرابط بسيدي أبو علي

ـ وهو سيدي أبو علي نفسه ـ قد كانت لهم سلالات مرابطية، لها زوايا وأحفاد ومريدون وطعام وعادة وعمل ومواعيد وزيارات وخرجات.

ويبدو أن المعنى التصوفي الطرقي ظهر مع الموحدين. وظهر أولا وبالذات مع القطب الجيلاني عبد القادر الجيلي رضي الله عنه فارس بغداد وأصله من جيلان أو كيلان. فإن طريقته دخلت تونس في القرن السادس أو بعده بقليل مع الإمام المنزلي الذي جلب الطريقة من بغداد وركزها في مدينة منزل بوزلفى وبلدة سليمان أي على بعد 39 كلم من تونس في الشمال الشرقي منها. فمنزل بوزلفى هو الزاوية الأم التي بها ضريح الجد المؤسس (الإمام المنزلي) والتي كانت تقع بها المواعيد القادرية الكبرى المشتملة على العادة والعمل والمدائح القادرية. أما العادة فهي أناشيد ليلية بالشموع الملتهبة والبخور المتأجج والجماهير المحتشدة فيها الزغردة والصلاة على النبي وصراخ الصبيان وبيع الحلويات لا سيما الجلجلانية «السمسمية» وهي القبيطى بالعربية أي سمسم مخلوط بعسل والعادة هي أناشيد عامة مشتركة بين جميع الزوايا:

بسم الإلاه بدينا   الواحد الصمداني
وعلى النبي صلينا   الهاشمي العدناني

فجماعة ينشدون هذا الطالع، وآخرون ينشدون الأبيات، ثم يعود الأولون إلى إنشاد الطالع إلى النهاية. والعادة تقع أمام الزاوية في خارجها. وبالنهاية منها تدخل الجماعة القادرية إلى الزاوية فتتولى العمل، وهو الدعاء القادري والمدائح القادرية التي هي شعر شعبي وفصيح وهكذا دواليك.

وتوجد زوايا قادرية في كل مكان، في تونس العاصمة توجد زاوية الديوان ـ أي ديوان الجند ولو أن الجند التركي بتونس كان من البقطاشية ـ وزاوية سيدي عبد القادر بزنقة الكبدة. وهنالك زوايا أخرى في عامة مدن البلاد التونسية وحتى قراها.

وتتركب الطريقة من أعلى من شيخ مشائخ القادرية وتحته المشائخ المحليون. فشيخ زاوية الديوان مثلا تحته شيخ العمل والشاوش الذي ينظم العمل وباش منشد شبه رئيس الطاقم والمنشدون والسقاؤون وهم

الذين يتولون إسقاء الناس في الزاوية من القرب أو القلال يصبون منها في « حلاليب الفخار » ويسقون الناس وهم ينادون « السبيل يا عطشان ».

وللقادرية شعراؤها الشعبيون أو الفصحاء. فالشعبيون الذين يؤلفون لها المدائح القادرية لا يدخلون تحت حصر ويكونون من أعلى طبقة إلى أدنى طبقة. والشعراء الفصحاء منهم الرجال ومنهم النساء مثل خديجة بنت الخضار. أما الرجال فالشيخ المولى الذي ولد في منتصف القرن الثامن عشر ومات في الثلث الأول من القرن الماضي، وله ديوان كبير في الأمداح القادرية من إنشائه مباداة أو به تشطيرات أو تخميسات لا شعار غيره. وهو من أفصح الفصحاء في هذا المضمار. والأدب القادري بتونس يؤلف خزانة كبيرة من الدواوين الشعبية أو الفصحى ومن الأوامر العلية أي المراسيم التي كان يصدرها الأمراء الحفصيون أو المراديون أو الحسينيون في تأسيس الزوايا واعتبار أوقافها وفي إعطاء رخصة العلم (العلام — السنجق) القادري وهي رخصة خاصة وباش علام والعلام وتسمية شيخ الشيوخ والشيوخ وباش منشد والمنشدين والسقائين إلى غير ذلك.

وكان الأمراء الحسينيون - من حسين بن علي (1705) إلى حمودة باشا (1815) - من القادرية وكذلك الوزراء ورجال الدولة وكبار الأسر ثم من حمودة باشا فراجعا صار الأمراء من التجانية بإثر رجوع إبراهيم الرياحي العلامة الصوفي الشاعر السياسي من المغرب وإدخاله الطريقة التجانية إلى تونس في أوائل القرن الماضي. ويبدو لنا تأثير القادرية فيما يأتي :

1) كثرة الزوايا القادرية بالجمهورية
2) ظهور التأثير القادري في الأدب الفصيح والعامي. وأشهر من نبغ في الفصيح محمد المولى وعائشة بنت الخضار في القرن الماضي. والإمام المنزلي قبل ذلك بمدة مطولة
3) في أسماء الأفراد : عبد القادر وتصغيره قدور وقويدر وقدوره والجيلاني والكيلاني وجلول

4) وفي أسماء العائلات : ابن عبد القادر ، قدورة ، قدور ، الجيلاني.

5) في الاستمدادات المقتبسة من التصوف القادري في الطرق الأخرى المغربية البحتة وفي مقدمتها الطريقة الشاذلية ثم العروسية ثم السلامية ثم الرحمانية.

6) تأثير هذه الطرق حتى في التصوف الأوروبي ولا سيما تأثير الشاذلية في طريقة الفرنسسكان.

انظر :

— Gonzales Palencias : El Islam y l'occidente

— Asin Miguel Palacios : Los Shadhilies in Al-Andalus

— Rivista de Arabes de la Escuela de Grenada.

الفصل الثاني

الغزالي وابن تومرت

لفلسفة الغزالي الإسلامية وتصوفه تأثير عظيم - منذ الأول - على المغاربة عموماً والتونسيين خصوصاً. فالمهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية تأثر بفلسفة الغزالي إلى أبعد حد، ولا سيما نظرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وذلك أن هذه النظرية تقتضي ألا يكون للمسلم ضمير خاص فقط يتأثر به فيما يخص حركاته وسكناته، بل أن يكون له ولا بد ضمير إسلامي يرهف حساسيته الإسلامية ويحرك مشاعره المحمدية ويوقظ نار حميته العقائدية فيغار على المسلم والمسلمين على السواء. وغيرته هذه فعالة نشطة حركية. ناهيك أن المهدي بن تومرت لما تشبع من هذه المبادي ورجع إلى المهدية عاصمة الصنهاجيين ووجد بها شرب الخمر منتشراً طاف على الخمارات وكسر الأواني وأراق الصهباء كالدم المسفوك وذلك زجراً للمسلمين. فصار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إقامة الفرائض وإقامة الحدود فريضة سادسة لدى المسلمين يتعاونون بها على الخير ويتناصرون بها ضد الشر.

فحياة الانحلال العام سادت الدولة الصنهاجية بسبب ما دها البلاد من هجوم نرمان وزحفات أعراب وتقسم إلى ملوك طوائف وضعف الحكومة المحلية وانحلال أخلاق وإجازة ما لا يجوز وتفسخ إلى غير ذلك. فلما جاء ابن تومرت، ثم لما جاء كتاب إحياء علوم الدين للغزالي انبعث الضمير العام الإسلامي فحرك الغيرة الإسلامية في كل فرد فانبرى يذود عن حوض الإسلام والمسلمين.

ومن الظاهر أن اكتمال إسلام البربر، بربر الجبال البعداء عن

الحواضر ، البربر المتبربرين الذين لم يتعلموا العربية فبقوا محرومين من مطالعة الكتب الإسلامية والاستفادة منها ، من الظاهر أن إسلامهم اكتمل بظهور الدولة الموحدية وانتشار عقيدة ابن تومرت وتوفر الدعاة على بثها وشرحها. وهي متشبعة من تعاليم الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين.

والحكومة الموحدية هي نفسها « غزالية » في أسس عقائديتها وأصول نظمها. قد جاءت إلى المغرب والجزائر وتونس وليبيا والأندلس، فاقتلعت دولة المرابطين « المشبهة » ترميهم بالتشبيه Anthropomorphisme وبالتجسيم وبالظاهرية وانتسفت من الجزائر الدولة الحمادية ومن تونس الدولة الصنهاجية التي كانت أوهى من بيت العنكبوت. وانتفت ملوك الطوائف بالأندلس الذين قال فيهم الشاعر التونسي :

مما يزهدني في أرض أندلس ... سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب سلطنة في غير مملكة ... كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

واسترجع الموحدون ما كان أخذه الإسبان من بلاد الأندلس وجعلوها دولة موحدة قوية متينة ترهبها النصرانية ، وممتدة من جبال البرانس إلى الإسكندرية ومتوغلة في البلاد السوداء. ولهذه الدولة جيشها الجرار الغازي وأسطولها العتيد الفاتح الذي كان يحكم بأمره في البحر المتوسط وسواحل الأطلسي ، ولها علومها وعلماؤها من أمثال ابن رشد وابن باجة وابن زهر وابن طفيل وابن مسرة وابن طملس ومسلمة المجريطي ولها مؤرخوها من أمثال الرازي الأندلسي وأبي حيان وابن مالك المراكشي وابن العذاري. ولها فنها الذي يمتد من صومعة اشبيلية La Giralda إلى صومعة الموحدين بتونس.

لكن بعض المتعصبين هاجموا الغزالي مشرقاً ومغرباً ، نقول المتعصبين أو المنتفعين من النظام البائد ، هاجموا الغزالي وأحرقوا كتبه. فانبرى لهم العلامة التونسي ابن النحوي التوزري صاحب القصيدة المنفرجة :

اشتدي إزمتي تنفرجي ... قد آذن ليلك بالبلج

قاومهم أشد المقاومة واستكثر من نسخ كتب الغزالي ولا سيما إحياء علوم الدين وتولى تدريسه بتونس وبالمغرب الأقصى وبمدينة قلعة

بني حماد في الجزائر حيث لقي حتفه ودفن ولا يزال ضريحه معروفاً مزاراً.

وابن النحوي التوزري ولد بمدينة توزر الواحة الخالدة الواقعة في الجنوب الغربي التونسي التي منها الشابي وابن الشباط المهندس وابن الكردبوس المؤرخ. ولد في أجمل مكان من الواحة حيث لا يزال موجوداً الكشك الذي كان يفكر ويتأمل ويعلم فيه ، المكان الذي قال فيه الشاعر التوزري :

زر توزراً إن شئت رؤية جنة   تجري بها من تحتك الأنهار

وفعلا فهذا هو المنظر ، ودرس بتوزر والجزائر والمغرب وتخرج في الآداب والفقه والتصوف وانتصب لتدريس كتب الغزالي وإحيائها. وتوفي بقلعة بني حماد قرب سطيف بالجزائر سنة 513 هـ ولا يزال قبره هناك معروفاً. (أنظر عنه : رحلة التجاني، التادلي : « التشوف إلى رجال التصوف ».)

وقد بلغ من شأن إحياء علوم الدين للغزالي أن أحد أثرياء تونس في العصر الموحدي استحضر نسخة من هذا الكتاب الجليل مكتوب على أجمل ورق وبأبدع خط مغربي وبأجمل تزويق وأهداه إلى بنته التي أقبلت على دراستها وهذا الكتاب موجود بدار الكتب التونسية.

وعلى وجه العموم قد كان لكتب الغزالي أعظم تأثير على التفكير الإسلامي والتفكير النصراني. أما التأثير الإسلامي بتونس فيندر ألا تجد نسخة من إحياء علوم الدين في المكتبات التونسية الخاصة والعامة. فهو كتاب دين وكنز أخلاق وبحر تصوف صحيح. وقد قرر تعليمه حتى في إعداد الإجازة والتبريز بالعربية في باريس وتدارسه الناس كثيرا بالألمانية والإنكليزية والفرنسية والإسبانية وخصوه بالتآليف.

وأما التفكير النصراني فكتاب المنقذ من الضلال الذي ترجم إلى بعض لغات أوروبا وانتقلت إلى ديكارت تلك الجملة العظيمة : « الشك أول مراتب اليقين» كما قال الغزالي Le doute est le premier pas vers la certitude (انظر تحقيقات الدكتور أبو ريده في الموضوع) وتأثر به متصوف

النصرانية St François de Sales في كتابه المدخل إلى الحياة التقوية
« Introduction a la vie dèvote ».

والغزالي ولد سنة 1058/450 ولد بالطابران إحدى قصبتي طوس بخراسان ودرس على ابن نصر الإسماعيلي بجرجان وعلى إمام الحرمين الجويني بنيسابور وحضر مجلس نظام الملك ودرس بنظامية بغداد ونظامية نيسابور وتوفي سنة 505 هـ/1111م

(انظر عنه عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين 266/11 وكذلك المصادر الوفيرة التي أوردها.)

الباب التاسع

الفلاحة

الفصل الأول

في العصر الفينيقي

لم يكن ببلاد المغرب في العصر البربري من الأشجار المثمرة الاصيلة إلا الزيتون والتين. فأية جهة بربرية من جبال وجزر وصحاري إلا وهي قائمة على غراسة التين والزيتون. فمن الجزر جربة وأرخبيل قرقنة فإنهما يعتمدان أساسا على فلاحة التين والزيتون. وهضاب الساحل ومعظم الهضاب التونسية زيتون. وبلاد قبائل الحضرة والقبائل الصغرى والقبائل الكبرى بالجزائر هي أيضا تين وزيتون ومعظم إنتاجها التين المجفف وزيت الزيتون.

فلما جاء الفينقيون جلبوا من الأردن القمح ومن العراق الكرم ومن إيران التفاح والكمثرى والرمان والخوخ والسفرجل والبرقوق وعين البقر (Prûne - plumps). وجلبوا أيضا النخيل من جهات مختلفة من واحات الشرق الأوسط ولا سيما العراق ولذلك سموا فنيقيين أي رجال النخيل. فانتشر النخيل بواحات الجنوب التونسي والجزائر والمغرب الأقصى حيث لا يزال أرفع أنواع التمر يسمى دقلة أي دجلات أو دكلات أي تمر نهر دجلة وغرست الأشجار المثمرة في جهات مختلفة وجاء ماغون القرطاجني فألف أول موسوعة زراعية عرفها التاريخ تشمل تصنيف أنواع[1] التربة والأسمدة وطرق الحرث وإعداد الأرض والبذر والري والتنقية والحصاد والدراسة وأمراض النباتات والحيوانات والصناعة الزراعية من اعتصار زيوت وخمور وتصبير ثمار وبقول وطحن حبوب واستحضار المستلبنات من زبدة وجبن إلى غير ذلك.

وهذه الموسوعة ليست فقط شاملة كاملة بل هي في مستوى رفيع. فلا يمكن أن تكون وضعت لأول مرة هكذا بل لا بد أن تكون هناك كتب زراعية قد سبقتها لأن الموسوعة هي آخر كتاب مجمع يقع في تأليف علم من العلوم وقد بينا فيما سبق كيف أن الإيرانيين كانت لهم مكاتب علمية فخمة وأن الإسكندر رجع بحصيلة طيبة من علومهم. فلماذا لا يكون الفنيقيون قد فعلوا نظير ذلك قبل الإسكندر وهم المتصبون بجزيرة فيلكة الكويتية التي اقتحمها عليهم اليونانيون كما سيقتحمون عليهم بعد ذلك بقليل جزيرة صقلية وحاولوا حتى الاستيلاء على جهات من القطر التونسي. وقد ناقشنا هذا الموضوع فيما سلف. وقد جلب الفنيقيون من الشرق أيضا أشجارا غابية دقيقة الخشب وغرسوها بكميات كثيرة في سردانيا وصقلية والمغرب لمصلحة أسطولهم الذي كانوا ينشؤون. ومن تونس انتشرت هذه الأشجار والمزروعات في الحوض الغربي من البحر المتوسط.

وكتاب ماغون هذا قد غزاه علماء الزراعة من يونانيين كقاسطوس ورومانيين كقولوملس وفلينوس وقاطون. كما ترجمه المسلمون ونقلوا عنه كثيرا مثل ابن العوام الأندلسي، ويسميه ماغوش.

انظر عن ماغون : عثمان الكعاك — كتاب الفلاحة لماغون.
Stephane Gzell : L'Afrique du Nord dans l'Antiquité

الفصل الثاني

في العصر الروماني

اغتنم الرومان بعد فتح قرطاجنة إثر الحرب البونيقية الثالثة ما وجدوه من مأثورات حضريات جلبها الفينقيون من الشرق والغرب. ثم هم فتحوا اليونان فغنموا ما جلبه الإسكندر إثر غزواته بإيران. على أن آثار هذه الغزوات الحضرية كان لها وقع عظيم في استهلان قرطاجنة البونيقية منذ القرن الرابع قبل الميلاد.

ومن القرن الثاني بعد الميلاد إلى القرن الخامس كانت الصلات مستمرة بين الرومان المنتجين في الأناضول والشام والأردن وفلسطين وبين الإيرانيين. صلات في الواجهة في كثير من الأحيان لكنها أيضا صلات حضرية. وقد أخذ الرومانيسون كثيرا من الحضارة الساسانية القائمة يومئذ. رأينا أثر ذلك في الصناعات والفنون. وكذلك أثر ذلك في الفلاحة أيضا.

الفصل الثالث

في العصور الإسلامية

في العصور الاسلامية الاولى ولاسيما على عهد المهالبة والأغالبة والفاطميين جلبت إلى تونس :

زراعة الأرز

بدأت زراعة الأرز في البحيرات مثل الكلبية وغيرها . وانتقل الأرز من تونس إلى صقلية وبقية إيطاليا ومن تونس إلى الأندلس وأخذ الأوروبيون اسم الأرز فسموه بالإسبانية arroz (بالتونسية الروز) وبالإيطالية Rizzo وبالفرنسية Riz وبالأنكليزية Rice وبالالمانية Rice وعرف التونسيون صناعات كيمياوية من الأرز مثل صناعة النشا (من الفارسية لنشاستج). ودخل الأرز ميدان الطعام التونسي كمادة أساسية وعنصر ذي نصيب كامل. فصنعت منه الحلويات (رفيسة الروز : فالوذج) والمهلبية (منسوبة لآل المهلب لكن التونسيين — من باب الإشتقاق الشعبي etymologie populaire - حولوها إلى محلبية لأنها من الحليب. وكون اسمها المهلبية فهذا دليل على أنها حدثت في عهد آل المهلب.) وعلى كل فقد كان الأرز يومئذ عماد الطعام بتونس عند 30،000 عائلة من الجند الخراساني.

زراعة قصب السكر

السكر اسما ومادة من أصل إيراني . وقد جاء قصب السكر إلى تونس في العهد الذي تحدثنا عنه وزرع واعتصر وصنع منه السكر على اختلاف أنواعه . ومن كلمة سكر التونسية ذات الأصل الإيراني جاءت الكلمات الأوروبية : إسبانيا : azuccar ،

فرنسا Sucre ، إيطاليا Zucchero ألمانيا Zuc ker ، وبالأنكليزية Sugar إلخ...

وانتقلت غراسة قصب السكر وصناعته انطلاقا من تونس إلى صقلية والأندلس وهلم، علاوة عن كامل المغرب، ثم أميركا بعد ذلك حيث صار الثروة الأساسية لأقطار عظمى. وسميت عليه جهات بتونس مثل سكرة البلدة الجميلة ذات البساتين الفيحاء والحدائق الغناء بأحواز تونس.

الحرير

إيران في عصورها الزاهرة كانت متصلة بالصين. فجاءها منها الحرير وأسماء أنسجة الحرير الفاخرة إيرانية مثل سندس وديباج وشاش وغيرها.

وقد جاء الحرير إلى تونس من هناك في العصور التي ذكرنا أو بعدها بقليل. فغراسة أشجار التوت المختص بغذاء دود القز بقابس ولا تزال منه عينات إلى الآن. وبنيت السقائف المستطيلة الخاصة بفتل الأسلاك وصنعت الأقمشة الحريرية الفاخرة وأنشئت ديار الطراز وصار الطراز من الصناعات النسائية المنزلية المعتبرة وآلته القرقاف واللفظ فارسي وإن دخل التركية فيما بعد.

وصارت قابس البلد ذات الاختصاص الوحيد في تصدير الحريريات في الحوض الغربي للبحر المتوسط. فمنها يلبس ملوك المغرب وإسبانيا وفرنسا وإيطاليا وأمراؤها ومرازبتها les Seigneurs Féodaux وقساوستها وعظماؤها وأغنياؤها ومنها حتى أردية التوابيت ومنها الأعلام إلى غير ذلك. ومن ذهب إلى متحف ليون قضى من ذلك العجب العجاب. وإذا كانت كلمة حرير أو قز لم تدخلا اللغات الأوروبية فإننا نجد كلمة « Silk » بالأنقليزية وفي هذا كفاية. وانتقل الحرير من قابس إلى صقلية ثم إلى مدينة بيشة Pisa في أعالي القرون الوسطى. ثم إن الفاطميين فتحوا ضفاف نهر الرون وبلغوا ليون ونشروا بها صناعة الحرير.

وانتشرت صناعة الحرير بتونس فانتقلت من قابس إلى تونس. فغرس التوت بالحرائرية وببساتين منوبة. وصنعت « الأربطة »

لصناعة الحرير ونسجه وذلك محافظة على سر الصناعة. وإلى الآن لاينسج الحرير إلا بفنادق الحرير التي هي أربطة بأتم معنى الكلمة ولا يزال منها كثير بالحلفاوين وباب السويقة وقرب سوق البلاط والرمادين إلى غير ذلك.

ثم انقطعت صناعة الحرير. فلما جاء مهاجرة الأندلس أعادوها بالسلوقية وتستور ولذلك فإن سقائف تستور تمضي على طول الشارع لتسليك الحرير والطراز الحريري التستوري مشهور إلى الآن وأظنها وجدت أيضا بتوزر لأن الأنسجة والتطريزات الحريرية التوزرية ممتازة جدا. وللحرير أسواق خاصة به في تونس غير الفنادق التي تحدثنا عنها. ونجد الأسماء الصناعية مثل القزاز (كان لغويا كبيرا) والحرائري.

(انظر : أبو عبيد البكري « المسالك والممالك » باب قابس.)
Gonzales Palencia : El Islam y occidante
Enciclopedia Italiana: Art. SETA.

النارنج والليمون

وبقية المحامض التي لم تكن معروفة بالبحر المتوسط قبل هذا التاريخ ثم جاءت من ايران في هذه العصور التي تحدثنا عنها إما على عهد المهالبة أو الأغالبة فمن العسير ضبط التاريخ على وجه التحديد إلا أننا نجد النارنج - واللفظ فارسي وا لاختلاف مثله — برقادة أي على عهد الأغالبة.

وانتشرت زراعة النارنج بتونس ، وصار النارنج من أحسن الفاكهة يوم كل « طازة » ويعتصر منه عصير النارنج وتصنع منه الكفتة (معقود النارنج) والخشاف والمركب والمربي. وتستحضر من زهوره مشامينم (باقات) وتيجان وقلائد مسائية للسيدات ويصنع منه معجون لتقوية القلب (بمدينة زغوان).

وانتقل أكبر النارنج من تونس إلى مالطة سنة 280 ه، وانتقل إلى صقلية سنة 212 ه وانتقل إلى الأندلس والمغرب في نحو ذلك التاريخ وبقيت منه بمالطة إلى الآن أنواع شديدة الأرجوانية تسمى « بردقان مالطي » وأنواع صقلية والأندلس (بلشية) ممتازة.

وانتقلت كلمة نارنج الفارسية المتونسة إلى اللغات الأوروبية فبالإسبانية Naranja وبالبرتغالية مثلها (إلا أن الإسبانية بالخاء نارنخة والبرتغالية بالجيم نارنجة.) وبالإيطالية Arancia وبالفرنسية Orange وبالألمانية والأنكليزية Orange الخ....

ولما ذهب البرتغاليون إلى الخليج الفارسي في القرن السادس عشر جلبوا فئة أخرى من النارنج وطنوها بالبرتقال وانتقلت إلى إسبانيا. فلما جاء مهاجرة الأندلس جلبوها معهم باسم بلاده الأصلية «برتقال» فانتشر بالقرى الأندلسية بتونس (تستور زغوان سليمان منزل بوزلفى بني خلاد قربة نابل قرنبالية) وبأحواز تونس (منوبة باردو رادس أريانة المرسى قمرت إلخ) وصارت تسمى بالجزائر تشينة أي الثمرة الاتية من الصين. وصارت تونس ابتداء من القرن السابع عشر من أكبر البلاد المصدرة للنارنج. وعاصمته هي منزل بوزلفى على بعد 38 كلم من تونس في الشمال الشرقي. وعملت مصانع لتعبيره وتكييفه وتعليبه ومعامل أخرى لصنع عصيره ومعجونه إلى غير ذلك.

القراصيا

ويسمى في تونس حب الملوك. شجرة جميلة التقبيب رشيقة الجذع جميلة الأغصان متسقة الأفنان لطيفة الورق رائعة الزهور بديعة الثمار كأنها أقراط من ياقوت أو ثمار من مرجان أو أصداف من أرجوان فنسميه بحب الملوك عند التونسيين. تسميته لطيفة تدل على تصور ظريف. انتشرت بتونس تزين البساتين مجردة ومثمرة ومزهرة، وصامتة وناطقة وراقصة بهبوب النسيم وغناء الشحرور والهزار والحسون والعندليب. وانتقلت هذه الشجرة مع اسمها إلى أوروبا فكانت الشجرة الممتازة بثمارها ومستقطراتها.

السرو

يقال أن السرو جاء من جزيرة قبرص وإليها ينسب (Cupressos) cypres ولكننا نجد السرو في بساتين إيران كما نجده في بساتين تونس. وسرو قبرص لا نجده إلا في مقابر النصارى. فهو عندهم شجر حزن وأسى وهو عندنا شجر شعر، ومخروط زبرجد، وقوام زمرد، وسماط

من العذارى المنحنيات الماشئات الراقصات على ضفتي مماشي البساتين، وعلى حافتي برك الحدائق، تغني طيورها مختفية في أوراقها فترقص لغنائها طربا، ويهمس النسيم في آذانها أنشودة الغرام، فتؤمن تارة راقصة من اليمين إلى اليسار، وتنفر أخرى راقصة من اليسار إلى اليمين.

ومن السرو تصنع نواعير الماء للآبار فتحتفظ بشعريته تئن من ألم التعب وتئن من اصطدام أخشابها وتتنهد من العطش.

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ   والماء فوق ظهورها محمول

أو كقول الشاعر التونسي الذي قال باللهجة الشعبية التونسية :

مسكين جمل النواعير   بالهجرة ضاقت خلوقه

يسمع في الماء بوذنيه (أذنيه)   لا يشبحه ولا يذوقه

القسطل

أو الشاهبلوط. هو أيضا من إيران كشجر غابي مثمر وكشجر مماش في الطرقات وشجر ظلال في الميادين العامة وانتشر من تونس إلى البحر المتوسط. وصار هو لذة الأطفال في الأمسيات الباردة الثالجة وطعام الفقير وأنس الحقير وهو متعة السهرات في البيوت الشتائية القارسة وهو طعام عاشوراء (مرقة القسطل) وفاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء. أوراقه مخمسة كأنها خمسة تانيت الإلاهة الفنيقية تحفظ من عين الودود وعين الحسود وظلها وارف في هذه الأمسيات الشتائية المبكرة وأوراقها سرير وثير ويستند إلى جذعها ويمتد على فراشها الحريري ويتأمل في أغصانها وأفنانها وأوراقها وثمارها وطيورها المغنية تنظم قصيدة الدهر.

وإذا كانت في القسطل صنوف قديمة بالبحر المتوسط فإنها غير الجنس الإيراني الرفيع. ولا ننس أن من عادات التونسيين في عاشوراء طبخ مرقة القسطل بالزبيب وهي لذيذة وإن تنوسي أمرها في هذه الأيام.

الفستق

أصل الفستق أيضا من إيران. وهو شجرة تابعة للبلدان الحارة. وقد انتشر بتونس في جبال عرباتة قرب قفصة في الجنوب الغربي وفي صفاقس وغيرها من الجهات.

والفستق مادة أساسية في صنع الحلويات الشرقية التي هي الحلويات التونسية من مهلبية وبقلاوة وصمصة وقطائف وزريقة وبوزة فستق ومعاصم (لفائف من رقائق العجين محشوة بالفستق وغيره ومقلوة في زيت الزيتون ومشحرة بالعسل أو مطبوخة في « كريمة الحليب ») ومن كعك فستق الذي هو أرفع أنواع الكعك كما أن الفستق يدخل في بعض المحشوات المالحة.

ويكثر استعمال الفستق في رمضان فمنذ السابع والعشرين من شعبان نرى الناس يتهافتون على سوق الفكة (سوق الفاكهة أمام جامع الزيتونة بالضبط في قلب المدينة العربية) وترى جماعة الفكة قد ملؤوا القفاف والصناديق بالفستق والبندق وأبي فروة والجوز واللوز والزبيب وشرائح التين والزقوقو الذي هو ثمرة الصنوبر تعتصر منه صفوة تصنع منها البوزة كما تعتصر من السمسم أو البندق أو الفستق تسمى البوزة توضع سخنة في الجامات وتوزع على الناس خلال السهرة. ويدخل الفستق في صناعة المسفوف وهو سميد يفتل فتلا حبا حبا متراكما ويطبخ على البخار ويفرك بالسمن ويخلط بالحليب والزبيب والتمر والجوز والفستق والبندق ويكون عمدة السحور في رمضان. ويصنع من الفستق أيضا كعابر الفستق وهي فستق مهروس مخلوط بسكر يلبد مع بعضه في شكل أكر ويباع مع الحلويات. كل هذه في رمضان وأيام عيد الفطر.

على أن الفستق هو أول طعام حلو يذوقه الطفل عندما يخرج إلى الدنيا فيصنع منه اللعاق وهو فستق مهروس مخلوط بعسل يحنك به الولد عند مجيئه إلى الدنيا فيكون بإذن الله ذكيا وظريفا.

ومن عادات التونسيين أيضا اشتراء الفاكهة الجافة في عاشوراء. فيتردد الناس مرة أخرى إلى سوق الفكة ويشترون التمر والزبيب وشرائح التين ورب العنب (الكفتة) والفستق والجوز وأبا فروة واللوز والملبس (القنفيد Dragées) ويعودون بها إلى البيت مع الطبلة التي فيها صورة سيدنا علي كرم الله وجهه والطار الذي عليه صورة أسده وتصنع حلوى

عاشوراء وهي صفوة أبي فروة مع الفواكه أو صفـوة البر مع الفـواكه. وتتهاداها النـاس من بيت إلى بيت.

هذه هي أهم الأشجـار التـي جاءت من إيران وليست بالشيء القليـل. أما في العصور الإسلاميـة الأخرى ـ أعنـي في العصر الحفصي ـ فمن أهم الأشجـار التـي جاءت شجر المُصَع ويسمى بالتونسية بوصاع وبالفرنسيـة Nefle فنحـن نعـرف مصدره وقـد ورد ذكره في النباتات التونسية الموجودة يومئذ بتـونس في الجزء الخامس من صبح الأعشى للقلقشندي وفي قسم تونس من كتـاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري الذي نشـره العـلامـة المرحوم السيد حسن حسني عبد الوهاب مع تعاليق ضافية. ونشره بالفـرنسية العـلامة .Godfroy Demonbynes مع تعاليق أيضا.

ولا ينبغي أن ننسى بعد هذا البقول والخضراوات والزهور والأفاويه والنباتات الطبية. وقد تحدثنا عنها فلا حاجة إلى الإعادة. فالفلاحة التونسية مدينـة بالكثير بأشجارها وأزهارها إلى إيـران منذ أقـدم العصور وبأحسن الأساليب التقنية في الصناعات الفلاحية من اعتصار وتصبير واستقطار. وفوق كل ذي علـم عليـم.

الباب العاشر

باب جامع

الفصل الأول

الفلكلور

العلوم الشعبية

من الفلكلور علوم شعبية كالفلك والطب والزراعة والبيطرة والسحر إلخ... ولا شك أن هذه العلوم هي المرحلة الأخيرة من هذه العلوم عند انتقالها من طور أدنى إلى طور أعلى. فالطب الشعبي هو متبقيات من الطب الإيراني واليوناني والروماني والفرعوني والبربري. وقد أضيفت إليها تجارب شعبية كثيرة، منها الرقي وطاسة الرجفة والتوسل بأولياء مختصين في أمراض بأعيانها.

وكذلك الفلك والأنواء فهو تنجيم لمعرفة الطوالع والتبريج واستطلاع الغيب من ناحية ولكنه معرفة الأنواء ومهاب الرياح ومعرفة مداخل الشهور واتصالها بالفلاحة. ومن قارن بين الأمثال الزراعية والأنوائية الإيرانية والأمثال التونسية والمغربية وحتى الأندلسية أو اللهجات العربية بالشرق الأوسط قضى العجب.

الفنون الشعبية

1) موسيقى شعبية (خصوصا موسيقى أطوار العمر : الولادة والفطام والدهدهة والترقيص والختان والزفاف، أو موسيقى المواسم الدينية : عاشوراء، الموالد والمعراج). وهذه الموسيقى — سواء في قسمها الأول أو في قسمها الثاني — متأثرة بالموسيقى العراقية، فهي تعتمد في الأكثر على مقامي العراق والحسين أي أنها أخذت صيغتها النهائية على عهد العباسيين والشيعة الفاطمية.

2) تصوير ولا سيما التصوير الديني في المصاحف أو في المعلقات

بالبيوت والدكاكين والزوايا، من تصوير علي رضي الله عنه والوقائع الإسلامية المختلفة يكون تصويرا بالذات وعلى الخصوص تصويرا بالحروف. يكتب اسم علي طردا وعكسا فإذا به صورته. أو تكتب مخلفات الرسول صلى الله عليه وسلم بقصائد في مدحها فإذا هي المسواك والبردة والنعلان ولا سيما النعلان في مخطوطات «كتاب فتح المتعال في مدح النعال» لأحمد المقري التلمساني صاحب كتاب نفح الطيب المشهور (توفي سنة 1041 هـ) فقد كتب لتصاويره انتشار عجيب.

ونحن نجد أسد علي كرم الله وجهه منقوشا فوق قصر عبيد الله المهدي بالمهدية كما نجده فوق الأثاث الخشبية وفوق الجدران وكذلك تصوير علي رضي الله عنه فوق طبول عاشوراء .

3) نحت وفنون تشكيلية : لا سيما في عاشوراء في بعض المدن التونسية توجد إلى الآن صياغة الدمى من السكر الملون. وهذه العادة لا تزال في صقلية إلى الآن في عيد جميع القديسين Toussaint الذي هو أيضا عيد الأموات.

4) خيال الظل : جاء في عصور متقادمة من الصين وخصوصا من قمبوجيا وطيلاندا وكلها على طريق القوافل فهل مر في طريقه إلينا من إيران ؟ إن الدراسات المقارنة تضفى نورا ساطعا على هذه القضية.

5) الألعاب : وقد جاء معظمها من إيران ومصطلحاتها عندنا إيرانية وهي الشطرنج والشيش بيش والخربقة. وقد انتقلت من هنا إلى صقلية والأندلس فالتحقت بأوروبا حيث حافظت على أسمائها الإيرانية عند ما انتقلت إلى الإفرنج. مثل الشطرنج (بالإسبانية Aljedrez) وقد ألف فيها سواء بالعربية أو بالإسبانية.

الآداب الشعبية

وهي : الأمثال. القصة على لسان الحيوانات. القصة الغريبة(Le Merveilleux). القصة المطولة Le Conte . الملحمة. قصص الغرائب البحرية. إلخ... وقد رأينا أن كثيرا من هذا قد جاءنا من إيران (كليلة ودمنة. ألف ليلة وليلة. إلخ...)

– أدعية الرقي وعزائم فتح الكنوز والتمائم والحروز وكتابة طاسة الخضة. وعن طاسة الخضة وأثرها من إيران أنظر :

Pearson : Index Islamicus in Magic bowl.

وتسمى في تونس طاسة الرجفة وتكون أحيانا صحنا يكتب فيه بحبر معين ويجفف ثم يحل بالماء فيشربه المريض استشفاء.

– شجرات الإنسان وعقود الأنكحة التي يتأنق الكتاب في تحريرها والخطاطون في تزويقها فتصير قطعة فنية كبرى. وهي كلها على الطراز الفارسي أو متأثرة به على أقل تقدير.

– مناقب الأولياء وهي كثيرة (منها جها) واحد ولكنه متطور من القرن الرابع إلى القرن الرابع عشر.

– الكنانيش ج كناش لفظ أرامي دخل العربية، وهو دفتر خاص لتقييد المعلومات الخاصة بصاحب الكناش Carnet de notes . وعادة اتخاذ الكنانيش عامة بتونس وهي ملأى بالأخبار الحضرية والفولكلورية.

هذا هو الأدب النثري أما الأدب الشعري فيدخل فيه باللغة الدارجة التونسية. 1) الأغاني. 2) الأمداح النبوية. 3) أمداح الأولياء. 4) أدب التوحيد. 5) الغزل. 6) الهجاء. 7) حديث الأبطال والملاحم القديمة والمعاصرة. 8) الشعر السياسي. 9) سفائن الأغاني.

التقنيات

وهي في الحقيقة كنانيش مكتوبة باللغة الدارجة منها : كنانيش الحرائرية. كنانيش الشواشين (أصحاب الطربوش المغربي) . كنانيش الرمالين Géomancie وأصحاب قرعة الطيور Ornithomancie وقرعة اليد Chiromancie وقرعة الكتف Spalatomantie إلى آخره.

والمهم في هؤلاء أن نعرف صلتهم التقنية بأمثالهم من الشرق. فنعرف مثلا أن الغزالي كتب في قرعة الكتف وكتبه هذه موجودة إلى الآن بتونس. ونريد أن يدرس أحدهم هذه الكتب التقنية حتى نعرف المفردات التقنية الإيرانية الموجودة فيها. فمن طالع مفاتيح العلوم للخوارزمي وجد

الكثير من الألفاظ التقنية الموجودة فيها من أصل إيراني. لكن اختلاط الصناعات التونسية بالإسبانيين والإيطاليين والفرنسيين غيرت الكثير من ذلك. فالمثلث équerre كان يسمى بتونس « قونية » ثم صار يسمى الآن قرطبون (esp: Cartabon). والمسحج الكبير صار يسمى قرنوبه (esp: Varloppa) وكذلك صناعة الشاشية التي كانت - في الأصل ولا بد - ذات مصطلحات فارسية بقيت منها كلاح (كلاه) وشاشية ، صارت كلها إسبانية. فالأمر يحتاج إلى دراسة تمر بكتب الصناعات التونسية أو الأندلسية التي تسمى كتب الحسبة مثل : «أحكام السوق» ليحيى بن عمر ومثل «ترتيب السماسرة» للابياني ومثل «معالم القربى» للسقطي ومثل «تحفة العروس» للتجاني (في زينة العروس وإعدادها) ففيه ألفاظ فارسية كثيرة ومثل كتب ابن عبدون الأندلسي « لحن العامة » أو « إصلاح المنطق » التي تعطينا اللغة في طور ما من تاريخها. وكذلك دراسة اللغة المالطية التي هي لغة بغدادية عباسية محفوظة منذ القرن الثالث في جزيرة فهي أكثر احتفاظا بالألفاظ القديمة على ما يظهر:

فأنت ترى أن مناط البحث طويل والعمر قصير والله الملهم للصواب.

الأوهام والبدع

نتحدث عن العقائد والبدع التي تسمى مصالح مرسلة، فهي قد جاءت بعد الإسلام ولكنها لا تخالفه ولا تنافيه. فإذا كانت تنافيه وتخالفه فهي محرمة بلا خلاف . وقد كتب في ذلك كثيرون . وأول من كتب في ذلك محمد بن سحنون القيرواني المتوفي في منتصف القرن الثالث: نتحدث عن ذلك في العناوين الآتية :

1) البخور : البخور التونسي يكون : الوشق (وهو من الفارسية أشق Gomme ammoniaque). والجاوي من جاوة . والقماري bois Khmer و Khmer وهي قمار بالعربية أي من بلاد السنف Cham التي هي كمبوجيا الآن وبها مسلمون كثيرون يسمون Cham فالعود القماري جاء من هناك فلما ثارت حروب الفياتنام قل بتونس .

وفي كل مناسبة يقع البخور : وعادة الأسواق التونسية أن يمر في

الصباح الباكر البخار يبخر الدكاكين والقارىء يقرأ ما تيسر من آيات الذكر الحكيم مقابل دريهمات وكذلك يكون في البيوت تطهيرا للجو وإبطالا للسحر وإبعادا للعين التي عين ودود وعين حسود . ويكون في الزوايا (الخانقاهات) وفي مناسبات عقود الأنكحة والختان والنفاس والزواج وحتى المآتم .

2) رؤوس السنة : عندنا عدد لا بأس به من رؤوس السنة :

أولا : رأس السنة الهجرية . ومنذ القرن الاول للهجرة أمر موسى بن نصير أن تضبط الفلاحة والضرائب بالسنة العجمية أي اليوليائية التي ضبطها يوليوس قيصر سنة 46 ق . م وانتشرت في بلدان حوض البحر المتوسط مشرقا ومغربا . وبقي العام الهجري مقصورا على التواريخ الرسمية والمواسم الدينية . ولكن الناس متمسكون به غاية التمسك . ويحتفل برأس السنة الهجرية في تونس غاية الاحتفال .

ثانيا : رأس السنة اليوليائية وتسمى بالتونسية رأس العام العجمي أي الروماني . تبدأ يوم 14 يناير الغريغوري . وتضبط بها حسابات الفلاحة وفصول السنة . فيقال زيتون كتوبري ، ومطرة في مارس ذهب خالص . ومطرة في أبرير تطلع السبولة (السنبلة) كيف تكون في قاع البير ، وفي ميو أحصد زرعك كيف يكون فليو (فودنج Pouliot) .

ورأس السنة هذه أسسه يوليوس قيصر الإمبراطور الروماني سنة 46 ق.م وبقي في المغرب والمشرق. وألفت فيه كتب كثيرة أهمها كتب إبراهيم الأجدابي الليبي عن الأنواء (القرن السادس الهجري) ط. المجمع العلمي العربي بدمشق.

وفي رأس العام هذا يحتفل التونسيون احتفالا كبيراً فيطبخون الملوخية ويأكلون الفول والحمص وكل ما هو أخضر وسريع النمو ليكون العام أخضر وسريع النمو ويرشون الماء حتى على الأشخاص لأن الماء « أمان » وهكذا اسمه بالبربرية أمان فهذا من التلاعب اللفظي. ويلبسون الجديد ويعدون الحلويات ليكون العام حلواً.

ثالثاً : رأس العام الغريغوري أو الإفرنجي الذي أصلح به البابا غريغوريوس

الثالث عشر (1502 ـ 1585) وإليه ينسب التقويم الجديد. وهذا العام جاء به الإيطاليون والفرنسيون وعم استعماله في المصالح الإدارية إلى جانب العام الهجري وفي المعاملات مع الإفرنج.

رابعاً : رأس العام الإيراني أو النوروز القديم. ويسمى عندنا غرة مايه العجمي أي يوم 14 ماي الغريغوري. تحرم فيه أشياء وتحلل أشياء وتتقرر أشياء. فمما يحرم اشتراء الثوم حتى لا يكون العام كريه الرائحة مرير الطعم ولا تشترى المكانس حتى لا يكنس العام كنساً بما فيه من جوارف وجوائح. لا قدر الله. ومما لا بد منه وضع شرائط في باحات البيوت يعلق فيها الليم الحلو والنارنج في أغصانهما وذلك لعذوبة الليم الحلو وجودة النارنج وجمالهما وريح قشرتهما الذي هو علاج للصداع ومادة عطرية لإعداد الحلويات.

والنوروز ـ ويسمى بتونس النيروز من باب اجتناب تلاقي المثلين Dissimulation مثل موتور Motor بتونس ميتور وقودوس اليونانية Godos بالتونسية قادوس إلخ ... ـ قديم لا شك أنه جاء مع المهالبة وانتفد نهائياً مع الأغالبة وله عادات وطقوس كثيرة بتونس تحدث عنها بأطناب المؤرخ التونسي ابن أبي دينار القيرواني في كتابه : « المؤنس في أخبار إفريقية وتونس » في الباب الأخير الذي هو حديث عن عادات التونسيين يحسن الإطلاع عليه.

الفصل الثاني

حياة مقارنة

في الأسواق

إذا تجولنا في أسواق المدن الكلاسيكية بإيران نشعر كأننا لم نغادر القيروان أو سوسة أو تونس. فالأسواق مسقفة وكواها ترسل أعمدة من نور فوق نصف ظلمة الدهاليز وألوان الأقمشة اللماعة المتحركة الملتصقة المؤتلقة والألبسة المختلفة بحسب الجهات واللهجات الآتية من كل إقليم وأصوات السماسرة والمنادين والدكاكين المصطفة والمصاطب المفروشة أمامها وقد جلس عليها الحرفاء يقبلون البضائع ويناقشون الأسعار.

فكل هذه المشاهد الشيقة الريقة وهذه المجموعة الطافحة الفياضة من الألوان والأصوات والأشكال والحركات وهذا المعرض البشري الحي للأصناف الإنسانية وللهجات وهذه المدرسة السيكولوجية للإرتجاعات والدوافع والإنعكاسات التي تستطيع أن تدرس فيها روح الجموع أجل دراسة على الحي هي كلها واحدة عبر آلاف الكيلوميترات.

في الجوامع

وإذا تجولنا تارة بجوامع إيران وتارة بجوامع تونس فإننا نجد وجوه شبه عجيبة أولها وجود الصحن الكبير الذي لا نجده بالجوامع الحنفية لأن البلاد الحنفية في الغالب بلاد باردة فلا تتأتى فيها الصلاة في الصحن. ونجد هذا الزليج ذا الإئتلاق المعدني الذي زين به محراب القيروان وزينت به جوامع تونس وغيرها من المدن إلا أننا لا نجد القبة البصلية إنما نجد القبة الفاطمية الشبيهة بها سواء في جامع القيروان أو في جامع الزيتونة بتونس. ونجد هذه الغابة من الأعمدة التي تعطينا انطلاقاتها إلى أعلى معنى انصراف

القلب إلى الله تعالى ومعنى اللانهاية العمودي كما أن ممراتها بين الإسطوانات تعطي معنى اللانهاية الأفقي.

وإذا نظرنا إلى اجتماع صفوف المصلين في صحن الجامع تصورنا اجتماعهم في صحن الزيتونة بتونس نفس الخشوع ونفس الانغماس في التقوية والتعبد ونكران المحيط الدائر والاتجاه بالكلية في انجذاب تصوفي سليم إلى الخالق جل وعلا.

في رمضان

ثم يأتي رمضان الذي هو شهر الدين. رمضان بجماهيره التقسيه المتدافعة. بآذان صوامعه وبتلاوة القرآن في جوامعهوبحلقات الوعظ في مساجده وبتدافع الناس في أسواقه مجموعات طافحة فياضة من الألوان والأشكال والحركات ونيران اللهمات وتلاعب الظلال والأنوار ومقابلات الصمت والدوي والسرعة والبطء. حياة حركية متدفقة شاملة وإيمان باسم مطمئن يقر العين ويثلج الصدر، وتنقل متواصل من الجامع إلى السوق ومن السوق إلى البيت ومن البيت إلى الجامع، واجتماع في الميادين قبيل المغرب وتبخر سحري للجماهير بعد ثوان وتدفق وفيضانات بشرية في الأسواق والدكاكين والمساجد وموسيقى المسحر في الأزقة والسامر في أطناف المآذن وتصاعد آيات بينات من الذكر الحكيم باصوات ملائكية مسيلة للدموع منطلقة من البيوت والميادين والمساجد.

فهل تحولنا من تونس إلى إيران أم من إيران إلى تونس؟

في البستان

نصف أزهار البستان قد أتت من إيران. عطرشاه الحواشي والسواقي والمماشي، وقباب الياسمين وخمائله ومعرشاته الخضراء البيضاء الزرقاء كأنها سماء بنجومها أو قبة ديباج بتطريزاتها والآس والسوسن والليلك هذه الأزهار المتنوعة المحتشمة والجسورة والمختفية والمتبدية والمقيرشة والمتسلقة والبيضاء والزرقاء والصغيرة والكبيرة وهذه الورود العطرة الخضلة النضرة كأنها خدود العذارى فيها مخملها وسندسها وارجوانها

وعطرها وعبيقها وعبراتها العنبرية. نفس المماشي بسماطين من سرو يتحول عفصه إلى صناجات وتتحول أغصانهـا إلى أيد مخضبة بالحناء مصفقة في احتشام راقصة في أناقـة وجلالة وغنج وقد سرح فيها الحسون يصرصر سلسلته الغنائية الساحرة الخلابة الأخاذة الشيقـة الريقـة المغـريـة.

ووصلنا البركة ، البركة الـكبرى وفيها كشك وقد سرح فيها الأوز الـكبير الأبيض والأسود تعقـد المرمر من أسود وأبيض كالعلجية البيضاء وخادمتها الزنجية وكاشتراك الفجر بين ليل دامس وصبح محتشم ووردية فردوسية. وفي الكشك وسط ماء البركة بين أسراب الأوز الكبير النافرة وبين أسراب الزوارق المتدافعـة في صمت وإيقـاع مجاذيف في موسيقى صامتة ارتفعت أنغام موسيقى ملائكية فيها رنات العيدان وخفقات الكمان وتجاوب الألحان بأبدع ميزان .

هل نحن في بركـة الأغالبة بالقيروان أو ببركة رقـاده أم بجنة العريف في قصر الحمـراء أم ببركة قصـر الزهـرة في سيدي أبـو سعيـد قرب تونس أم نحن في اصفهان ... كلها مختومة بـألف ونون علامـة العظمة والسلطان والفن والمهرجـان من طهران الى القيروان ...

الفهرس

طبع بمصنع الكتاب
للشركة التونسية للتوزيع
تـــونس

بتونس من 1929 الى 1954

— استاذ تـــاريخ وجغرافيـــا بمدرسة الخلــدونية بتونس من 1924 الى 1955

— رئيس قسم البـرامج العـربية بالاذاعة التونسية من 1938 الى 1943،

— خزائنيا ومصـادريا بالمكتبة العمومية بتونس من 1944 الى 1956 ، ثم حافظا للمكتبة القومية بتونس من 1956 الى 1965

— مستشارا لدى وزارة الشؤون الثقافيـــة من 1965 الى 1967 ثم عين مكلفا بمهمة لدى الوزارة نفسها من سنة 1967 الى يومنا هذا .

— عضوا بالمجمع العلمي العربي بدمشق

— محاضرا زائرا بجامعة الربـــاط بالمغرب وبالجامعات الليبية والاردنية والسورية .

مؤلفات

ألف مـــا يناهز الاربعين كتابـا باللغة العربية في التاريخ والادب وعلم اللغات، والفلكلور ...

ومن اهم هذه الكتب :

— تاريخ الجزائر (1926)

— الادب العربي الجزائري (1927)

— الفلكلور التونسي (1957)

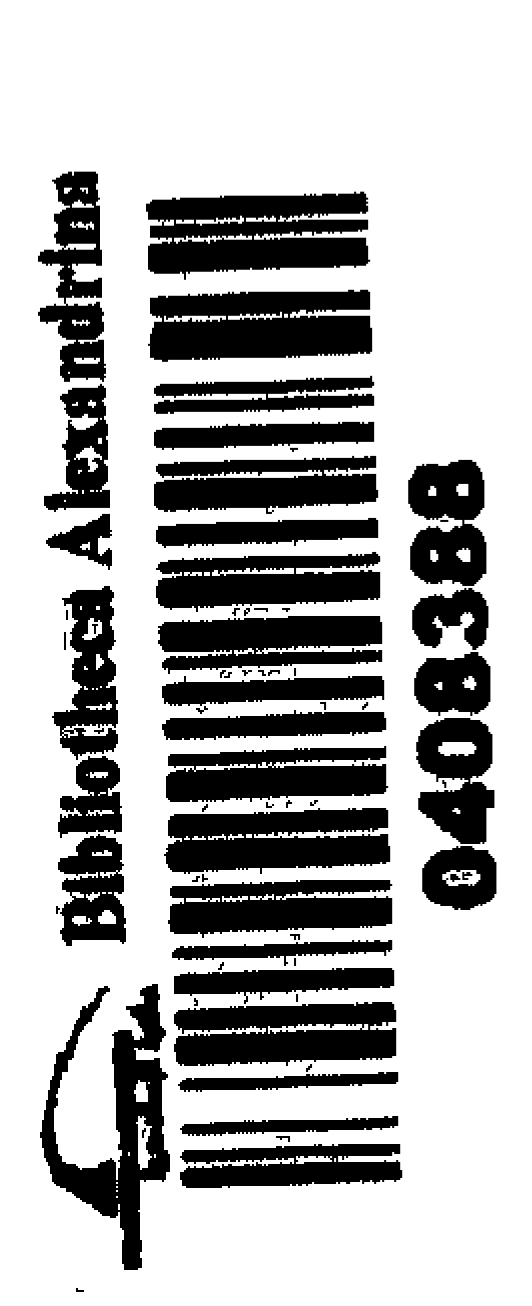
— مصادر « بيبلوغـرافية » ابن خلدون (1957)

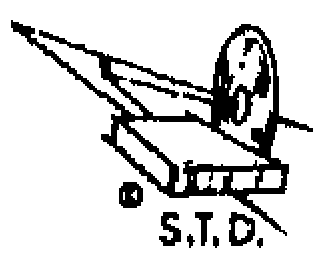
— الفلكلور العراقي (1957)

— مراكز الثقافة بالمغرب (1957)

— البربر (1957) .

— الحضارة العربيـة في الجـــزر الوسطى للبحر المتوسط (1965)


Bibliotheca Alexandrina
04083388


S.T.D.